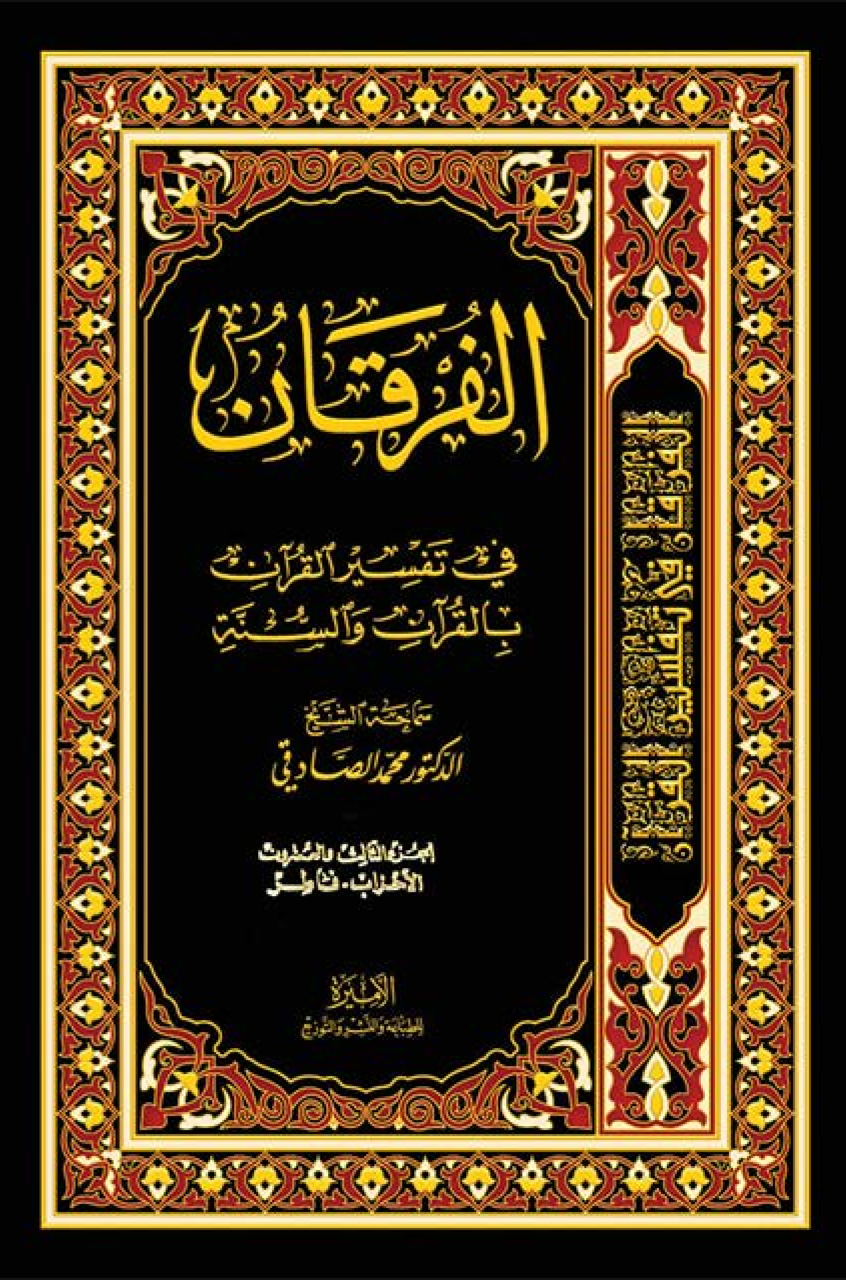

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء الثالث والعشرون
الأحزاب - فاطر
الأميرة
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

الجزء الثالث والعشرون

سورة الأحزاب - سورة سبأ

سورة فاطر



سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي

٣٣

سُورَةُ الأحزاب



مدنيّة وآياتها ثلاث وسبعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

الحزب جماعة فيها غِلظٌ وتماسُك مهما قلّت أو كثرت فعُدّة التماسُك هي ركنها دون عِدَّة المتماسكين فإنها زيادة في عُدّتهم، فقد تكون جماعة كثيرة وليست حزباً لعدم الغلظة التماسك، أو قليلة هي حزب للغلظة التماسُك، فهذه حزب دون تلك مهما كانت حزب الرحمن أم حزب الشيطان.

ولم يأت الحزب في سائر القرآن السبعة بخير إلّا في المائدة: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[1] والمجادلة: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2] وفي الكهف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾[3].

ولم يأت الأحزاب الإحدى عشر فيه إلّا بشرٍّ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾[4] مما يدل على أن في عديد الأحزاب شراً قضيةَ الاختلاف وإن كانوا من حزب الله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[5] فإنما الاختلاف والاختلاق في حزب الشيطان، وحزب الله واحد: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[6] ﴿. . . تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾[7] ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[8]! وهؤلاء هم أهل كتاب واحد وأمر واحد فتقطعوا أمرهم بينهم. .

والأحزاب ثلاثة، هنا في الأحزاب كلها حزب الشيطان، ولذلك تتسمى سورة الأحزاب مستعرضة سيرة الأحزاب وثورتهم وسريرتهم، ولكي

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٦.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٢.
(٤) سورة غافر، الآية: ٥.
(٥) سورة الزخرف، الآية: ٦٥.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.
(٧) سورة الروم، الآيتان: ٣١، ٣٢.
(٨) سورة المؤمنون، الآية: ٥٣.

ينتبه المؤمنون فيتماسكوا قدر المستطاع في حزبهم الواحد «حزب الله»: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ . . .[1]! وأهم تماسك بين أفراد يجعلهم حزباً هو العقائدي الذي يحلّق على كافة الوحدات والطبقات سياسياً واقتصادياً وثقافياً أماذا، وفي قمتها التوحيد حيث يوحد بين قطاعات عظيمة بشرية يجعلها حزب التوحيد، ومن ثم الرسالة الإلهية، فأحرى بالمسلمين أن يكونوا حزباً واحداً هو حزب الله مهما اختلفت درجات إيمانهم وسائر ميِّزاتهم وفوارقهم حيث تظل تحت ظل الإسلام وحدة متماسكة وصفاً متراصّاً لهم قوتهم الصارمة ضد الأحزاب الكافرة، وحين لا نجد أي حزب في صارم الوحدة من كل الجهات إلّا وحدة جانبية سياسية أو اقتصادية، وهم أحزاب لهم قوَّاتهم بما تجمَّعوا، فلماذا لا نتوحَّد نحن المسلمين في حزب الله، وكل اختلاف وراء العقيدة تتوحد على ضوئها أم تذوب؟!

ولماذا نختلف في أحزاب متعارضة متباغضة لأهداف سياسية مختلفة أما هيه، تحليقاً لسائر الوحدات على الوحدة العقيدية الإسلامية؟ تلك إذاً قسمة ضيزى!.

فلأن الله واحد وشرعته واحدة فحزب الله واحد، وعديد الأحزاب بين المسلمين دليل تخلُّفهم عن شرعة الله، أو تفضيلهم سائر الوحدات على الوحدة الإسلامية السامية، ألا ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ . . . فلا مبرِّر لأي اختلاف بعد الوحدة الإسلامية:

هذه السورة تبدأ بتحذير الرسول ﷺ عن الأحزاب الكافرين والمنافقين، وأمره باتِّباع ما يوحى إليه والتوكل على الله، ثم تتناول قطاعاً واقعيته من حياة الكتلة المؤمنة في فترة تمتد بعد بدر الكبرى إلى ما قبل صلح الحديبية، بازدحام الأحداث خلال هذه الفترة، والتنظيمات التي

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

أنشأها الرسول ﷺ لتبني الدولة المجيدة الإسلامية واستمراريتها المعصومة بعد الرسول ﷺ إلى القائم المهدي (عجل الله تعالى فرجه) كما تتبناها آية التطهير، وبطيّات سرد النُّظُم الحديثة يستطرد الحديث عن غزوة الأحزاب وبني قريظة ومواقف الكفار والمنافقين واليهود والمرجفين في المدينة ودسائسهم وسط الجماعة المؤمنة!

ثم وفي السورة نبذات هي نبضات في هذه الحياة الجديدة تثبتاً لبعض التقاليد مع إصلاحها، وتبديداً لأخرى كالمظاهرة والتبني، وإخضاعاً للأمة للشرعة الجديدة الجادَّة.

وسورة الأحزاب هي هذه الحاضرة لدينا، دونما زيادة عليها أو نقيصة عنها، أو تقديم لآية أو بعضها أو تأخير كسائر السور بأسرها في حصرها لآياتها جملات وآيات، خلاف ما يهرف به من لا يعرف، تحريفاً فيها بنقيصة أماهيه؟[1].

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٣٣ ح ١ في كتاب ثواب الأعمال بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: من كان كثير القراءة لسورة الأحزاب كان يوم القيامة في جوار محمد ﷺ وأزواجه ثم قال: «سورة الأحزاب فيها فضائح الرجال والنساء من قريش وغيرهم يا بن سنان سورة الأحزاب فضحت نساء قريش من العرب وكانت أطول من سورة البقرة ولكن نقصوها وحرفوها».
أقول: ليضرب هذه وأضرابها عرض الحائط لمخالفتها في بُعدين بعيدين لكتاب الله، آية الحفظ وأضرابها، وإنها تخالف القرآن المتواتر الموجود، وأحاديث العرض تضربها عرض الحائط، وترى كيف بالإمكان أنها (٧٣) كانت أطول من البقرة وهي (٢٨٦) آية فتنقص منها أكثر من مائتين ما عرفها إلّا ابن سنان دون المسلمين الحضور زمن تأليف القرآن، ولم يكن يجرؤ مثل الخليفة عمر أن يترك الواو الثاني في ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] حيث صرخوا عليه أين الواو يا خليفة رسول الله ﷺ؟، فلم تكن تهمة التحريف وبهذه الوسعة الشاسعة إلّا هرطقة إسرائيلية وما شاكلها!
وفي الدر المنثور ٥ : ١٧٩ مثله كالتالي: وأخرج عبد الرزاق في المصنف والطيالسي وسعيد ابن منصور وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن منيع والنسائي وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف والدارقطني في الافراد والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء في المختارة عن زر قال قال لي أبي بن كعب: كيف تقرأ سورة الأحزاب أو لم تعدها؟ قلت ثلاثاً وسبعين =

بدايتها مِسك بمسكُ التقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾. . . وختامها مِسكٌ بمَسك التوبة «ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً» وبينهما رائحة المسك في توجيهات تتبنّى تقوى الله والتوبة عن الطغوى!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾:

= آية فقال أبي: قد رأيتها وإنها لتعادل البقرة وأكثر من سورة البقرة ولقد قرأنا فيها «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» فرفع منها ما رفع، وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن ابن عباس قال: أمر عمر بن الخطاب منادياً فنادى أن الصلاة جامعة ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس لا تجزعُنّ من آية الرجم فإنها آية نزلت في كتاب الله وقرأناها ولكنها ذهبت في قرآن كثير ذهب مع محمد وآية ذلك ان النبي ﷺ قد رجم وأن أبا بكر قد رجم ورجمت بعدهما وأنه سيجيءُ قوم من هذه الأمة يكذبون بالرجم.

أقول: لو كانت آية الرجم من كتاب الله وعمل بها منذ الرسول إلى عمر فكانت - إذاً - معروفة لدى حفاظ القرآن وسواهم فلماذا لم يثبتها عمر، وفيه أخرج أحمد والنسائي عن عبد الرحمن ابن عوف أن عمر بن خطاب خطب الناس فسمعته يقول: ألا وإن أناساً يقولون ما بال الرجم وفي كتاب الله الجلد وقد رجم النبي ﷺ ورجمنا بعده ولولا أن يقول قائلون ويتكلم متكلمون أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت.

أقول: أضحِك به وأغرِب ومن الغريب أنهم ينسبون إلى رسول الله ﷺ تحريف آية الرجم، كما أخرج النسائي وأبو يعلى عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مروان وفينا زيد بن ثابت فقال زيد: ما تقرأ «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»؟ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ أنبئني آية الرجم قال: لا أستطيع الآن، هذا وقد أخرج ابن الضريس عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أن خالته أخبرته قالت لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة»! ثم نرى نقيضه فيما أخرج ابن الضريس عن عمر قال قلت لرسول الله ﷺ: لما نزلت آية الرجم أكتمها يا رسول الله ﷺ قال: لا أستطيع ذلك، وأخرج ابن الضريس عن زيد بن أسلم أن عمر بن خطاب خطب الناس فقال: لا تشكوا في الرجم فإنه حق قد رجم رسول الله ﷺ ورجم أبو بكر ورجمت ولقد هممت أن أكتب في المصحف فسأل أُبي بن كعب عن آية الرجم فقال أبي: ألست أتيتني وأنا أستقرئها رسول الله ﷺ فدفعت في صدري وقلت أتستقرئه آية الرجم وهم يتسامرون تسامر الحمر؟» أقول فاقض العجب من هذه الهرطقات المتناقضة وتبرأ منها إلى الله!

يرسم في هذه الثلاث تخلية السلب: ﴿اتَّقِ . . . وَلَا تُطِعِ﴾ وتحلية الإيجاب: ﴿وَاتَّبِعْ﴾ ثم يتبعهما بسياج التوكل على الله في كل سلب وإيجاب، ليرسم حياته الرسالية كلها بكلمة الإخلاص ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾!

وإنها آية فريدة منقطعة النظير، آمرة بتقوى البشير النذير، لأن موقفه من الكافرين والمنافقين خطير خطير، وهذه تقوى سياسية تجنباً عن أن يُدلوه بمواعيدهم العَسِلة، كأن يرفض ذكر آلهتهم حتى يدعوه وربه[1] معاملة التهاتر بعُملة الوعد الكذب، ما لو كان صادقاً لكان صاداً للدعوة الإسلامية لفترة، مما يدل على تسرُّب المصلحية السياسية في هذه الدعوة فتبوء بالفشل والخسار والدمار، فظاهره فيه الرحمة وباطنه من قِبَله العذاب!

فلذلك «يا أيها». . . لا «يا» فقط أو «أيها» تدليلاً على خطورة المنادى له وتنبيه المنادى.

أترى أن النبي كان متلبساً بطاعة الكافرين والمنافقين حتى يتقيها؟ كلّا والتقوى هي الابتعاد عن المحظور، وأصلها ما لم يتلبس وهو على أشرافه،

---

(١) في المجمع نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السلمي قدموا المدينة ونزلوا على عبد الله بن أبي بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ﷺ ليكلّموه فقاموا وقام معهم عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعيد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فدخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال عمر بن الخطاب: ائذن لنا يا رسول الله ﷺ في قتلهم فقال: إني أعطيتهم الأمان وأمر ﷺ فأخرجوا من المدينة ونزلت الآية ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأحزاب: ١] من أهل مكة (أبو سفيان وأبو الأعور وعكرمة) والمنافقين (ابن أبي وابن سعيد وطعمة).

وفي الدر المنثور ٥: ١٨٠ - أخرج ابن جرير من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ إلى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤] أقول: هذا يناسب جوّ مكة وقد مضى، وأما المدينة فلا يناسبها هذا الاقتراح وقد يئسوا من تطميعه بمال أو منال!

وأوامر الله ونواهيه الموجهة إلى شخص النبي ﷺ تنقسم إلى تشريعية لو لولاها لم يعرف النبي إيجاباً أو تحريماً، كالأحكام التعبدية غير الضرورية، وإلى تأكيدية فيما هو ضروري معلوم كـ ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١) و﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(٢) وإلى سياسية ظاهرها غير باطنها فهي تنبيهية كهذه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾....

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ للنبي التقي في القمة، تنبيهة لاستمرارية التقوى، ولتقوى تقواه كل حين أقوى مما مضى، فلأنه يزداد علماً ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾(٣) فليزدد على ضوئه وتباعاً له تقوى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾(٤) وليس لذلك اليقين حدٌّ يقف عليه، فلا وقفة لعبادته وتقواه، ثم للتقوى واجهتان: أن تتقي بنفسك عن الحق وهو الاتقاء بإسناد النقائص كلها إليك عن إسنادها - أياً كان - إليه، فتجعل نفسك وقاية له تعالى.

أو تتقي بالحق عن نفسك وهو الاتقاء بإسناد الكمالات كلها إليه تعالى عن إسنادها إليك فتجعله وقاية لك، وهما كمال التقوى أن تتخلى عن كل ما يختص بالله وتخلِّيه تعالى عن كل ما تختص بك، وكلما وراءهما طغوى بدركاتها، كما هما تقوى بدرجاتها.

وأما ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ فهو متكرر له في الذكر الحكيم، نهياً عن المسايرات السياسية فيما ظاهرها مصلحة، لولا العصمة الإلهية لتفلت النبي ﷺ بالتفاتها ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾(٥) لا تؤذهم وإنْ يؤذوك، ولا تطعهم وعدَ ألّا يؤذوك! ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٩٩.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤٨.

مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[(١)] ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾[(٢)] ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[(٣)] ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[(٤)] وعلى الجملة: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(٥)].

كل ذلك نهي عن طاعتهم ولمَّا يقترف، ولكي يبقى مفارقاً غير مقارف، وكل ذلك في التلبيسات السياسية التي تزلُّ فيها الأقدام، والله يعصم رسوله فيها عصمةً كاملة كافلة للدعوة الرسالية المعصومة العاصمة للأمة!

إنه ﷺ قطعاً لم تخلد بخلده لهم طاعة، ولم تحصل في أي من هذه الموارد، فالنهي تأكيد للترك، والتداوم على الترك، ولكي يسمع الكافرون والمنافقون الطامعون طاعته، يسمعوا تحذيره من الإذاعة القرآنية فيتركوا اقتراحاتهم التي تشق عليه وتؤذيه!

«لا تطع...» لـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بك وبهم ﴿حَكِيمًا﴾ بما يصلح لك كرسول، وعليهم كمتربصي الدوائر بالرسالة والرسول، فالله عليم بما يجهلونه وما تجهله، حكيم بما لا تحكمه، وأنت كرسول دائب إلى قمم من العبودية.

والرسالة بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيماً، فمهما أرادوا ليكيدوك ويغروك أن في إجابتهم إخماداً لنائرة الحرب، وتقرباً لهم إلى الإسلام بتلك الاستمالة والتقارب، ولكنه أمرٌ ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾!

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.
(٢) سورة القلم، الآيتان: ٨، ٩.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.
(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ فلأنه ربك في كل صغيرة وكبيرة، ظاهرة وباطنة، ولكي تكون رسول ربك بما رباك فـ ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ وقد أحاط علماً بما يعمله الكافرون والمنافقون من شيطنة السياسات، وتهاترات المعاملات، التي تبوء بالخساء للرسول، وبالدمار للرسالة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ وكما أحاط خبراً وعلماً بما تعمله أنت ومن معك، فـ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تشملها، تنديداً بأعمالهما وحيطة على أعماله بمن معه.

ولكي تكون على أهبة كاملة كافلة لتقوى مطلقة، وتركٍ لطاعتهم مطلقاً، رغم المناوآت والعرقلات التي لا تملك صدها، بعدما وفيت وكفيت جهودك كلها:

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾: فلا توكُّل على سواه إذ لا وكيل في المخاطر والضرورات إلّا الله، فتوكل على الله لا سواه، في أن: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ لا سواه وفي أن: «لا تطع...» إلَّا إياه!

أصل السلب: «لا إله» وأصل الإيجاب: «إلَّا الله» محوَّل إلى محاولة العبد، ثم المطلق فيهما موكل إلى حول الله، فـ ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ ... وَلَا تُطِعِ... وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ... قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾(١).

وهلَّا يطع الكافرين - فقط - والمنافقين - إذاً - فله أن يطيع غيرهما من المسلمين والمؤمنين؟! كلّا! فلا طاعة لغير الله، وعل تخصيصهما بالذكر هنا لأنهما أراداها منه دون غيرهما، وأن طاعتهما طاعةٌ كافرة أو منافقة، وطاعة غيرهما طاعة فاسقة، أو أن كل من طلب منه ﷺ طاعته من دون الله أو مع الله فهو بذلك يصبح في صف الكافرين أو المنافقين، ولا طاعة

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

لخصوص الرسول إلّا طاعة الله ولا اتباع له ﷺ إلّا لوحي الله، إذ ليس يتأمر عليه وليٌّ إلّا الله، فمهما صحت طاعة لغير الرسول غيرَ الله، من رسول أو إمام معصوم أمّن ذا من الدعاة إلى الله، فلا تصح للرسول ﷺ إلّا طاعة الله واتباع وحي الله!.

ولو لم تدلنا ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ على ألّا يطع غيرهما، فقد يدلنا ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إضافة إلى سائر الآيات في طاعته واتباعه ﷺ.

فهذه الثلاثة رصيدات لهذه الداعية حيث تقيم وتقوِّم دعوته على المنهج الواضح الناصح: تقوى الله وترك طاعة من سوى الله، والتوكل فيهما على الله! مهما كان من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، يسمعانه فيقطعان آمالهم عن طاعته ويسمعه المؤمنون فيتقون!

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾:

هنا أمور ثلاثة ما جعلها الله من تكوينية تُحيل أن يجعلها غير الله، ومن تشريعية تحرِّم عليهم جَعلها، أترى أن بينها في سلبها أو إيجابها صلةً ورباطاً؟ ثم ترى أن لها أم لأولاها رباطاً بما سلفها؟

إن لأولاها رباطاً عريقاً سالفها ولاحقها، فطاعة الله وطاعة الذين يحادون الله تتطلب قلبين اثنين إذ لا تجتمعان في قلب واحد، فالذي يمزج بينهما - ضغث من هذا وضغث من ذاك - لا يطيع إلّا هواه، دون الله وسواه، حيث الطاعة المطلقة التي هي الطاعة لا سواها، تحيل كونها بين اتجاهين متناحرين، إلّا أن يكون للمطيع قلبان اثنان فيصبح كشخصين يطيع ويهوى بأحدهما الله، وبثانيهما مَن سواه.

كما ولم يجعل لرجل من أمّين اثنين، التي ولدته والتي ظاهر منها، لا جعلاً تكوينياً ولا تشريعياً، أن تنزّل الزوجة المظاهرة منزلة الأم، وإن أمكن في غيرها كالأم الرضاعية، وكذلك الأمر في الأدعياء فهم ليسوا أبناءً ولا بمنزلة الأبناء.

وليس لقلب واحد أن يتجه ويهوى إلى أمّين على سواء، ولا إلى ابنين على سواء، وأحدهما مجازي مجعول بحق أو باطل، اللهم إلّا أن يكون لرجل من قلبين في جوفه!

فالضابطة الرئيسية في هذا البين ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ أن يصبح كشخصين يتجه كلٌّ إلى وجهة، مضادة أو مناقضة للأخرى في حب مطلق وهوى أو بغض مطلق أما ذا؟

فالجمع بين اثنين في قلب واحد مستحيل في متناقضين، أو ناقص في مختلفين، فإنه بكماله مستحيل كتمام الحب لهذا وتمامه لعدوِّه، وأما أن تجتمع في قلب واحد أمور عدة لحالة واحدة واتجاه واحدٍ مع الغض عن حب وبغض وطاعة وعصيان، وكل ما يستحيل جمعه في تصديق أم حب وبغض، فإنه من مقام جمع الجمع، يختص بالمقربين كقلب محمد وقلوب المحمديين المعصومين، فلهم الحيطة العلمية بما يتلقون من أعمال، هم من الشهداء فيها إلقاءً يوم الله، والله تعالى فوقهم فـ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[1] لا يشغله شأن عن شأن، دون من سواه ومَن سواهم.

ولقد ورد في شأن نزول آية القلبين منازل عدة ومن ذلك قلب المصلي: «فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله فهو قريب من ذلك الشيء بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته»[2] فإنها حقيقة التعلق بالله فلا

(١) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢٣٤ ح ٥ في مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام في كلام طويل له: .. قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ...﴾.

تجمعها تعلق بغير الله فـ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ ولقد كان قلب الرسول ﷺ وذويه متعلقاً متدلياً بالله، ومهما خطر خطره في الصلاة وغيرها تدليلاً على أمرٍ ما فهو أيضاً من الله وإن أخطأ في أمره خاطئون[١].

ومهما كان من شؤون نزولها تكذيب رجل ادعى أن له قلبين[٢] فليست لتكذب من جعل الله له مقام جمع الجمع أن يحيط علماً بأمرين أمّا زاد، ولا يجمع صاحب هذا المقام بين متناقضين، أم حبين لمتباغضين، كمن سواه من العالمين وكما الله رب العالمين - وليس له قلب - فليس ليجمع حبَّ المؤمن إلى حب الكافر أم بغضهما وهو لا يشغله شأن عن شأن!.

ولأن الواجب من حب الله وطاعته هو توحيده فيهما دونما ندٍ ولا شريك، فالجمع بين هكذا حب وطاعة، وحب الغير وطاعته لا يمكن في قلب واحد، إلّا ضغث من هذا وضغث من ذاك وهو من حب الهوى

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٨٠ - أخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال قام النبي ﷺ يوماً يصلي فخطر خطره فقال المنافقون الذين يصلون معه إلا ترى ان له قلبين قلباً معكم وقلباً معهم فأنزل الله ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ...﴾.

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال صلى رسول الله ﷺ صلاة فسها فيها فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون فأكثروا فقالوا إن له قلبين الم تسمعوا إلى قوله وكلامه في الصلاة إن له قلباً معكم وقلباً مع أصحابه فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ...﴾ [الأحزاب: ١] ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ...﴾.

أقول: ظاهر قولهم «قلباً معكم» أنه لم يكن سهواً وإنما قرأ آية تندد بالمنافقين وأخرى تبشر المؤمنين فظنوا ظنهم وخيل إلى ابن عباس أنه سهى ولم يكن إلا سهواً منه لا منه ﷺ!

(٢) الدر المنثور ٥: ١٨٠ عن مجاهد قال إن رجلاً من بني فهر قال: إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد فنزلت وفي المجمع نزلت في أبي معمر حميد بن معمر بن جيب الفهدي وكان لبيباً حافظاً لما يسمع وكان يقول إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد وكانت قريش تسميه ذا القلبين فلما كان يوم بدر وهزم المشركون وفيهم أبو معمر تلقاه أبو سفيان بن حرب وهو آخذ بيده أحدى نعليه فقال له يا معمر ما حال الناس؟ قال: انهزموا قال: فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ فقال أبو معمر: ما شعرت إلا انهما في رجلي فعرفوا يومئذ أنه لم يكن له إلا قلب واحد لما نسي نعله في يده.

وطاعتها، اللهم إلّا في قلبين، هذا يحبه تماماً وهذا يحب غيره، فممكن الجمع بين حبين في قلب واحد غير مطلوب، ومستحيله يمكن في قلبين و﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾!

فـ «لن يحبنا من يحب مبغضنا إن ذلك لا يجتمع في قلب واحد»[١] إن شرعة الحب والطاعة الالتقاطية شرعة منافقة لا تنبو ولا تنبئ عن إيمان مهما كان إيماناً بالحق أو بالباطل، فإنه قلب واحد، فلا بدَّ له من تعلق واحد ومنهج واحد، تصوراً كلياً للحياة كلها، وإلّا تمزق ونافق، فإما اتباع الهدى، أو الهوى حيث الخلط بينهما اتباع للهوى إذ لا تعتبر هداه هدىً ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[٢]!

وكما لا ينقسم شخص إلى أشخاص، كذلك لا ينقسم قلب إلى قلوب، يستمد آدابه في كل حقل عما يهواه من مَعين وعقل بينها تناحر وتشاجر، فأخلاقه وآدابه من معين، وشرائعه من ثان ولاجتماعياته من ثالث، ولاقتصادياته من رابع، وسياساته من خامس، وثقافاته من سادس، ولعقائده من سابع، فيصبح كالجحيم ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[٣] ممزَّقاً مشلاة بين أرباب متشاركين مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلآء ولا إلى هؤلآء، وإنه لشرٌّ مكاناً ممن يأخذ كلَّ جنباته من واحدٍ كافر!.

---

(١) نور الثقلين ٤: ٢٣٤ ح ٦ في أمالي الطوسي بإسناده إلى صالح بن ميثم التمار قال وجدت في كتاب ميثم يقول: تمسينا ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام فقال لنا: إن عبداً لن يقصر في حبنا لخير جعله في قلبه ولن يحبنا من يحب مبغضنا إن ذلك لا يجتمع في قلب واحد وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه يحب بهذا قوماً ويحب بالآخر عدوهم والذي يحبنا فهو يخلص حبنا كما يخلص الذهب لا غش فيه والقمي في رواية ابن الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال علي بن أبي طالب عليه السلام: لا يجتمع حبنا وحب عدونا في جوف إنسان... فمن أراد أن يعلم فليمتحن قلبه فإن شارك في حبنا عدونا فليس منا ولسنا منه والله عدوهم وجبرائيل وميكائيل والله عدو للكافرين.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٤.

إن كلَّ إنسان هو شخص واحد له قلب واحد لا يملك أن يتقسم في شخصيته وحالاته، يقول: أنا في كل حقل غيري في حقل آخر، فأنا بصفتي مسلماً أصلِّي وأحج و.. وبصفتي سياسياً أعمل وفق مصلحيات السياسة، وبصفتي تاجراً أعمل كرجل اقتصاد أمّا ذا من صفات في مختلف الحقول!

فالإنسان المسلم يعيش مسلماً في هذه كلها، حيث الإسلام يضم وينظم هذه كلها، فيعيش في المحراب كما في الحرب مسلماً، وفي السوق كما في المجلس النيابي مسلماً، يعيش في كل الحقول مسلماً مستسلماً لشرعة الله المتكفلة لكافة حاجيات الحياة وجنباتها.

فإذ يقول الله ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾[1] ليس ينهى عن المستحيل، إذ لا يعبد في الحق إلهين إلّا من له قلبان، وإنما يعني أن في اتخاذ إلهين اتخاذاً لإله الهوى ورفضاً لإله الهدى، ومن المستحيل طاعة مطلقة لسيدين متناحرين، اللهم إلّا طاعة لله كأصل وطاعة للرسول كرسول يوجه إلى الله وكما في طاعة الشيطان، فطاعة كلٍّ مستقلاً بجنب الآخر تتطلب قلبين اثنين، إلا أن يكونا في خط واحد أو سبيل واحد.

﴿... وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾...[2] ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾...[3] [4].

فالزوجة لن تصبح أمّاً، لا واقعاً فهي التي ولدته، ولا شرعاً فهي التي

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥١.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٣.
(٤) راجع الفرقان ج ٢٨: تجد تفاصيل الظهار بأحكامه.

أرضعته، دون لفظة القول: «أنت علي كظهر أمي» فلم يجعل الله الزوجة المظاهر منها كالأم، بل أبقاها زوجة بكفارة يقدمها لكي يحل له وطأها، وليس ذلك طلاقاً يخلصه منها ولا تخلصها منه، كما كانت هذه الظلامة العنيفة عادة الجاهلية إذ كانوا يحرمون وطأها بظهارها ثم تبقى معلقة لا ذات زوج فتوطأ ولا خلية فتتزوج! قسوة ما أسوأها معاملة مع المرأة المظلومة في الجاهلية الجهلاء، أزالها الإسلام بحسن العشرة:

﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾(١) ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾(٢) فالأم أمٌّ والزوجة زوجة لا تتحول واحدة منها إلى أخرى، لا بلفظة قولة ولا بأية محاولة، وأما الجمع بين كونها زوجة لا تتزوج وأمّا لا توطأ فهو جمع بين متضادين اثنين يحتاج إلى قلبين اثنين ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ وكذلك هو بحاجة إلى امرأتين اثنتين إحداهما زوجة لها ما لها، والأخرى أم لها ما لها، فلا تبديل ولا جمع، وكما ظهارهم من تبديل الجمع!

وإنّ صيغة الظهار محرِّمة محرِّمة تخلِّف كفارة إن أراد وطأها، وحِملاً عليه وعليها إن تركها، أو طلاقاً بحكم الحاكم الشرعي إن لم يفعل مداوماً في ترك الوطء! وبذلك تسلم الأسرة من تصدّعها بتلك العادة الظالمة التي كانت تمثل طرفاً من سوم المرأة سوء العذاب تحت نزوات الرجال، الجاهلية المتعنتة!

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ والدعيُّ من يُدعى ابناً وليس به، لا دعوة فقط في لفظة النداء، بل وفي كل ما تتطلبه البنوّة من التوارث وحرمة حليلته.

وقد كانوا في الجاهلية يتبنّون، قطعاً لبنوّة كواقع، ووصلاً لها إلى

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٢.

غريب كواقع، فتنقطع علاقات البنوّة عن الوالد الحق، وتتصل بالأب المتبني في كافة الصلات بالباطل.

يقال إن النبي ﷺ تبنّى قبل أن يُبعث زيدَ بن الحارثة، فكيف؟ ولماذا؟ وهل يشمله التنديد التجهيل وإنه خلاف الحق وخلاف القسط وهدى السبيل؟ أم ولأقل تقدير هو ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾... ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؟

كلّا! فـ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فضلاً عن الكافرين كأبي زيد ولما آمن زيدٌ وحسن إيمانه ورفض أباه المشرك أن يتبعه قال رسول الله ﷺ حينذاك تشويقاً للإيمان وتفريقاً عن الكفر: «اشهدوا أن زيداً ابني، فكان يُدعى ابن محمد ﷺ وكان يحبه وسماه زيد الحب...»[1].

فلان زيداً أملك بنفسه وأولى من أبيه حتى لو كان مؤمناً، وهو مشرك!

---

(١) نور الثقلين ٤: ٢٣٥ ح ١٠ تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام قال في سبب نزول الآية: كان سبب ذلك أن رسول الله ﷺ لما تزوج بخديجة بنت خويلد خرج إلى سوق عكاظ في تجارة ورأى زيداً يباع ورآه غلاماً كيساً حصيناً فاشتراه فلما نُبِّئ رسول الله ﷺ دعاه إلى الإسلام فأسلم وكان يدعى زيد مولى محمد ﷺ فلما بلغ حارثة بن شراحيل الكلبي خبر ولده زيد قدم مكة وكان رجلاً جليلاً فأتى أبا طالب فقال: يا أبا طالب إن ابني وقع عليه السبي وبلغني أنه صار إلى ابن أخيك تسأله إما أن يبيعه وإما أن يفاديه وإما أن يعتقه فكلم أبو طالب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: هو حرٌّ فليذهب حيث شاء فقام حارثة فأخذ بيد زيد فقال له: يا بني الحق بشر فك وحسبك فقال زيد: لست أفارق رسول الله ﷺ ما دمت حياً فغضب أبوه فقال: يا معشر قريش اشهدوا أني قد برئت منه وليس هو ابني فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني فكان زيد يدعى ابن محمد وكان رسول الله ﷺ يحبه وسماه زيد الحب فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زوجه زينب بنت جحش...

أقول: كان التوراة بين المؤمنين والمهاجرين سنة مأموراً بها قبل نزول آيات الإرث تشجيعاً للإيمان ومنها الآية التالية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ...﴾ [الأحزاب: ٦] وكان زيد مؤمناً مهاجراً فلم يكن هناك تبنٍّ وإنما بنوة الحب وميراث الإيمان والهجرة مهما تخيله الجماهير تبنياً كما كانوا يعملون!

ولأن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فولايته ﷺ عليه أولى من أبيه، بل لا ولاية لأبيه المشرك عليه وهو مؤمن، فما تعمد الرسول ﷺ جُناحاً في هكذا تبنيّه ولا أخطأ لو كان تبنياً ولم يكن إلّا تشريفاً!

أترى كان له في ذلك الموقف الحرج أن يسكت عن كلمة محببة أولاها: «اشهدوا أن زيداً ابني»؟ وما عليه ﷺ إذ يخيَّل إلى سائر المؤمنين - المتعودين في الجاهلية على ذلك التبني العارم - أنه أصبح ابنه، فحرامٌ عليه - إذاً - حليلته!

فلم يكن قوله ﷺ: «اشهدوا أن زيداً ابني» قولاً بفيه، وإنما عمق قلبه الجيب، ولم يرتب عليه شؤون البنوة، اللّهم إلا ميراثاً كان بين المؤمنين والمهاجرين بما فرض الله، ثم نسخه بقوله: ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾[1] ولم يحرِّم هو على نفسه حليلته ولا رتب عليه سائر أحكام البُنوَّة، فلم يشمله التنديد الإبطال:

﴿... ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾:

ذلكم الجعل الجاهل والحكم القاحل من مظاهرة وتبنٍّ ﴿قَوْلُكُم﴾ لا قول الله ﴿بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ دون رباط بعقولكم وقلوبكم ولا وحي، إذاً فهو قول باطل ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ لا سواه ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ لا سواه!

فالقول بالأفواه هو المنقطع الرباط عن دواخل القائل وخوارجه، فلا هو ينبع من نبعة فطرية أو عقلية داخلية، ولا وحي خارجي، فلا أثر له داخلياً في حب أو بغض ولا خارجياً من آثار الأمومة والبنوة والأبوة لا تكوينياً ولا تشريعياً، فهو قول باطل في بُعديه ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ إلى الحق.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

هذا رغم ما هنالك من آثار تهواه الأنفس في طقوس جاهلية لا تعدو حدود الخيال فتستأصلها آيات الله البينات ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ ومن الحق السبيل والسبيل الحق:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ لا «إلى آبائهم» فقد يختلفان إيماناً وكفراً فكيف يدعى الولد المؤمن إلى الأب الكافر؟ مهما صحت المعاكسة، أن تدعوا الولد الكافر إلى الوالد المؤمن ولكي يؤمن ولأنه يلحق به قبل بلوغ الحلم دون عكس، ثم «ادعوهم إلى...» لا يزيل أساس التبني، فقد يُدعى «إلى» وهو بعدُ ابنه كما يدعى غريب إلى غريب، فإنما ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ دعوة تختصهم بآبائهم نسباً وفي كل ما هو لزامه، فقولوا ابن فلان بدلاً عن ابني، لا في لفظة قول فحسب، بل وفي كل ما تتطلبه البنوّة اللهم إلّا ما يستثنيه الإسلام للولد المؤمن أو الوالد المؤمن.

ولقد دعى الرسول ﷺ زيداً لأبيه قبل أن تنزل آية الدعوة اللهم إلّا نسبة تشريفية تشويقاً له إذ رجح المقام عند الرسول ﷺ على اللحوق بأبيه[1] فما نرى فيما فعله الرسول ﷺ به إلّا خيراً وحقاً رغم ما زعمه المتبنون الآخرون قياساً لفعله بما كانوا يفتعلون!.

---

(١) مضى له قصة عن الإمام الصادق عليه السلام وفي لفظ آخر في الدر المنثور ٥ : ١٨١ وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان أمر زيد بن حارثة أنه كان في أخواله بين معن من طين فأصيب في غلمة من طين فقدم به سوق عكاظ وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوق بها فأوصته عمته خديجة رضي الله عنها أن يبتاع لها غلاماً ظريفاً عربياً إن قدر عليه فلما جاء وجد زيداً يباع فأعجبه طرفه فابتاعه فقدم به عليها وقال لها: إني قد ابتعت لك غلاماً ظريفاً عربياً فإن أعجبك فخذيه وإلا فدعيه فإنه قد أعجبني فلما رأته خديجة أعجبها فأخذته فتزوجها رسول الله ﷺ =

﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ . . . : أترى كيف تكون دعوتهم لآبائهم أقسط عند الله؟ وقضيته أن تبنيهم قسط! وبقاءهم لغير آبائهم ليس قسطاً ولا عدلاً، والقسط أفضل من العدل؟

علّه ككلٍّ مماشاة مع المتبنين: إن كان هذا قسطاً تعطفاً بهم دون مقابل، فدعوتهم لآبائهم أقسط عند الله، فإنهم بِضع من آبائهم دونكم، وامتداد لهم بمدِّهم إيلاداً دونكم، فليس منكم لهم إلا قولٌ بأفواهكم، ولهم من آبائهم فعل الإيلاد وهو حقيقة لا تنكر، فالأصل الفطري والولادي

= وهو عندها فأعجب النبي ﷺ ظرفه فاستوهبه منها فقالت: هو لك فإن أردت عتقه فالولاء لي فأبى عليها فوهبته له إن شاء أعتق وإن شاء أمسك قال فشب عند النبي ﷺ ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب إلى الشام فمر بأرض قومه فعرفه عمه فقام إليه فقال: من أنت يا غلام؟ قال: غلام من أهل مكة قال: من أنفسهم؟ قال لا قال: فحر أنت أم مملوك؟ قال: بل مملوك قال: لمن؟ قال: لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب فقال له: أعربي أنت أم عجمي؟ قال: بل عربي قال: ممن أهلك؟ قال: من كلب قال: من أي كلب؟ قال: من بني عبد ود قال: ويحك ابن من أنت؟ قال: ابن حارثة بن شراحيل قال: وأين أصبت؟ قال: في أخوالي قال: ومن أخوالك؟ قال: طي قال: ما اسم أمك؟ قال: سعدى فالتزمه وقال: ابن حارثة ودعا أباه وقال: يا حارثة هذا ابنك فأتاه حارثة فلما نظر إليه عرفه قال: كيف صنع مولاك إليك؟ قال: يؤثرني على أهله وولده ورزقت منه حباً فلا أصنع إلا ما شئت فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة فلقوا رسول الله ﷺ فقال له حارثة: يا محمد ﷺ! أنتم أهل حرم الله وجيرانه وعند بيته تفكون العاني وتطعمون الأسير ابني عبدك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه فإنك ابن سيد قومه فإنا سندفع لك في الفداء ما أحببت فقال له رسول الله ﷺ: ما أعطيكم خيراً من ذلك؟ قالوا: وما هو؟ قال: أخيره فإن اختاركم فخذوه وإن اختارني فكفوا عنه قالوا جزاك الله خيراً فقد أحسنت فدعاه رسول الله ﷺ فقال: يا زيد أتعرف هؤلاء؟ قال: نعم هذا أبي وعمي وأخي فقال رسول الله ﷺ فأنا ممن عرفته فإن اخترتهم فاذهب معهم وإن اخترتني فأنا من تعلم فقال زيد: ما أنا بمختار عليك أحداً أبداً أنت مني بمكان الوالد والعم قال له أبوه وعمه: يا زيد أتختار العبودية على الربوبية؟ قال: ما أنا بمفارق هذا الرجل فلما رأى رسول الله ﷺ حرصه عليه قال: أشهد أنه حرٌّ وأنه ابني يرثني وأرثه فطابت نفس أبيه وعمه لما رأوا من كرامته عليه فلم يزل زيد في الجاهلية يدعى زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] فدعي زيد بن حارثة.

يقتضيان أن تدعوهم لآبائهم في كل ما تتطلبه البنوة، والتخلف عنهما هو خلاف العدل والقسط.

أو علّه كبعض مصاديقه قسط، كما كان من رسول الله ﷺ مع زيدٍ ولكنما الأقسط عند الله أن يدعى هو أيضاً لأبيه كما فعله ﷺ قبل آية الدعوة، فقد جمع الأقسط إلى القسط فلم يخالفهما أو أحدهما قبل آية القسط، اللهم إلّا من سواه بين متعمد ومُخطئٍ وساحة الرسول منهما براء!...

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾....:

فإن فوضى العلاقات في أسرة الجاهلية في هرج الجنس ومرجه، والتبني الأعمى بحيث كان يُعمي عن الآباء الأصلاء، مما يخلِّف مجهولية الآباء، ولكنها أيضاً ليست بالتي تسمح بالتبني أو تقره، فإن هنالك الأخوة في الدين والولاية فيه أصلٌ جامع يحلِّق على كافة المعلومين فضلاً عن المجهولين، فهم إذاً إخوانكم في الدين في كل ما تقتضيه الأخوة الدينية، وكما في سائر المسلمين ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾...[1] وكما في خصوص اليتامى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ...﴾[2] وطبعاً هي الأخوة الدينية كما في الأدعياء فإنهم أعم من كونهم يتامى أو ذوي آباء مجهولين.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

هنا ينفى الجناح عن خلفيات التبني لحدّ الآن ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم﴾ خطأً في

(١) سورة التوبة، الآية: ١١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

أصله إن لم يكن إلّا قولاً بالأفواه دون أثر خارجي، وخطأ في تجهيل آبائهم حتى جهلوا، و﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ يعم عمد التبني بترتيب آثار البنوّة لهم ونفيها عن آبائهم، أو عمداً في تجهيل آبائهم حتى جهلوا خطآن لا جناح فيهما، وتعمدان مغفوران لمن تاب توبة نصوحاً. ثم وقصة الرضاعة ليست بالتي تشكل نسباً إلا تحريماً مّا وتحليلاً، والإسلام يهدف من وراء هذا السياج القويم على الأنساب أن يحافظ على نظامها التكويني دو تبعثر بتبنٍ وسواه، وحتى إذا كان نسباً كافراً، فإنه ليس ليسمح نسبة المؤمن إلى غير والديه مهما كانت هنالك أحكام وقائية لشرف الإيمان.

فليس لأحد أن يخفي نسبه بوصمة الكفر فيدعي نسباً آخر بسمة الإيمان، فليس الإيمان بنسب وسبب، فإنه شرف ذاتي لا يعدو حامله إلى سواه إلّا إذا حمله إلى سواه.

وإنه تشديد أكيد يتمشى مع عناية الإسلام بصيانة الأسرة كيفما كانت، والحفاظ على روابطها من كل شبهة وخلل، وحياطتها بكافة أسباب السلامة والسلوة والاستقامة، بعيدة عن الفوضويات في دعارات وسواها من ادعاءات جوفاء، في تغيير النسب وتحويره، مهما كان بمبرِّر الإيمان فإنه خلاف قضية الإيمان.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ۝٦﴾:

آية وحيدة منقطعة النظير، تختص ولاية عامة للنبي على المؤمنين، وأمومة أزواجه لهم، وأولوية أولي الأرحام بعضهم ببعض من المؤمنين والمهاجرين، تضم في هذا المثلث أحكاماً عدة جماعية سياسية واقتصادية أمّاهيه؟

ولاية النبي على المؤمنين؟

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ ضابطة مطلقة عامة ثابتة بين محور النبوة وشعاع الإيمان، فهو ﴿أَوۡلَىٰ﴾ قضية النبوة، وهم مولّى عليهم قضية الإيمان، وهو ﷺ لا ينفصل عن ولايته ولا تنفصل عنه حيث النبوة لزامها ولكن الإيمان قد ينفصل عمن يتنحى عن ولايته ﷺ وكما يروى عنه ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»!.

وليست هي مجرد ولاية الحب مهما كان أصلاً من قضيتها، بل هي مطلق الولاية في مطلق الأمور على مطلق الأنفس المؤمنة، عقيدة وحباً وقولاً وعملاً أماذا من متطلبات الولاية الأولوية المطلقة!

إن هذه النبوة القمة تقتضي أولوية قمة، كما الإيمان بدرجاته يقتضي تحمل تلك الأولوية حسب الإمكانيات.

أترى أن هذه الولاية المحمدية قد تُعمي مصالح الأمة جماعات وفرادى لمصلحة ذاتية شخصية؟ كلّا! فـ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ﴾ وليس «محمد أولى» فهذه الأولوية ليست إلا لتخدم مصالح الرسالة والمرسل إليهم جماعات وفرادى، دون مصلحة لشخص محمد ﷺ فإنما مصالح رسولية ورسالية ومصالح للمؤمنين، وكلها لصالح الإيمان فصالح المؤمنين، جماعات وفرادى، تصد عنهم أخطاءً عامدة وجاهلة وتصلح الأمة كما يرضاها الله حيث الولاية إسلامياً هي أن يلي كل قوي من المسلمين ضعيفهم، عقيدياً أو علمياً أو خلقياً أو عملياً، أما ذا من مختلف الوهبات والكسبيات جبراناً لنقصه، فقد يكون المسلم وليّاً من جهة ومولّى عليه من أخرى، كالأعلم بالنسبة للأتقى، فإنه وليه علمياً، ولكنه مولى عليه عملياً، وهلم جراً في سائر الأولياء والمولى عليهم حسب مختلف الولايات.

والسمة العامة فيها كلها صالح المولى عليه حيث لا يقدر على تحصيله كما يجب أو يحب، وهذه الموالاة هي في صيغة أخرى تعاونٌ على البر والتقوى، وضد الشر والطغوى، تعليماً أو أمراً ونهياً أو حملاً على فعل المعروف وترك المنكر.

فليس للولي أياً كان أن يتأمَّر على المولى عليه لصالحه الشخصي بسند أنه قوي، اللّهم إلّا لصالح المولى عليه افراداً وجماعات، وإلى السلطة الزمنية على ضوء الإسلام حيث الزعيم خادم الرعية، دون أن يبتغي من الزعامة مالاً أو منالاً إلّا إصلاح الرعية، وتوجيههم إلى الأصلح فالأصلح في مختلف الحقول الإسلامية المحلِّقة على كافة المصالح.

الولايات العشر في الإسلام:

هنالك ولايات خاصة وأخرى عامة على المؤمنين كلها تنحو منحى مصالحهم معنوية ومادية جماعية وفردية، كـ: ١ - الولاية على الأيتام، ٢ - والسفهاء، ٣ - والمجانين، ٤ - والزوجات، ٥ - والأولاد، ٦ - والمتخلفين[(١)]، ٧ - وعلى كل الأمة من الفقهاء، ٨ - وأئمة الدين، ٩ - والرسول، ١٠ - وولاية الله!.

كل هذه ولايات على من لا يحيط علماً أو طاقة على مصالحه، فالولاية المعصومة من بينها مطلقة وكما تدل عليه آية الولاية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[(٢)] وآية الطاعة: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[(٣)].

---

(١) دليله قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

والولايات الأخرى محدودة بحدود المصالح، وللمولى عليهم الاعتراض والاستيضاح إن اشتبه عليهم أمرها أو تأكّدوا من خلاف المصلحة فيها.

ثم تشترك هذه العشر في الولاية الشرعية على اختلاف درجاتها وضيقها وسعتها، وتخصّ ولاية المعصومين الشرعية بأنها مطلقة محكمة دونما استثناء لأنها تمثل ولاية النبي الممثلة لولاية الله وأما الولاية التشريعية والتكوينية فهما من اختصاصات الربوبية، فهو - فقط - المشرع لا سواه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾...[1] وهو المكون خلقاً وتدبيراً لا سواه ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾...[2].

ولاية النبي ﷺ هي الأولوية بأنفس المؤمنين، فتحتل الدرجة الثانية من العشر بعد الولاية الإلهية، فهو أولى بكل مؤمن من نفسه وأهله وماله وعرضه، وكلها لصالح النبوة والمولى عليهم على ضوء النبوة العادلة، ولاية عامة تشمل رسم مناهج الحياة الفردية والجماعية في كافة حقولها، فلا ولاية مع ولايته، حيث لا تساوي ولا تسامى، إذ تحلّق بعد ولاية الله على الولايات كلها، على سائر الأولياء والمولى عليهم كلهم.

قد تتحقق الولاية دون أولوية بأنفس المولّى عليهم منهم كما في سائر الولايات الخاصة والعامة، إلّا المحمديين من العترة المعصومين عليهم السلام[3] ولكنما الآية تثبت ولاية الأولوية له ﷺ بأنفس المؤمنين مما يقدّمه ﷺ -

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٣) الدر المنثور ٥ : ١٨٢ أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن بريدة قال: غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فنقصته فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير وقال: يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت بلى يا رسول الله ﷺ قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» أقول وإنها كلمة متواترة عنه ﷺ.

عليهم في النواميس الخمسة كلها: نفساً وعقلاً وديناً وعرضاً ومالاً لصالح النبوة والمولّى عليهم، فصالح النبوة هو هو صالحهم جميعاً.

فكما يجب على كل مؤمن الحفاظ على هذه النواميس حباً لها وإيماناً، كذلك عليهم - وبأحرى - الحفاظ عليها من النبي ﷺ تقديماً لجانبه على جوانبهم، وكما الله جعله أولى بهم وعلى حدّ قوله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة»[1] ومن هذه الولاية قوله ﷺ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأيما رجل مات وترك ديناً فإليّ ومن ترك مالاً فلورثته»[2] فليس له من أموال المؤمنين شيءٌ إلّا ما تلزمه المصلحة الجماهيرية الإسلامية كالضرائب المستقيمة وغير المستقيمة وهي كلها لصالح المسلمين.

ثم إذ يأمر الرسول ﷺ بشيءٍ فلا تخلُّف عنه نَظرة الإذن من غيره ولياً وسواه كما كان في غزوة تبوك[3] ومن خلفيات هذه الولايةِ الأولويةِ المطلقةِ أن لو رأى النبي ﷺ صالحاً في تطليق زوجتك طلقها دون استئمارك، أم صالحاً في حملك على عمل دون أجر أو بأجر، أم دفع مال بمقابل أو دون مقابل، أما ذا مما لك فيه الولاية نفساً وأهلاً ومالاً وحالاً، فهو أولى بك منك، فضلاً عما ليس لك فيه ولاية، فهو فيه أولى منك في بعدين اثنين ولكنه لم يعهد عنه أمثال هذه التصرفات خلافاً لمرضاة المؤمنين وإن كانت له بسناد ولايته المطلقة المخوَّلة.

---

(١) المصدر أخرج البخاري وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: . . . اقرؤوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ . . .﴾ [الأحزاب: ٦].

(٢) المصدر أخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه عن جابر عن النبي ﷺ: . . . ومثله ذيل الحديث السابق ولكن فيه: من ترك مالاً فلعصبة. . .

(٣) في المجمع وروي أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك وأمر الناس بالخروج قال قوم: نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت هذه الآية.

ثم الولاية الجماهيرية هي له أحرى من الشخصية، حيث النبوة تنحو منحى الجماهير قبل الأشخاص، وهي لصالح مجموعة الأمة قبل إفرادها، وصالح الجماعة في ولاية وسواها أهم من صالح الأفراد.

ومن أهم الأهداف في ضابطة الولاية هنا هي الإمرة[1] ألّا يخلد بخلد المؤمنين فرادى وجماعات التقديم أو التقدم بين يدي الرسول ﷺ في أي أمر من أمورهم حتى وإن شاورهم مصلحياً كما أمره الله، فالأمر أمره والرأي رأيه، لأن الإمرة الشاملة على المؤمنين هي إمرته.

فلو رأى المؤمنون بأجمعهم صلوحاً في أمر من حرب أو صلح أماذا؟ ورأى الرسول خلافهم فـ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ فلا لهم أو عليهم إلّا ما يراه دونهم.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٣٨ عن علل الشرايع بإسناده إلى عبد الرحمن القصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ...﴾ [الأحزاب: ٦] فيمن نزلت هذه الآية قال: نزلت في الإمرة إن هذه الآية جرت في الحسين بن علي عليه السلام وفي ولد الحسين فنحن أولى بالأمر وبرسول الله ﷺ من المؤمنين والمهاجرين، قلت: لولد جعفر فيها نصيب؟ فقال: لا - فعددت عليه بطون عبد المطلب كل ذلك يقول: لا - ونسيت ولد الحسن فدخلت عليه بعد ذلك فقلت: هل لولد الحسن عليه السلام فيها نصيب؟ فقال: لا يا أبا عبد الرحمن ما لمحمدي فيها نصيب غيرنا.

ورواه مثله عنه في الكافي وروايات أهل البيت في ذلك بعديد أسماء أولي الأمر متواترة.

ومن ذلك ما رواه القمي بإسناد متصل عن سليم بن قيس قال سمعت عبد الله بن جعفر الطيار يقول: كنا عند معاوية أنا والحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعمر بن سلمة وأسامة بن زيد فجرى بيني وبين معاوية كلام فقلت لمعاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ثم أخي علي بن أبي طالب أولى بالمؤمنين من أنفسهم فإذا استشهد فالحسن بن علي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ثم ابني الحسين من بعده أولى بالمؤمنين من أنفسهم وستدركه يا حسين ثم تكملة اثني عشر إماماً تسعة من ولد الحسين قال عبد الله بن جعفر واستشهدت الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعمر بن أم سلمة وأسامة بن زيد فشهدوا لي عند معاوية قال سليم وقد سمعت ذلك من سلمان وأبي ذر والمقداد وذكروا لي أنهم سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ.

ولقد جرت هذه الإمرة النبوية في الأئمة الاثني عشر بدليل الكتاب والسنة وعلى حد قول باقر العلوم عليه السلام: «ما لمحمدي نصيب غيرنا» فهم لا سواهم ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ الذين افترض الله طاعتهم بإمرتهم بعده وبعد رسوله: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾...[1].

ولقد احتل حديث خلافة الإمرة النبوة في علي عليه السلام يوم الغدير، قمة التواتر بين المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم[2] وكذلك حديث التهنئة من الشيخين في قولهما لعلي عليه السلام: «بخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة[3] تلو ما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ألست أولى بكم

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٢) أخرج العلامة الأميني في الغدير نزول آية التبليغ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الغدير في علي بن أبي طالب عليه السلام عن ثلاثين مصدراً من إخواننا وأن رواة الغدير من الصحابة (١٢٠) صحابياً ومن التابعين (٨٤) وأن طبقات الرواة في حديث الغدير من أئمة الحديث وحفاظه والأساتذة (٢٦٠) نسمة والمؤلفون فيه (٢٦) (راجع علي والحاكمون ص ٣٤).

(٣) قد روى حديث التهنئة فيمن رواه الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة عن البراء بن عازب وأحمد بن حنبل في مسنده ٤: ٢٨١ عنه والحافظ أبو العباس الشيباني عنه والحافظ أبو يعلى الموصلي عنه والحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره ٣: ٤٢٨ عن ابن عباس وابن عازب والحافظ أحمد بن عقدة الكوفي في كتاب الولاية بالإسناد عن سعد بن أبي وقاص والحافظ أبو عبد الله المرزباني البغدادي عن أبي سعيد الخدري والحافظ علي بن عمر الدارقطني البغدادي والحافظ أبو عبد الله بن بطة الحنبلي عن البراء بن عازب والقاضي أبو بكر الباقلاني البغدادي في التمهيد في أصول الدين ص ١٧١ والحافظ أبو سعيد الخركوشي النيسابوري في شرف المصطفى عنه والحافظ أحمد بن مردويه الأصبهاني في تفسيره عن أبي سعيد الخدري وأبو إسحاق الثعلبي في تفسيره والحافظ ابن السمان الرازي عن ابن عازب والحافظ أبو بكر البيهقي عنه والحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي بسندين صحيحين عن أبي هريرة ص ٢٣٢ - ٢٣٣ والفقيه أبو الحسن بن المغازلي في المناقب وأبو محمد أحمد العاصمي في زين الفتى والحافظ أبو سعد السمعاني في فضائل الصحابة عن ابن عازب وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي في سر العالمين ص ٩ وأبو الفتح الأشعري الشهرستاني في الملل والنحل وأخطب الخطباء الخوارزمي الحنفي في مناقبه ص ٩٤ وأبو الفرج بن الجوزي الحنبلي عن ابن عازب وفخر الدين الرازي الشافعي في تفسيره الكبير ٣: ٦٣٦ وأبو السعادات مجد الدين بن الأثير الشيباني في النهاية ٤: ٢٤٦ وأبو الفتح محمد بن علي =

من أنفسكم؟ قالوا: بلى قال: فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه» مما يبرهن جلياً أن مكانته من المؤمنين هي نفس مكانة الرسول إلا في الوحي والنبوة.

فإمرة الأولوية والولاية المطلقة تختص بمحمد ﷺ والمحمديين من عترته المعصومين، ثم لا إمرة إلّا شورى بين المؤمنين، سواء أكانت إمرة الفتوى أو الزعامة السياسية، فإنها مهما كانت عليمة تقية عادلة فليست معصومة عن أخطاء، ولأنها لا بّد منها في استمرارية الإمرة الإسلامية، فلا بد من كونها في نطاق الشورى بين الرعيل الأعلى حتى تقل أخطاؤها وكما يروى: الإمام علي عن الرسول ﷺ: «اجمعوا العابد من أمتي فاجعلوا أمركم شورى»[١].

والشورى في أمور المؤمنين هي من سبل الإيمان فتركها قطعٌ لسبيل الإيمان حسب درجات الأمر الذي يتطلب الشورى.

فولاية الفقهاء محدودة لمكان أخطائهم قاصرة أو مقصرة، فإن ثبت للمولى عليهم وهم غير الفقهاء أنهم أخطأوا في شيء حرم اتباعهم فيه إلّا أن يقنعوهم، وإن لم يثبت فاتباعهم مفروض.

ثم لا ولاية لفقيه على فقيه مهما اختلفت درجاتهم، ففي الأحكام الشرعية كل فقيه ولي نفسه ومن ليس بفقيه كما وفي المسائل السياسية الزمنية فليس ولي أمر الأمة زمن الغيبة إلّا الشورى من الرعيل الأعلى، بل وفي الأحكام الشرعية المرجع هو الشورى دون الأشخاص.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾... تنزيل لأزواجه منزلة أمهاتهم، ولولا آية حجابهن عنهم ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ...﴾[٢]. بل

= النظري في الخصائص العلوية عن أبي هريرة وعز الدين أبو الحسن بن الأثير الشيباني عن ابن عازب وثلاثون آخرون أمّا ما زاد ذكرنا أسماءهم في علي والحاكمون ص ٨١ - ٨٢.

(١) راجع آية الشورى في سورتها ج ٢٤ - ٢٥ من: الفرقان.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

وزيادة على سائر المؤمنات كما هنا وفي خضوع القول ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[1] ولولا إمكانية تسريحهن ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾[2] حيث تنفصل عنهن الأمومة بانفصال الزوجية، لولاهما لكان التنزيل يعم من أمومتهن كونهن محارم لهم فلا حجاب، فإنما الأمومة هنا في وجوب حرمتهن كما الأمهات، وحرمة نكاحهن كما والنص يخصصها بالذكر ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾[3] فالأمومة النسَبية لها وجوب حرمتها وحرمة زواجها ومحرميتها وميراثها، وللرضاعية كل ذلك إلّا ميراثها، وللرسالية ليست إلّا الأوليانِ وهما الأولان فيما يسبق إلى الأذهان من اختصاصات الأمومات، فأما المحرمية فتنفيها آية الحجاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ ثم الميراث تنفيه الآية في ذيلها: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ولولاهما أيضاً في نفيهما لم يشملهما التنزيل، حيث التنزيل لا يوازي الحقيقة، ولأن المقام مقام فائق الاحترام فلا يناسبه الميراث والتكشف. فلأن التنزيل خص في مورد الحجاب ولم يذكر له موردٌ إلّا حرمة نكاحهن فقد انفصم عراه وانحل فتله الشامل لكافة اختصاصات الأمومة واختص بالمنصوص منها وحرمتهن كما الأمهات، فهذه أمومة شعورية وشعارية وراء حرمة زواجهن!.

وهل إن ذلك التنزيل مستمرٌ مهما تخلفن عن ساحة الرسالة، بل وعارضنها وأصبحن محادات لها؟ لأن هذه الأمومة ذات علاقتين، علاقة بالرسول إذ يتأذى أن تُؤذى أزواجه ويُنكحن، وعلاقة بهن إذ هن من حرمات الرسول ﷺ فانطلاقهن عن ساحة الرسالة بفاحشة مبينة تتهدم تلك الساحة

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

المباركة فلا يتأذى إذاً من أن ينكحن بعده ولا ألّا يحترمن كأمهات، إذاً ففي انطلاقهن هذا سماح لطلاقهن.

وقد يروى عن القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف: «إن الله تقدس اسمه عظم شأن نساء النبي ﷺ فخصهن بشرف الأمهات فقال رسول الله ﷺ: يا أبا الحسن إن هذا الشرف باق لهن ما منَّ الله على الطاعة فأيتهن عصت الله بعدي بالخروج عليك فأطلق لها في الأزواج وأسقطها من تشرف الأمهات ومن شرف أمومة المؤمنين»[1]!

وكان حقاً له أن يُسقط حقه بطلاقهن عن هذا الشرف فيما يضيع حقه في أولويته على المؤمنين بالخروج على أمير المؤمنين ومثيله في أولويته تلك في سُدَّته العليا وإمرته المنصوصة عليهم.

ترى إذا كانت أزواجه أمهاتهم أليس - إذاً - هو أباهم في أصل الحرمة الوالدية فلماذا ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ﴾. . . وليس «أبوهم»؟[2].

إن أولويته المطلقة أولى من الأبوية، فإنه أولى من أبويهم ومن كل ولي لديهم! فهو الأب الأوّل للمؤمنين وولده الأمة درجات أعلاها عليٌّ عليه السلام، فهو الأب الثاني للأُمة وكما سائر الأئمة عليهم السلام ومن ثم سائر الآباء، وقد صح عنه ﷺ «أنا وعلي أبوا هذه الأمة»![3] ولأنه أولى بالمؤمنين من

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٣٨ ح ١٧ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل وفيه: قلت: فأخبرني يا مولاي عن معنى الطلاق الذي فرض رسول الله ﷺ حكمه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال عليه السلام: إن الله تقدس اسمه. . .

(٢) في الدر المنثور ٥ : ١٨٣ أخرج عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أنهم قرؤوا الآية بإضافة «وهو أب لهم» أقول: وهو معروض عرض الحائط لكونه خلاف المتواتر الموجود من القرآن وأن ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٦] تعني فوق الأبوة فلا حاجة إلى ذكرها وليس مثله إلا مثل القائل «محمد رسول الله وهو مؤمن»!

(٣) نور الثقلين ٤ : ٢٣٨ ح ١٨ في كتاب علل الشرايع بإسناده إلى علي بن الحسن بن فضال عن=

أنفسهم كما النبي ﷺ وعلى حد قوله ﷺ: «فوالله إني لأولى الناس بالناس»[١].

﴿... وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾:

هنا تلميحة أن قد مضى ردح من الزمن يتوارث فيه المسلمون بالإيمان والهجرة، ذلك ولمّا تستقر الدولة الإسلامية، فقد آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكان هذا الإخاء صلة عريقة فريدة في تأريخ التكافل العقائدي لحدّ قام مقام قرابة الدم، وارتفع فيه المدّ الشعوري إلى ذروة عالية، وقد أخذ مأخذ الجدِّ، قائماً مقام قرابة الدم أو زاد، ولقد كان ذلك الإخاء العميق ضرورياً باديء ذي بدء حفاظاً على هذه النشأة الوليدة الإيمانية، وتماسكه بقوة صارمة في تلك الظروف الاستثنائية، وحتى تقوم الدولة على سوقها فتزول الضرورة الوقتية من ذلك الإخاء القائم مقام الدم، فيبقى وراء التوارث كأشد ما كان على طول الخط.

فلما استتب أمر الدولة واستقرت في مختلف حقولها الجماعية

= أبيه قال: سألت أبا الحسن عليه السلام فقلت له: لم كني النبي ﷺ بأبي القاسم؟ فقال: لأنه كان له ابن يقال له قاسم فكني به قال قلت: يا بن رسول الله ﷺ فهل تراني أهلاً للزيادة؟ فقال: نعم أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: أنا وعلي أبوا هذه الأمة؟ قلت: بلى قال: أما علمت أن علياً عليه السلام قاسم الجنة والنار؟ قلت: بلى - قال: فقيل له أبو القاسم لا أبو القسيم الجنة والنار فقلت: وما معنى ذلك؟ فقال: إن شفقة النبي ﷺ على أمته كشفقة الآباء على الأولاد وأفضل أمته علي عليه السلام ومن بعده شفقة علي عليهم كشفقته ﷺ لأنه وصيه وخليفته والإمام بعده فلذلك قال عليه السلام: أنا وعلي أبوا هذه الأمة وصعد النبي ﷺ المنبر فقال: من ترك ديناً أو ضياعاً فعلي وإليّ ومن ترك مالاً فلورثته فصار بذلك أولى من آبائهم وأمهاتهم وصار أولى بهم منهم بأنفسهم وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام بعده جرى ذلك له مثل ما جرى لرسول الله ﷺ.

(١) نهج البلاغة من كلام له عليه السلام.

والسياسية والاقتصادية والعقائدية عاد النظام الحقوقي الإسلامي في التوارث بين أولي الأرحام إلى حالته التي ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

أولوية النبي ﷺ بالمؤمنين من أنفسهم وفي المحمديين من أولي أمره، دائبة ثابتة بشاكلتها المعصومة في فترة الرسالة والإمامة، ومن ثم في الشورى من الرعيل الأعلى في العابد من الأمة بشاكله غير معصومة.

وأمومة أزواجه باقية ما لم يتخلفن عما عليهن، فبانطلاقهن عنه سماح الطلاق لصاحب الإمرة بعده وكما في طلاقه ﷺ نفسه.

والأخوة المورثة باقية ردحاً حتى تستتب أمر الدولة ويقر قرارها.

ثم لهذه الآية واجهتان: خاصة قد تعني الأولوية في إمرة الرسول ﷺ بعده، فأولو أرحامه بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من سائر المؤمنين من الأنصار والمهاجرين.

فهنالك أولويتان اثنتان، أولاهما أولوية ذوي أرحامه ﷺ من سائر المهاجرين والأنصار، والأخرى الأولوية بين أرحامه أنفسهم، فعليٌّ أولى من آل عباس، والحسنان أولى من سائر ولد الإمام، وولد الحسين عليه السلام أولى من ولد الحسن، وزين العابدين أولى من سائر ولد الحسين، ومن ثم سائر الأئمة عليهم السلام حتى القائم المهدي (عجل الله تعالى فرجه) أولوية بالانتصاب، وكما الرسول ﷺ منتصب في أولويته بالمؤمنين من أنفسهم، كل ذلك بوحي من الله ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ وعله أمّ الكتاب أو اللوح المحفوظ أمّا ذا من كتاب الله[1].

---

(١) لقد مضى شطر من الأحاديث في آية ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ [الأحزاب: ٦] وإليكم شطراً آخر، ففي تفسير البرهان ٣: ٢٩١ ح ٢ عن الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تعود الإمامة في أخوين بعد الحسن والحسين عليهما السلام أبداً إنما جرت من علي بن الحسين عليه السلام كما قال الله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فلا تكون بعد علي بن الحسين إلا في الأعقاب وأعقاب الأعقاب. =

ومن ثم تنتقل الأولوية بالرحم عن عنوانها المشير بعد الإمرة المعصومة، إلى الأولوية بالشورى، وأولوية الشورى في إمرة السياسة والفتوى، فـ ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ عنوان مشير في الإمرة المعصومة المنتصبة حيث الرحم - فقط - ليس ليختص بنفسه الإمرة إلّا للأصلحية المنضمَّة إليه وهي الأصيلة، ثم هو في الميراث عنوان للحكم بالأولوية فيه حيث الرحم

= وفيه ح ١٣ - ابن بابويه بإسناده عن عبد الأعلى بن أعين قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله خص علياً بوصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما يصيبه له فأقر الحسن والحسين عليهما السلام له بذلك ثم وصية للحسن وتسليم الحسين للحسن عليه السلام ذلك حتى أفضى الأمر للحسين عليه السلام لا ينازعه فيه أحد له من السابقة مثل ما له واستحقها علي بن الحسين يقول الله عز وجل: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦] فلا تكونن بعد علي بن الحسين عليه السلام إلا في الأعقاب وأعقاب.

وفيه ح ١٤ عنه بإسناده عن ثابت الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام عن أبيه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: فينا نزلت هذه الآية ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦] وفينا نزلت هذه الآية ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] والإمامة في عقب الحسين عليه السلام إلى يوم القيامة...».

وفيه ح ١٥ عنه بإسناده عن إسماعيل بن عبد الله قال قال الحسين بن علي عليه السلام: لما أنزل الله تبارك وتعالى لي هذه الآية ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ...﴾ سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تأويلها فقال: والله ما يعني بها غيركم وأنتم أولو الأرحام فإذا مت فأبوك علي أولى بي وبمكاني فإذا مضى أبوك فأخوك الحسن عليه السلام فإذا مضى الحسن فأنت أولى به فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! ومن بعدي؟ قال: ابنك علي أولى بك من بعدك فإذا مضى فابنه محمد أولى به فإذا مضى محمد فابنه جعفر أولى به من بعده وبمكانه فإذا مضى جعفر فابنه موسى أولى به من بعده فإذا مضى موسى فابنه علي أولى به من بعده فإذا مضى علي فابنه محمد أولى به من بعده فإذا مضى محمد فابنه علي أولى به من بعده فإذا مضى علي فابنه الحسن أولى به من بعده فإذا مضى الحسن وقعت الغيبة في التاسع من ولدك فهؤلاء الأئمة التسعة من صلبك أعطاهم الله علمي وفهمي طينتهم من طينتي ما لقوم يؤذوني فيهم لا أنالهم الله شفاعتي أقول: وتأويل آية أولي الأرحام بذلك بالغ حدَّ التواتر وفيما نقلناه الكفاية كنموذج.

وفي ملحقات الإحقاق ٣: ٤١٨ ذكر نزولها في علي وأئمة أهل البيت جماعة من أئمة الحديث منهم الترمذي في مناقب مرتضوي ٦٢ نقل اتفاق المفسرين على نزولها في علي لأنه الذي كان مؤمناً ومهاجراً وابن عمه ومنهم ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة ٩٥.

وقربه هو موضوع الحكم لكونه الرحم، وهو في إمرة الشورى عوان بين الإشارة والموضوعية، إشارة إلى الأقربين إلى أهل بيت الرسالة علماً وتقوى أرحاماً وغير أرحام، وهي بنفسها الموضوعية حيث الأقربية إليهم في روحية الرحم هي موضوع الأصلحية في الإمرة.

فـ ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ﴾ تعني أولي أرحام النبي ﷺ (نسبيا وروحياً)، ثم أولي أرحامه روحياً، ومن ثم أولي أرحام المؤمنين نسبياً، تجمع هذه الثلاث وتعنيها، قضية المناسبة في أدب اللفظ وحدب المعنى!.

ترى إذ تعني الآية فيما تعنيه الأولوية بالإمرة بين أولي أرحام الرسول ﷺ فلماذا ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ لا «من بعض»؟ - لأنها تعني أولويات عدة هذه منها فلذوي أرحام الرسول ﷺ أولوية الإمرة من غيرهم، ومن بينهم أنفسهم، وكذلك الأولوية في الميراث بين أولي الأرحام ككلٍّ من المؤمنين والمهاجرين نسخاً للتوارث بالأخوة، ومن بينهم أنفسهم الأقرب فالأقرب.

فـ ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي...﴾ هنا تعني أولوية في الإمرة عكس ما كان ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أنهم أولى بالنبي في إمرته بعده من غيرهم، وبعضهم أولى ببعض في ميراث الإمرة من غيرهم، فعلي أولى بالنبي ﷺ من غيره كما الحسنان أولى بعلي من غيرهما وهلّم جراً إلى قائمهم، أولوية ذات بعدين، ممن سوى أولي الأرحام، وممن سواهم بينهم، الأقرب فالأقرب فيما يحملون من معنى الرسالة وحقيقتها.

فللأولوية واجهتان: خاصة تخص أولي أرحام النبي ﷺ بينهم أنفسهم ومَن سواهم، وعامة تعم أولي الأرحام كلهم في أولوية الميراث تعني تفاضلاً بينهم وبين من سواهم من المؤمنين والمهاجرين نسخاً للتوارث بالأخوة، وتفاضلاً بينهم أنفسهم بالقريب والأقرب، فإنهم طبقات لا ترث كل تالية مع وجود السابقة، ضابطة عامة صارمة في كل توارث.

إذاً فالميراث فرضاً ورداً يختص بالأقرب رحماً، فكما لا نصيب لتاليه من فرضه كذلك مما زاد، فإن ترك بنتاً من الطبقة الأولى لا سواها، أخذت نصفه بالفرض: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾[1] ورد الباقي إليها لآية ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ﴾ فإنها مطلقة في الميراث، وليس لسائر الطبقات معها ولا للعصبة حقٌّ من زائد الفرض، حيث البنت أولى بأبيه ممن بعدها لأنها أقرب، وإذا كان ذو فرض ليس معه أي وارث من طبقاته فله المال كله فرضاً ورداً[2].

﴿... مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾:

﴿إِلَّآ...﴾ استثناء فقط عن أولوية الميراث و﴿أَوْلِيَآئِكُم﴾ تعم ولاية القرابة والمحبة والرقية، و﴿مَّعْرُوفًا﴾ يخص الثلث وما دونه بدليل آيات الوصية بالثلث، ومما يدل على مثلث الولاية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[3] [4].

و﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ قد يعني هذه الثلاث كلها، مما يدل على أن الوراثة بالإخاء كانت مؤقتة في ردح من بداية الدولة الإسلامية مصلحة.

وهل خصت فاطمة الصديقة عن آية ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ﴾ فكان سائر المؤمنين أولى منها بفدك وغير فدكٍ أم لم تكن هي من أولي أرحام الرسول ﷺ أم - إنها ولا سمح الله - كانت كافرة لا ترث أبيها؟ سلوا

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

(٢) في الكافي بإسناده عن حنان قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أي شيء للموالي؟ فقال: ليس لهم من الميراث إلا ما قال الله عز وجل: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦].

(٣) سورة النساء، الآية: ٨.

(٤) في أحاديث متظافرة أن علياً عليه السلام أعطى الميراث كله لخالة دون المولى أو بيت المال إذا كانت وحدها ليس معها وارث غيرها.

الخليفة أبا بكر وزميله عمر عن هذه المسألة تسمعون الحديث المختلق «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» ثم سلوها تجيبكم بآيات الإرث، رداً لحديث الخليفة إلى كتاب الله وضرباً عليه عرض الحائط لمخالفة الكتاب في خطبتها

وقد نقلها أئمة الحديث بما لا نكير عليه[1]!.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾:

ميثاق واحد مطردٌ يشمل كافة ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فإنه جمع محلى باللام يفيد استغراق مدخوله، و﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾ يوحي باختصاصه بهم لا يعدوهم إلى سواهم من نبيٍّ أو مرسلٍ غير نبيٍّ حيث ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هم أولو النبوة والرفعة بين المرسلين فضلاً عمن دونهم من نبيٍ لم يرسل فضلاً عن أن ينبو في رسالته!

فلو كان الميثاق لعامة المرسلين لكان «من المرسلين» أم ولعامة من يوحى إليهم وإن لم يرسلوا لكان «النبيئين» أم لعامة الصديقين أو الصادقين لكانوا هم أم أولاء ولكنه ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

هنا ميثاق منهم يعمهم، لأمرٍ مّا يهمهم كلّهم في هامة النبوة، وفي أخرى ميثاق آخر منهم كلهم لإيمانهم ونصرتهم لآخرهم مبعثاً وأوّلهم ميثاقاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ

---

(١) ومنهم أحمد بن أبي طاهر البغدادي في بلاغات النساء ١٤ وابن أبي الحديد في شرح النهج ٤: ٧٨ و٩٢ وعمر رضا كحالة في أعلام النساء ٣: ١٢٠٨ وأبو بكر الجوهري في كتابه على ما في تظلم الزهراء ٣٨.

ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[1] هنا إصر بإقرار وشهادة لميثاق الإيمان والنصرة بهذا الرسول ﷺ وهنالك ميثاق غليظ، فأين ميثاق من ميثاق، كما البون بينهم وبين خاتم النبيين!

وفيما هنالك أيضاً نراه يتصدّر في ميثاقهم: «ومنك» وهو آخرهم، مما يوحي بأوليته ميثاقاً ونبوة ورفعة ومن ثم «من نوح» ومَن بعده حسب الترتيب الرسالي لا الرسولي.

وهنا ترتيب ثلاثي بعموم النص لـ «النبيين» واختصاص صاحب الرسالة الأخيرة بينهم «ومنك» ثم اختصاص ثان بين من دارت عليهم الرحى، يهدف إلى بيان محتده الأوّل في نبوته وميثاقه ومنازله الرسالية والرسولية بينهم، وكما يبين أن الخمس المذكورين هم أفضل النبيين ككلّ.

ففيم يسأل: «متى أخذ ميثاقك»؟[2] «متى استنبئت»[3]؟ «متى كنت نبياً»[4]؟ «متى وجبت لك النبوة»[5]؟ . . . «متى جعلت نبياً»؟[6]؟ يجيب: «وآدم بين الروح والجسد» «وآدم منجدل في الطين» «وآدم بين الروح والطين» وكان إذا قرأ الآية قال: بدى بي في الخير وكنت آخرهم في البعث[7] «كنت

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٨٤ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله ﷺ: !.

(٣) المصدر أخرج ابن سعد قال قيل: يا رسول الله ﷺ!: . .

(٤) المصدر أخرج البزار والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال قيل: يا رسول الله ﷺ: . وأخرجه مثله أحمد والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن مسيرة الفخر قال قلت: يا رسول الله ﷺ!: : . وأخرج مثله ابن سعد عن مطرف بن عبد الله بن الشخير أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: . .

(٥) المصدر أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي عن أبي هريرة قال قيل للنبي ﷺ . . قال بين خلق آدم ونفخ الروح فيه.

(٦) المصدر أخرج أبو نعيم عن الصنابحي قال قال عمر: . .

(٧) المصدر أخرج ابن أبي شيبة عن قتادة قال كان النبي ﷺ إذا قرأ. . .

أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث فبدىء بي قبلهم»[١] وعلى الجملة «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[٢] فهل يعني من نبوته «وآدم بين الروح والجسد» نبوته في علم الله؟ وقد كان يعلمها قبل أن يخلق الخلق! وكان يعلم نبوة سائر النبيين كذلك، وذلك مخصوص به.

أو يعني كونه مخلوقاً قبل خلق آدم أبيه؟ ولم يخلق إلّا من أبيه!

أم يعني نبوته في الروح قبل أن يخلق جسده من آدم، فكونه قبله - إذاً - ليس كونه ككلٍّ فإنما هو نبوته؟ والقرآن ينص على أن واقع نبوته كان بعد ردحٍ من خلقه في جسده!

أم يعني منها كيان نبوته حينذاك لا كونها كما كان يوم مبعثه، وكما تدل عليه آية الميثاق له ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ . . . لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾[٣] ولا نبيَّ كمثله يؤخذ على مَن قبله ميثاق نصرته والإيمان به وهو لم يبعث بعد؟ وهذا صحيحٌ في نفسه ولكنما الميثاق المأخوذ عليه بينهم وقبلهم هنا يتطلب له كوناً يجنب ذلك الكيان، فهم كلهم مشتركون في كونٍ مّا، أخذ عليهم فيه الميثاق العام، وهو قبلهم في ذلك الكون إضافة إلى ذلك الكيان.

فقد كان قبل أن يخلق ويبعث نبيّاً له كيان الإيمان به والنصرة له من النبيين أجمع، كما له كونٌ في الروح قبل خلقه ككل وقبل بلوغه ذروة النبوة، وقد يصلح هذا المعنى لقوله ﷺ: أخذ علي الميثاق واستنبئت وآدم بين الروح والجسد[٤].

---

(١) المصدر أخرج الحسن بن سفيان وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والديلمي وابن عساكر من طريق قتادة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في الآية: . . .

(٢) كما استفاض من طرق الإمامية.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٤) تفسير البرهان ٣: ٢٩٤ ح ١ علي بن إبراهيم قال حدثني أبي عن النضر بن سويد عن ابن سنان قال قال أبو عبد الله عليه السلام: أوّل من سبق إلى الميثاق رسول الله ﷺ وذلك أنه كان أقرب =

عرفنا الميثاق له منهم في نصرة له وإيمان به هما لزام نبوتهم، وإيتاء الكتاب والحكمة لهم، فما هو الميثاق الذي يعمه معهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾؟.

قد يعنيهما «منهم» دون «منكم» وقد كان يتطلبه «ومنك» خطاب الحاضر، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ لك كما في آية آل عمران، وأخذنا منهم وأنت فيهم كما هنا، فغلظ الميثاق علّه لغلظ الموثوق له، فميثاقهم ككل ﴿مِّيثَاقَهُمْ﴾ و﴿مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ لك ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ امّا ذا؟

قد نتعرف إلى ميثاقهم كلهم من ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ ومن سؤالهم أنفسهم ألا يتحرجوا في الإنذار كما أمروا: ﴿كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . . . فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾[1] ﴿مَّا كَانَ عَلَى

= الخلق إلى الله وما كان بالمكان الذي قال له جبرائيل لما أسري به إلى السماء تقدم يا محمد لقد وطئت موطئاً لم يطأه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولولا أن روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه فكان من الله عزّ وجلّ كما قال الله كـ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] أي بل أدنى فلما خرج الأمر وقع من الله إلى أوليائه عليهم السلام، فقال الصادق عليه السلام: كان الميثاق مأخوذاً عليهم لله بالربوبية ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة ولأمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام بالإمامة فقال: ألست بربكم ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيكم وعلي عليه السلام إمامكم وأئمة الهادين عليهم السلام أئمتكم؟ قالوا: بلى فقال الله: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة أي لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين فأوّل ما أخذ الله الميثاق على الأنبياء له بالربوبية وهو قوله: وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم فذكر جملة الأنبياء ثم أبرز عزّ وجلّ أفضلهم بالأسامي فقال: ومنك يا محمد فقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه أفضلهم ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم فهؤلاء الخمسة أفضل الأنبياء ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضلهم ثم أخذ بعد ذلك الميثاق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الإيمان به وعلى أن ينصروا أمير المؤمنين عليه السلام فقال: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لتؤمنن به ولتنصرنه يعني أمير المؤمنين عليه السلام تخبروا أممكم بخبره وخبر وليه من الأئمة عليهم السلام.

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٢-٧.

ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾[١].

وأوّل الإنذار الجماعي هو عن الإشراك بالله ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾[٢] وألّا يسألوا أجراً على بلاغهم ويستقيموا إليه.

كذلك والسنة الجماهيرية الرسالية ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[٣] ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[٤].

ثم و﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ لها واجهتان كما للميثاق، فـ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ المسؤولين عن ميثاقهم له ﷺ هم النبيون، إذ يسألون عن صدقهم في إقرارهم وأخذهم الإصر في ميثاقهم ليؤمنن به ولينصرنه ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بهذه الرسالة الأخيرة ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

وفي واجهة عامة يُسأل الصادقون - النبيون - عن صدقهم في ميثاقهم، والصادقون سواهم كذلك، والمسؤول والمسؤول عنه شاهدا صدق على صدقهم عليهم السلام فيما كان عليهم.

وكما يسأل الصادقون الآخرون عن صدقهم في تصديقهم لهم (صلوات الله عليهم) وتطبيقهم شرعتهم ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ تصديقاً أو تطبيقاً ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

ثم وفي وجهة عامة ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ من نبيين وسواهم ﴿عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ فيما حُمّلوا، هل عَملوا بما تحمّلوا من تبليغ ومن تطبيق، وقد تعنيها الآية كلها، فالكل مسؤولون عما أرسلوا وعما حمّلوا وتحملوا عما اعتقدوا و.. ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾...[٥].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٥) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.

ذلك ميثاق غليظ على النبيين أجمعين ليسألهم ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ عن صدقهم(١) وليسأل الصادقين المرسل إليهم عن صدقهم أولاء وعن صدقهم أنفسهم في تصديقهم، مما قد يلمح بأخذ الميثاق من المرسل إليهم مع المرسلين، وعلّه من فِطَرهم أما ذا مما هو حجة عليهم، إذ لم يكونوا قبل كونهم في كون أو كيان به يعقلون(٢) وقد يعنيه الرسول ﷺ فيما يرويه «خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء فأخذ أهل اليمين بيمينه وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين فأما أصحاب اليمين فاستجابوا إليه... قال قائل فما العمل؟ فقال ﷺ: يعمل كل قوم لمنزلتهم»(٣). فأهل اليمين هو من استجاب لفطرته خلاف أهل الشمال، دون أن يسبقهم عالم قبل خلقهم إذ لا يذكره أحدٌ فكيف يكون حجة عليه اللهم إلّا أحكام الفطرة التي فُطِر الناس عليها!

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٨٣ - أخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن أبي مريم الغساني أن أعرابياً قال: يا رسول الله ﷺ ما أوّل نبوتك؟ قال: أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم ثم تلا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ...﴾ [الأحزاب: ٧] ودعوة أبي ابراهيم قال: وابعث فيهم رسولاً منهم وبشارة المسيح ابن مريم ورأت أم رسول الله ﷺ في منامها أنه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام.

(٢) المصدر أخرج أبو نعيم والديلمي عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: ليس من عالم إلا وقد أخذ الله ميثاقه يوم أخذ ميثاق النبيين يدفع عنه مساوي عمله لمحاسن عمله إلا أنه لا يوحى إليه.

(٣) المصدر أخرج الطيالسي والطبراني وابن مردويه عن أبي العالية قال قال رسول الله ﷺ... فاستجابوا إليه فقالوا: لبيك ربنا وسعديك قال: ألست بربكم؟ قالوا بلى فخلط بعضهم ببعض فقال قائل منهم: يا رب لِمَ خلطت بيننا فإن لهم أعمالاً من دون ذلك هم لها عاملون؟ قال: أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ثم ردهم في صلب آدم ﷺ فأهل الجنة أهلها وأهل النار أهلها فقال قائل: فما العمل؟ فقال رسول الله ﷺ:... فقال ابن الخطاب: إذن نجتهد يا رسول الله ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا
عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ
جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ
ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا
وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا
مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا
هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ
سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ
عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل
لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا
قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ
بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧﴾ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ
ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾
أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي
يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً
عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٗا ﴿١٩﴾ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ

أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

غزوة الأحزاب – الخندق؟!

لقد جند الكفر أحزابه وتجمع خيله ورجله في خندق واحد ضد الإيمان كله حول المدينة المنورة، وهنا مقطع من سورة الأحزاب في تسع عشرة آية، يتحدث عن غزوة الأحزاب كحدث ضخم من الأحداث التي ابتلي بها المسلمون في حياة الرسول ﷺ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ يتحدث هنا عن موقف المؤمنين ووقفة المنافقين بينهم وبين الأحزاب مزعزعين، وموقف النعمة الخاصة الربانية التي خصتهم في تلكم الزلزال والزعزعة، مما يتوجب عليه أن يدخروه زاداً لهم في عراقيل السبيل إلى

تحكيم الدولة الإسلامية على مرِّ الزمن حتى تقوم الدولة الإسلامية العالمية زمن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

غزوة الأحزاب - في السنة الرابعة أو الخامسة من الهجرة - كانت امتحاناً للمؤمنين، وامتهاناً للمنافقين، ومدحرة للأحزاب الكافرة التي استهدفت بتحزُّبها الجماعي الجماهيري استئصال ناشئة الإسلام، فاندحرت هي رغم عِدّتها وعُدتها الهائلة ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

لقد تحزب المشركون واليهود بأسرهم، ومعهم أضرابهم من منافقين وسواهم تدخلاً في حرب أو تخلفاً عن حربهم، فحلّقوا على المدينة من فوق ومن أسفل حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظن ظانون بالله الظنونا، وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، وقال المنافقون قولتهم وفعلوا فعلتهم، وهنالك أدرك الرسول ﷺ والمؤمنين نصرٌ من الله فـ ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾...!:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾:

في هذا العرض الوجيز تبدأ المعركة وتختم بعناصرها الغيبية الحاسمة لها لصالح المؤمنين، و﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ دون «نعمة من الله» توحي أنها كانت لدنيّة خاصة، كأن نعمة النصرة الإيمانية منحصرة فيها منحسرة عن سواها، فهنالك هجمة الأحزاب ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ ففاجأتها ما لم يخلد بخلدها ﴿فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ - وقد قال الرسول ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»[١].

وكيف تحزبوا ضد المؤمنين بكل طاقاتهم وإمكانياتهم، وكيف قُتلوا وأسروا وخُسروا وانحسروا دون حرب طاحنة؟[٢] فهذه الآيات يقص القصة

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٩٢ - أخرج أحمد والبخاري وابن مردويه عن سليمان بن صرد قال قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: . .

(٢) علي بن إبراهيم القمي يذكر قصة الأحزاب بتفصيل يقول فيه. . فإنها نزلت في قصة الأحزاب من قريش والعرب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ وذلك أن قريشاً تجمعت في سنة خمس من الهجرة وساروا في العرب وجلبوا واستفزهم لحرب رسول الله ﷺ فوافوا في عشرة آلاف ومعهم كنانة وسليم وفزارة وكان رسول الله ﷺ حين أجلى بني النضير وهم بطن من اليهود من المدينة وكان رئيسهم حيي بن أخطب وهم يهود من بني هارون فنجا أحدهم من المدينة صاروا إلى خيبر وخرج حيي بن أخطب إلى قريش بمكة وقال لهم إن محمداً ﷺ قد وتركم ووترنا وأجلانا من المدينة من ديارنا وأموالنا وأجلى بين عمنا بني قينقاع فسيروا في الأرض واجمعوا حلفاءكم وغيرهم وسيروا إليهم فإنه قد بقي من قومي بيثرب سبعمائة مقاتل وهم بنو قريظة وبينهم وبين محمد عهد وميثاق وأنا أحملهم على نقض العهد بينهم وبين محمد ويكونوا معنا عليهم فتأتونه أنتم من فوق وهم من أسفل وكان موضع بني قريظة من المدينة على قدر ميلين وهو الموضع الذي يسمى بئر بني المطلب فلم يزل يسير معهم حيي بن أخطب في قبائل العرب حتى اجتمعوا قدر عشرة آلاف من قريش وكنانة والأقرع بن حابس في قومه والعباس بن مرداس في بني سليم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستشار أصحابه وكانوا سبعمائة رجل فقال سلمان: يا رسول الله ﷺ إن القليل لا يقاوم الكثير في المطاولة ولا يمكنهم أن يأتونا من كل وجه فإنا كنا معاشر العجم في بلاد فارس إذا دهمنا دهم من عدونا نحفر الخنادق فيكون الحرب من مواضع معروفة فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: أشار بصواب فأمر رسول الله ﷺ بحفرة من ناحية أحد إلى راتج وجعل على كل عشرين خطوة وثلاثين خطوة قوماً من المهاجرين والأنصار يحفرونه فأمر فحملت المساحي والمعاول وبدأ رسول الله ﷺ وأخذ معولاً فحفر في موضع المهاجرين بنفسه وأمير المؤمنين عليه السلام ينقل التراب من الحفرة حتى عرق رسول الله ﷺ وعيي وقال: لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم للأنصار والمهاجرة فلما نظر الناس إلى رسول الله ﷺ يحفر اجتهدوا في الحفر ونقل التراب فلما كان في اليوم الثاني بكروا إلى الحفر وقعد رسول الله ﷺ في مسجد الفتح فبينا المهاجرون والأنصار يحفرون إذ عرض لهم جبل لم يعمل المعاول فيه فبعثوا جابر بن عبد الله الأنصاري إلى رسول الله ﷺ يعلمه بذلك قال جابر فجئت إلى المسجد ورسول الله =

كما يتضمن رؤوس أقلامها وكما يضمن بقاءها على مدّ الزمن نموذجاً بارعاً من نماذج النصر، كاشفة لهم من جوانبها ما لم يدركوها، ويلقي أضواءً منها على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبّئات الضمائر ولكي يتدربوا ويتأدبوا بمعدات الحرب الدفاعية الوقائية كيفما كانت عدَّة المهاجمين وعُدَّتهم وتلك نعمةٌ منقطعة النظير في هكذا الخطر الخطير ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ من فوقكم ومن أسفل منكم. . ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ وابتليتم وزلزلتم زلزالاً شديداً ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ راحت بها راحتهم وانزاحت عِدَّتُهم وعُدّتهم ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وعلّهم رأوها وهابوها فانهزموا دون حرب طاحنة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ⑨﴾:

قد تكون هذه الريح ريح الصبا كما يروى عن الرسول ﷺ [1] والجنود علّهم من الملائكة المردفين كما في آية أخرى.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ⑩﴾:

= مستلقٍ على قفاه ورداءه تحت رأسه وقد شد على بطنه حجراً فقلت: يا رسول الله ﷺ قد عرض لنا جبل لم تعمل المعاول فيه فقام مسرعاً حتى جاءه ثم دعا بماء في إناء فغسل وجهه وذراعيه ومسح على رأسه ورجليه ثم شرب ومجّ في ذلك الماء ثم صبه على ذلك الحجر ثم أخذ معولاً فضرب ضربة فبرقت برقة فنظرنا فيها إلى قصور الشام ثم ضرب أخرى فبرقت برقة نظرنا فيها إلى قصور المدائن ثم ضرب أخرى فبرقت برقة أخرى فنظرنا فيها إلى قصور اليمن فقال رسول الله ﷺ: أما إنه سيفتح الله عليكم هذه المواطن التي برقت فيها البرق ثم انهال علينا الجبل كما ينهال علينا الرمل فقال جابر: فعلمت أن رسول الله ﷺ مقوٍ أي جائع لما رأيت على بطنه الحجر فقلت: يا رسول الله ﷺ هل لك في الغداء؟ قال: ما عندك يا جابر؟ فقلت: عناق (الأنثى من أولاد المعز) وصاع من شعير فقال ﷺ: تقدم وأصلح ما عندك قال جابر فجئت إلى أهلي فأمرتها فطحنت الشعير وذبحت العنز وسلختها وأمرتها أن تجز وتطبخ وتشوى فلما فرغت من ذلك جئت إلى رسول الله ﷺ.

(١) الدر المنثور ٥: ١٨٥ - أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور.

﴿مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ هما جانبان من جوانب المدينة، والمهاجمون على أحزابهم حزبان: اليهود والمشركون، إذاً فأحدهما ﴿جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ والآخر ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وطبعاً المشركون من جانب مكة فهو جانبها الغربي: ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ فأحزاب اليهود من الجانب المقابل الشرقي: من فوقكم، وما ألطفه تعبيراً للشرقي بالفوق حيث اليهود كانوا قريبين منهم كأنهم فوق رؤوسهم وأن المشرق فوق إذ تتفوق فيه الشمس فهو يتفوق المغرب، وما ألطفه للغربي ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ «لأسفلكم» فإنهم كانوا بعيدين عنهم وفي الجانب الغربي وهو سفل الشمس.

ثم الجاؤون من فوق كانوا أخطر لقربهم مكاناً وبعدهم عن التهجم لمكان العهود التي وثّقت بينهم وبين النبي ﷺ فمفاجأتهم أخطر، وخطرهم أكثر، ولكنما المشركون كانوا أسفل لبُعد المكان والتهيؤ لهم أكثر مما لليهود بفارق عدم الميثاق.

هنا تتمثل صورة الهول الفظيع الفجيع التي سلبت من جموع المؤمنين أبصارهم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وقلبت قلوبهم: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ فخلّفت ظنوناً لا تليق بساحة الإيمان: «وتظنون بالله الظنونا.

إنهم إذ يرون الحق كله معهم والباطل كله مع الأحزاب، ثم يفاجؤون بهذه الفجأة النكراء الدهماء الدهياء، فكيف تظل أبصارهم كعادتها لا تزيغ، وقلوبهم في مكاناتها لا تبلغ الحناجر، ولكن لماذا ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ دون أن ترونها امتحاناً وبلاءً دون امتهانة لعناء.

زَيغ الأبصار هو انحرافها عن حق الإبصار إذ أبصروا الأحزاب هاجمة، وبلوغ القلوب الحناجر يصور مدى الخوف حيث كادت تزهق به النفوس.. وهذه حالة المجموعة من ضعفاء الإيمان والمنافقين، وأما

المؤمنون الحقيقيون ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(١).

قصة الأحزاب هنا ترسم مربعاً من وسطها للمهاجمين، وللمؤمنين، وضعفاء الإيمان، وللمنافقين، فتوضِّح لكلٍّ دوره.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾:

في هذه البلية الزلزال نجح أقوياء الإيمان: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ وزلزل الإخفاء ويسطاء الإيمان: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾... وبرز كامن النفاق من المنافقين المدعين الإيمان ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾... وقد تشمل الكل ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾... أم وقبلها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ فإنهم آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، والبسطاء: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾(٢) ولكنما الأقوياء آمنوا بقلوبهم كما آمنوا بألسنتهم ففيما بلغت قلوبهم الحناجر قالوا: يا رسول الله ﷺ! هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا فضرب الله وجوه أعدائه بالريح فهزمهم الله بالريح»(٣).

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٤.
(٣) الدر المنثور ٥ : ١٨٥ - أخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال قلنا يوم الخندق يا رسول الله ﷺ!... وفيه أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وابن عساكر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طرق عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة اليهود أسفل نخافهم على ذرارينا وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة ما يرى أحد منّا إصبعه فجعل المنافقون يستأذنون النبي...
وفيه أخرج الفريابي وابن عساكر عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال قال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ لحملته ولفعلت فقال حذيفة: لقد رأيتني ليلة الأحزاب ونحن مع رسول الله ﷺ فكان رسول الله ﷺ يصلي من الليل في ليلة باردة ما قبله ولا بعده برد كان أشد منه فحانت =

وليس ذلك الابتلاء الزلزال للمؤمنين ليختص بما مضى وهم حضور لدى الرسول ﷺ، فإن له أشباهاً ونظائر قد تكون أبلى مما مضى وكما يبتلون زمن الغيبة ولا سيما في أواخرها، وليس الرسول ﷺ فيهم ولا أحد من عترته إلّا الغائب وكما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أما إنه سيأتي على الناس زمان يكون الحق فيه مستوراً والباطل ظاهراً مشهوراً وذلك إذا كان أولى الناس به أعداءهم له واقترب الوعد الحق وعظم الإلحاد وظهر الفساد هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ونحلهم الأخيار أسماء الأشرار فيكون جهد المؤمن أن يحفظ مهجته من أقرب الناس إليه ثم يفتح الله الفرج لأوليائه ويظهر صاحب الأمر على أعدائه»[1].

إن دور المنافقين في هذا الوسط كان أنحس دور وأتعسه، تندد بهم عديد من آيات القصة شديد في أبوابهم الجهنمية السبع:

١ - ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾:

كلمة تكلم القلوب وتجرح الأكباد، يقولونها في هذا البلاء الزلزال

= مني التفاتة فقال ﷺ: ألا رجل يذهب إلى هؤلاء فيأتينا بخبرهم جعله الله معي يوم القيامة؟ قال: فما قام منّا إنسان قال: فسكتوا ثم عاد فسكتوا ثم قال: يا أبا بكر ثم قال استغفر الله رسوله ثم قال: إن شئت ذهبت فقال: يا عمر فقال استغفر الله ورسوله ثم قال ﷺ: يا حذيفة؟ فقلت: لبيك فقمت حتى أتيت وإن جنبيّ ليضربان من البرد فمسح رأسي ووجهي ثم قال: ائت هؤلاء القوم حتى تأتينا بخبرهم ولا تحدث حدثاً حتى ترجع ثم قال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه قال فلأن يكون أرسلها كان أحب إليّ من الدنيا، وما فيها قال فانطلقت فأخذت أمشي في حمام قال فوجدتهم قد أرسل عليهم ريحاً فقطعت أطنابهم وأبنيتهم وذهبت بخيولهم ولم تدع شيئاً إلا أهلكته قال: وأبو سفيان قاعد يصطلي عند نار له، قال فنظرت فأخذت سهماً فوضعته في كبد قوسي قال: وكان حذيفة رامياً فذكرت رسول الله ﷺ لا تحدثن حدثاً حتى ترجع قال: فرددت سهمي في كنانتي...

(١) نور الثقلين ٤: ٢٤٢ ح ٣٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين حديث طويل يقول فيه:..

لتأخذ مجالاتها من قلوب الناشئة ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ومن قلوب ضعفاء الإيمان، لا سيما وهم كانوا ممن يتقشفون في مظاهر الإيمان ويتسابقون، فهم قد يعتبرون وعود النصر والانتصار من الله ورسوله غروراً، يقوله المنافقون ويتبعهم الذين في قلوبهم مرض الشك وشائبة النفاق، فيصبحان حزباً واحداً في هذه الدعاية النكراء.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ حينما تفرد تعني في الأكثر - المنافقين وحينما تقرن بالمنافقين تعني من يحن إليهم ويهواهم ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾(١) ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾(٢) وقد يعني المرض دونهما كما الشهوة: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾(٣) وكل انحراف في القلب مرض عقيدياً أو علمياً أو أخلاقياً أما ذا؟.

فقد وجد هؤلاء الأوغاد الأنكاد في هذا البلاء المزلزل والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن أمراض قلوبهم وهم آمنون ألّا لومة عليهم، والمجالة آهلة، والريبة آخذة مجالها من قلوب بلغت الحناجر، فالواقع المزلزل بظاهره يصدقهم في غرورهم كأنهم منطقيون في قولتهم في هذا المسرح الهائل، حيث أزيح عن قلوب البسطاء والأخفاء ذلك الستار الرقيق من تجمُّل الإيمان، وهذه هي سيرة النفاق، تفتش عن المجالات الأسرع تأثراً والأوقع تحسراً، زرعاً للشكوك فيها، وحصداً للناشئة لتنضم إلى حزبهم وهنالك الطامة الكبرى.

لكنما الله يكشف دوماً عن نواياهم وجناياهم، تعريفاً بهم ومختلف الشبابيك من نفاقهم، ومؤتلف الشبكات من مكائدهم:

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾:

ذلك بعدما جنّد النبي ﷺ المؤمنين أمام الخندق حول المدينة، في صفوف متراصة متربصة وفيهم منافقون، هنا يخاطبون أهل يثرب المدينة خطاب الترهيب من العدو الرهيب ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ وهو مُفعَلٌ من الإقامة، مصدراً واسم زمان ومكان، لا إقامة لكم هاهنا دفاعاً أو هجوماً إلا انهزاماً، ولا زمانها ولا مكانها، إذ لا قِبَل لكم في أصل المقاومة ولا زمانها ولا مكانها، والانهزام كائن في مثلثه لا محالة ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم وقد تكون بيوتكم عورة، أو تهاجم من قبل العدو وأنتم هنا في معركة خاسرة؟!

يحرضون هكذا أهل المدينة على ترك الصفوف بدعوة خبيثة تأتي النفوس من ثغراتها الضعيفة، من محدق الخطر وجامح الهول والغيرة على البيوت العودة كما:

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾:

إنهم في ثالوث الخيانة بزعزعة الجيش، دعاية لرجوعهم واستئذاناً لأنفسهم، أو رجوعاً دون إذن، ومعهم متثاقلون لم يحضروا الصفوف، وأخطر زواياه ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾... ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾... ذليلة الحيطان وهي في أقصى المدينة(١). لكي يوجهوا زحفهم بوجهة الاستئذان لحفظ العورة، ويحرِّضوا غيرهم بظاهر الغيرة على العورة فاستئصالاً لصفوف الجيش.

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٨٨ - أخرج ابن أبي حاتم عن السري في الآية.. فارجعوا قال: إلى المدينة عن قتال ابن سفيان ويستأذن فريق منهم النبي ﷺ قال: جاءه رجلان من الأنصار من بني حارثة أحدهما يدعى أبا عرابة بن أوس والآخر يدعى أوس بن قيظي فقالا: يا رسول الله ﷺ: إن بيوتنا عورة يعنون أنها ذليلة الحيطان ونحن في أقصى المدينة ونحن نخاف السرق فائذن لنا فقال الله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

ويثرب: المدينة - الطيبة: مدينة تأكل القرى تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد[1] فلأن الرسول ﷺ سكنها وأسس دولة الإسلام فيها، ثم توفي ودفن فيها، فهي إذاً مدينة إذ مدنها الرسول، وطيبة إذ طيّبها.

٤ - ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ المدينة ﴿عَلَيْهِم﴾: المنافقين والذين في قلوبهم مرض ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾: وكل جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾: أن يفتنوا مع الداخلين ضد المؤمنين ﴿لَءَاتَوْهَا﴾: الفتنة، تاركين بيوتهم العورة لينضموا إلى الداخلين ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾ بقاءً في بيوتهم العورة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ما تيسر لهم في لبثهم! أم «لو دخلت» بيوتهم العورة من أقطار المدينة «ثم سُئلوا فتنة الحرب مع المؤمنين لأتوا الفتنة خارج بيوتهم وما تلبثوا ببيوتهم إلّا يسيراً»!

أم «لو دخلت» أيّ مدخل منهما، ثم سئلوا فتنة الردة إلى الكفر لآتوها وما تلبثوا ببيوتهم العورة إلا قليلاً ولماذا «لو» إحالة للدخول عليهم؟ حيث الكافرون لا يدخلون عليهم محاربين! بل لسؤال الفتنة الردة والمشاركة في الهجمة على المؤمنين! فهنالك ينسون البيوت العورة إذ يجدون آمالهم من أضرابهم، ولا يخافون على بيوتهم من المؤمنين أمّن ذا؟!

ذلك شأنهم الشائن والأعداء بعد خارج المدينة، يعتذرون في الخطر المتوقع للفرار، أن بيوتنا عورة، ولكنهم في واقع الخطر ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم

---

(١) المصدر وأخرج مالك وأحمد وعبد الرزاق والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي..
وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب قال قال رسول الله ﷺ: من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله هي طابة هي طابة هي طابة وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: لا تدعونها يثرب فإنها طيبة يعني المدينة ومن قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات هي طيبة هي طيبة هي طيبة.

﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ يعكسون الأمر إذ يأتون الفتنة والردة من بيوتهم العورة إذ لا تهمهم، وإنما تهمهم الفتنة أن يأتوها حَبْواً سِراعاً دون تلبث إلّا يسيراً يأخذون عُدّتهم لما سُئلوا!

هكذا يكشفهم القرآن في تناقض الشخصية المنافقة، وأنهم يولون الأدبار رغم ما عاهدوا الله:

٥ - ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾:

أترى أنه عهد الإيمان لما آمنوا بألسنتهم؟ ولا يخص ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾! أم عهده بهذا الخصوص؟ ولم يذكر في القرآن! ولكن ﴿مِن قَبْلُ﴾ ليس لزامه ذكره في القرآن، فقد ذكر في الأثر أنهم همّوا أن يفشلوا يوم أُحد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يومها، ثم عاهدوا الله ألّا يعودوا لمثلها أبداً، فهنا يندِّد بهم إن نقضوا عهدهم ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾!

ولماذا الفرار من الزحف ولا ينفعهم، فليس إلّا ضرراً عليهم وفي الآخرة عذاب أليم:

٦ - ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿لَّن﴾ تحيل نفع الفرار إن كان من الموت أو القتل في المعركة، أما معنوياً فظاهرٌ حيث الفرار عن الزحف خسار، وأما بقاءً في حياةٍ فالموت أو تفسير، ج ٢٤، ص: ٦٨ القتل قَدَر لا مفر منه ولا منجى عنه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾...[١] ولئن أُخرتم بفرار ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وكل مُتَع الدنيا قليل، فحتى إن كان كثيراً في فرار عن حكم

(١) سورة النساء، الآية: ٧٨.

الله ففي الآخرة عذاب النار وبئس المصير، فمما الفرار إذاً ولا يخلف إلّا الخسار، ولن ينفعكم، وليس فرار العاقل إلا إلى نفع أو عن ضرر و﴿لَّن﴾!.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾:

هنالك يوحد إرادة السوء والرحمة في الله عدلاً وفضلاً فـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

أأمنتم إن فررتم من الزحف أن يريد الله بكم سوءاً فلا عاصم منه إلّا هو، أو إن فررتم من الزحف أن يريد بكم رحمة فلا راد لفضله إلّا هو، إذاً فلماذا الفرار عن رحمة الله إلى نقمته، ومن خيره إلى ضره، فهؤلاء البعيدون البعيدون ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم﴾ هنا وهناك ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم في بأسهم!

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾:

﴿قَدْ﴾ تحقق ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ إذ هو حقاً يعلم المعوقين منكم: طن منافقين والذين في قلوبهم مرض، تثبيطاً عن الحرب وصرفاً في وهن القول ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾... ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾... وفي وهن الفعل ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾... تعويقاً لإخوانهم بقولة وفعلة مريبة ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: أضرابهم في ضعف الإيمان ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ تثبيطاً وفراراً، وهم

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٧.

أنفسهم لا يأتون البأس إلّا قليلاً منه وقليلاً منهم، وهؤلاء القلة في القلة لا يثبتون في البأس بل يثبطون ويثبِّطون.

وقد يعني ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ فيما يعني قول فلان لرجل بجنبه من إخوانه أما ترى هذا الشيطان عمراً ما يفلت من يديه أحد فهلموا ندفع إليه محمداً ليقتله ونلحق بقومنا فأنزل الله آية المعوقين(١) وهنالك وقعت الطامة الكبرى إذ قتل

---

(١) نور الثقلين ٤: ٢٥٠ فيما أورده القمي من القصة.. وأقبلت قريش فلما نظروا إلى الخندق قالوا هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها قبل ذلك فقيل لهم: هذا من تدبير الفارسي الذي معه فوافى عمرو بن عبد ود وهبيرة بن وهب وضرار بن الخطاب إلى الخندق وكان رسول الله ﷺ قد صف أصحابه بين يديه فصاحوا بخيلهم حتى ظفروا الخندق إلى جانب رسول الله ﷺ فصاروا أصحاب رسول الله ﷺ كلهم خلف رسول الله ﷺ وقدموا رسول الله ﷺ بين أيديهم وقال رجل من المهاجرين وهو فلان لرجل بجنبه... وركز عمرو بن عبد ود رمحه في الأرض وأقبل يجول جولة ويرتجز ويقول:

ولقد بححت من النداء لجمعكم هل من مبارز ووقفت إذ جبن السجاع مواقف القرن المناجز
إني كذلك لم أزل متسرعاً نحو الهراهز إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

فقال رسول الله ﷺ من لهذا الكلب؟ فلم يجبه أحد فوثب إليه أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أنا له يا رسول الله ﷺ فقال يا علي! هذا عمرو بن عبد ود فارس يليل فقال: أنا علي بن أبي طالب فقال رسول الله ﷺ ادن مني فدنا منه فعممه بيده ودفع إليه سيفه ذا الفقار وقال له: اذهب وقاتل بهذا وقال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فمرّ أمير المؤمنين عليه السلام يهرول في مشيه وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز ذو نية وبصيرة ولصدق منجى كل فائز
اني لأرجو أن أقيم عليك فاتحة الجنائز من ضربة نجلاء يبقى صيتها بعد الهزاهز

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وختنه فقال: والله إن أباك كان لي صديقاً ونديماً وإني أكره قتلك، ما أمن ابن عمك حين بعثك إلي أن أختطفك برمحي هذا فأتركك شائلاً بين السماء والأرض لا حي ولا ميت؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: قد علم ابن عمي أنك إن قتلتني دخلت الجنة وأنت في النار وإن قتلتك فأنت في النار وأنا في الجنة! فقال عمرو: كلتاهما لك يا علي تلك إذاً قسمة ضيزى فقال علي عليه السلام: دع هذا يا عمرو إني سمعت منك وأنت متعلق بأستار الكعبة تقول: لا يعرضن عليّ أحد في الحرب ثلاث خصال إلا أجبته إلا واحدة منها وأنا أعرض إليك ثلاث خصال فأجبني إلا واحدة قال: هات يا علي! قال: أحدها تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول =

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فارس يليل عمرو بن عبد ود فتم انهزام الأحزاب ونزل جبريل بقوله: «لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار»! وعندئذ هاجت الرياح وانهزم الكفار وولوا الأدبار فهم بين قتيل وجريح وأسير وفارٌ! كما وقد يعني ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ موارد أخرى[1].

= الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: نحّ عني هذا فاسأل الثانية، فقال: إن ترجع وترد هذا الجيش عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن يك صادقاً فأنتم أعلى به عيناً وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره، قال: إذاً تتحدث نساء قريش وتنشد الشعراء في أشعارها أني جبنت ورجعت على عقبي من الحرب وخذلت قوماً رأسوني عليهم! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام فالثالثة أن تنزل إلى قتالي فإنك فارس وأنا راجل حتى أنابذك (أكاشفك وأقاتل) فوثب عن فرسه وعرقبه: (قطع عرقوبه: عصب غليظ فوق العقب) وقال: هذه خصلة ما ظننت أن أحداً من العرب يسومني عليها: (يكلفني إياها) ثم بدأ فضرب أمير المؤمنين عليه السلام بالسيف على رأسه فاتقاه أمير المؤمنين بالدرقة الترس فقطعها وثبت السيف على رأسه فقال له علي عليه السلام: يا عمر وما كفاك أني بارزتك وأنت فارس العرب حتى استعنت علّي بظهير؟ فالتفت عمرو إلى خلفه فضربه أمير المؤمنين عليه السلام مسرعاً إلى ساقيه فقطعهما جميعاً وارتفعت بينهما عجاجة فقال المنافقون قتل علي بن أبي طالب ثم انكشف العجاجة ونظروا فإذا أمير المؤمنين عليه السلام على صدره قد أخذ بلحيته يريد أن يذبحه ثم أخذ رأسه وأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والدماء تسيل على رأسه من ضربة عمر وسيفه يقطر منه الدم وهو يقول: أنا ابن عبد المطلب الموت خير للفتى من الهرب فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي عليه السلام ماكرته؟ قال: نعم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحرب خديعة وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الزبير إلى هبيرة بن وهب فضربه على رأسه ضربة فلق هامته وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمر بن الخطاب أن يبارز ضرار بن الخطاب فلما برز إليه ضرار انتزع له عمر سهماً فقال له ضرار: ويلك يا بن صهاك أترميني في مبارزة والله لئن رميتني لا تركت عدوياً بمكة إلا قتلته فانهزم عمر عند ذلك ومر نحوه ضرار وضربه ضرار على رأسه بالقناة ثم قال: احفظها يا عمر فإني آليت ألا أقتل قرشياً ما قدرت عليه فكان عمر يحفظ له ذلك بعد ما ولي وولاه.

(١) وفي الدر المنثور ٥: ١٨٨ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾ [الأحزاب: ١٨].. قال: هذا يوم الأحزاب انصرف رجل من عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف فقال له: أنت هاهنا في الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين الرماح والسيوف قال: هلم إلي لقد بلغ بك وبصاحبك والذي يحلف به لا يستقي لها محمد أبداً قال: كذبت والذي يحلف به وكان أخاه من أبيه وأمه والله لأخبرن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمرك وذهب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخبره فوجده قد نزل جبريل عليه السلام بخبره ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾ وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: هؤلاء أناس من المنافقين كانوا=

٦ - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: بخلاء في النفس والنفيس والنفسيات، وليسوا - فقط - لا يساعدون على بأس، بل ويزيدون بأساً على بأس وبؤساً في بأس بدعاياتهم السوء، فكلهم كزازات وهزازات ضد المؤمنين، وإن شأنهم الشائن في نفاقهم العارم يبرز في خوف البأس وذهابه، ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ وهم بعدُ في المعركة قبل فرارهم ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ خوفاً كما المحتضر، أو نَظِرَة الإذن للفرار ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ صورة شاخصة واضحة الملامح تنبئ عن سيرة باخسة، مضحكة مبكية تثير السخرية من هؤلاء الجُبناء اللعناء، حيث أخذتهم غشوة الموت فغابت حواسهم، وأخذت أعينهم نَظِرة لزهاق أنفسهم!

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وأمنوا البأس «سلقوكم» ضربوكم طعناً ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ كأنها نيازك نارية ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ يبخلون عليكم أن زال الخوف عنكم بانتصاركم، وهم يرقبون غَلَب العدو، ويبخلون على ما غنمتم كأنه لهم كله أو يشاركون، وهم لا نصيب لهم في الانتصار!

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ أصبحت ألسنتهم الخرس حِداداً طوالاً لأنفسهم على المؤمنين، وارتفعت أصواتهم بعد الرعشة، وانتفخت أوداجهم بكل رعونة وعظمة، وادعوا ادعاءاتهم الجوفاء دونما اختجال ولا حياء، كأن لهم الفضل دون سواهم، ولم يكن الفضل إلّا لسواهم، ويا له من وقاحة حمقاء ونفاقة لعناء!.

وهذا الجيل من النسناس دائبون في ألسنتهم الحداد بين الناس، صم بكم جبناء أعمياء أشحاء لا حراك لهم حين البأس إلّا ضداً لصالح الناس،

= يقولون لإخوانهم ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ولو كانوا لحماً لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه دعوا هذا الرجل فإنه هالك والقائلين لإخوانهم إلى المؤمنين هلم إلينا أي دعوا محمداً وأصحابه فإنه هالك ومقتول ولا يأتون البأس إلا قليلاً قال: لا يحضرون القتال إلا كارهين وإن حضروه كانت أيديهم مع المسلمين وقلوبهم مع المشركين.

فصحاء بلغاء حركون ثوريون في كل صرخة صيحاء. في الأمن والرخاء كأنهم هم الذين جاهدوا وغيرهم قاعدون.

«أولئك» المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ لمّا ادعوا الإيمان ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ باللّاإيمان، حيث العمل غير النابع عن الإيمان حابط أياً كان، كما الإيمان دون عمل خابط مهما كان أفضل من اللاإيمان ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ مهما خيل إلى البسطاء إن لكثير العمل أثره وإن لم يكن عن إيمان!

٧ - ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾:

﴿يَحْسَبُونَ﴾ المنافقون ﴿الْأَحْزَابَ﴾ المهاجمة ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ حتى الآن حيث فروا عن زحفهم والخوف ماكن في قلوبهم لا يدعهم يحسبونهم ذهبوا، وحتى إذا حسبوهم ذهبوا ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ راجعين بعد ذهابهم ﴿يَوَدُّوا﴾ الحاسبون ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ خارجون في البادية خارج المدينة ﴿فِي الْأَعْرَابِ﴾ أهل البادية، لا هم أمام الأحزاب في المعركة ولا هم في بيوتهم العورة، وإنما ﴿بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ كسراً للأحزاب فكُسالى، أو انكساراً منهم ففرحين، فهذه حالتهم وليسوا فيكم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم في قليل من الحرب مسايرة النفاق.

إنهم لا يزالون في نعاش وارتعاش وتخاذل واستيحاش فـ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ وملامح ذهابهم ظاهرة وهم البعيدون البعيدون عن المعركة، يظلون خائفين لو أن الأحزاب ما ذهبت ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا﴾ هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من قاطني المدينة، بل هم بادون في الأعراب، فليس لهم موقف مما يمضي في المدينة إلّا و﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ...﴾!

وهذه سبعة من أبواب جحيم المنافقين المتخللين بين الجماعة الناشئة

المؤمنة: ١ - ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ...﴾ ٢ - ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾...، ٣ - ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ...﴾، ٤ - ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾...، ٥ - ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾...، ٦ - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾...، ٧ - ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾...!

ثم المؤمنون الصادقون الراجون الله والذاكرون له كثيراً، لهم أسوة حسنة في رسول الله في هذه المعارك الصعبة:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾:

﴿أُسْوَةٌ﴾ من «أَسَوَ»: أسوت الجرح: داويته، بخلاف الأسى: الحزن، فالواوي منه بمعنى المداواة والإصلاح، واليائي هو الحزن والأسى الجراح، فالطبيب الآسي: هو المداوي، والمصلح بين القوم: الآسي، فالأسوة الحسنة هي حالة خاصة في الاتباع تضمن كلا النفي والإثبات بصورة مطلقة إزالة الأمراض وإصلاح الحال، ولأن الفعلة هي ما يفعل به، فالأسوة هي ما يؤتسى به، فهي الحالة التي يداوى بها ويصلح، فقد تكون للإنسان نفسه كالنبي بما يوحى إليه، أم باتباع غيره كالمرسل إليهم باتباعه في رسالاته ككلٍّ - في قولٍ وفعل وتقرير في عقيدة وأية طوية من نية وعلم، أم ظاهرة في فعل أم تقرير.

و«أسوة حسنة في رسول الله» تعني الأسوة المطلقة بما يحمل من رسالة الله، فيقتدي به شفاءً لأدواءٍ وإصلاحاً بعد زوال الداء! والرسول ﷺ «طبيب دوار بطبه قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه يضع من ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عُميٍ وآذان صُمّ وألسنة بُكم متتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة، لم يستضيئوا بأضواء الحكمة ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة فهم في ذلك كالأنعام السائمة والصخور القاسية، قد انجابت

السرائر لأهل البصائر ووضحت محجة الحق لخابطها وأسفرت الساعة عن وجهها وظهرت العلامة لمتوسمها، ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح وأرواحاً بلا أشباح ونساكاً بلا صلاح وتجاراً بلا أرباح وإيقاظاً نوماً وشهوداً غُيَّباً وناظرة عمياء وسامعة صماء وناطقة بكماء»[١].

والأسوة الحسنة قد تكون مطلقة دون حدود كما «في رسول الله ﷺ» أم مرفقة بحدود كما في إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢].

لقد كان إبراهيم في وعد الاستغفار لأبيه وواقعه معذوراً، فلأنه ما أصاب الحق هنا على عذر، فلا أسوة في عمله المعذور، وهذا يدلنا إلى العصمة المطلقة للرسول محمد ﷺ حيث الأسوة فيه مطلقة لا يخطأ ولو معذوراً، ففي كل أقواله وأعماله هو أسوة دونما استثناء.

وإذا لا يؤتسى إبراهيم الخليل عليه السلام في بعض القول وهو معصوم، فبأحرى ألّا يؤتسى غير المعصوم أسوة مطلقة، وأحياناً هو مأثوم وأخرى خاطئ غير مأثوم.

إن أسوة الرسول المطلقة هي الحسنة المطلقة، وتركها المطلق، سيئة مطلقة، والعوان بين ذلك: قد تأتسي به وقد لا تأتسي، هي أسوة غير حسنة، فقيد أسوته بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ إطلاق لها تحلّق على كافة جنبات الحياة الفردية والجماعية، صعبة ملتوية، كما في خندق الأحزاب، أم سهلة لا تلتوي كالعبادات التي لا تكلف نفساً ولا مالاً، وإنما حالاً وأعمالاً!.

---

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٠٨ في ذكر النبي ﷺ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

فالمقتدي به ﷺ في محراب الصلاة، والتارك له القاعد عنه في محراب الحرب أسوته غير حسنة، وهو ممن يعبد الله على حرف ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾[1]! أو الأسوة به في علم دون عمل، أم عمل دون علم، أم في علم وعمل دون عقيدة ونية، أنها أسوة سيئة.

إن خندق الحرب مع الأحزاب حيث ابتلي به المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، كان فتنة يفتتن بها من يدّعون الإيمان، فامتاز به صادق الإيمان عن كاذبه، ومازج الإيمان وساذجة عن ناضجه، وهنالك الأسوة معيار له عياره المطلق، المؤتسي به في هذه المعركة المزلزلة المزمجرة له أسوة حسنة في كافة الحالات، وهو ممن ﴿كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

إنها لم تكن صدفة أن تُحتفى آية الأسوة بآيات خندق الأحزاب، قبلها زلزال المؤمنين ونفاق المنافقين، وبعدها تصديق المؤمنين وزيادة الإيمان والتسليم، والكل بين انهزام الكافرين ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾... وردهم بغيظهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ خمس عشرة آية بينهما واخيرتها ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾...!

آية الأسوة تفرض بكل تأكيد وتأبيد الأسوة الحسنة المطلقة برسول الله ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

فـ ﴿لَّقَدْ﴾ تأكيد أن اثنان، و«كان» تضرب بهذه الأسوة إلى أعماق الماضي، إن ليس تكليفاً حاضراً، بل هو ماض ويبقى، في مثلث الزمن منذ بداية الإيمان لحدِّ الارتحال إلى رحمة الله.

وليست هذه الأسوة له ﷺ إذ ليس إلا رسولاً لا يهدف شخصه

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

وشخصيته، ولا عليكم، إذ ليس إلّا لصالحكم كمؤمنين صادقين، بل هو «لكم»: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾. . . !

﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ بما يحمل رسالة الله، فهي إذاً أسوة في الله و﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾! لا في «محمد ﷺ كائناً مَن كان، فإنه دون رسالة لا أسوة فيه مطلقة فليست حسنة مطلقة!

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ﴾ فرجاء الله في حياته كلها متعرق في أعماقه وأرجائه كلها، فإن «كان» هنا كما الأول تضرب إلى عمق الماضي، فليست إذاً حالة جديدة بسيطة بادئة، بل هي ماضية متعمقة متعرقة، عاشها الراجي الله طائلاً عميقاً من حياته وكان ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ لا فقط بلسانه، فكثيرٌ هؤلاء الذاكرون بألسنتهم الغافلون بقلوبهم وأعمالهم، وإنما كثيراً بقلوبهم، الظاهر في أقوالهم وأعمالهم، فالذاكر الله دائباً له أسوة في رسول الله دائباً!

لا تقل إنه رسول أخلصه الله بعصمة منه ورحمة لدنية، فكيف لنا - ونحن نحن - فيه أسوة، فإنما الأسوة فيه فيما سوى العصمة، ما يتوجب عليك كمستسلم لله مخلصاً له الدين، فمهما العصمة لم تكن كسبية، فما دونها من درجات العارفين ومقامات المخلصين كسبية بتلك الأسوة الحسنة.

يخرج الرسول ﷺ بنفسه يعمل في خندق الأحزاب مع المؤمنين، يضرب بالفأس كما يضربون، ويجرف التراب بالمسحاة كما يجرفون، ويضم صوته إلى أصوات المرتجزين، وهو يقودهم في كل ذلك وهم فيه يتأسون، وهو يتقدمهم حين يعيون، يقول سلمان غلظت عليّ صخرة في ناحية من الخندق فلما رآني نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ثالثة فلمعت أخرى قلت: بأبي وأمي يا رسول الله ﷺ! ما هذا الذي رأيت لمع المعول وأنت تضرب؟. . قال: أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية

فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق..

هذا والخطر الخطير من الأحزاب محدق، والقرّ شديد مطبق مرهق، وحذيفة يرتعش برداً والرسول يصلي فإذا به يحن إليه ويلقي إليه طرفاً من ثوبه ليدفئه في حنو وهو يناجي ربه، وبعدما ينتهي من صلاته يبشره حذيفة بالتي رآها في بريقات كالمعول وعرفها قلبه.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ كهذه التي كانت للذين معه في مثل هذه المعركة الصاخبة، لا فقط في اغتنام الغنيمة وصلاة الجماعة «تقول في المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد»![1] فمن الواجب على كل مؤمن أن تحلّق الأسوة في رسول الله ﷺ على كل أقواله وعقائده وأحواله وأعماله، دونما تخلف عنه ولا قيد شعرة، في فعله وتركه لزاماً ورجاحة أما ذا، وقد «هم عمر بن الخطاب أن ينهى عن الجرة من صباغ البول فقال له رجل: أليس قد رأيت رسول الله ﷺ يلبسها؟ قال عمر: بلى قال الرجل: ألم يقل الله ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؟ فتركها عمر[2].

كما و«أكب عمر على الركن فقال: إني لأعلم أنك حجر ولولا أن رسول الله ﷺ قبلك واستلمك ما استلمتك ولا قبلتك ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3].

ثم نرى فلتات من الخليفة عمر تتعارض وهذه الأسوة المجيدة كقوله:

---

(١) قبسة من مشكاة الإمام علي عليه السلام في خطبة جهادية.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٩٠ - أخرج عبد الرزاق في المصنف عن قتادة قال: هم عمر بن الخطاب...

(٣) المصدر - أخرج أحمد عن ابن عباس أن عمر...

«إياكم والأحمرين: اللحم والنبيذ فإنهما مفسدة للدين متلفة للمال» والرسول ﷺ يقول: «سيد الإدام في الدنيا والآخرة اللحم...»[(١)].

وقد هم الخليفة أن يأخذ حلي الكعبة فيجهز بها جيوش المسلمين فقال له علي عليه السلام: كان حلي الكعبة فيها زمن الرسول ﷺ فتركه الله على حاله ولم يتركه نسياناً ولم يخف عليه مكاناً فأقره حيث أقره الله ورسوله فقال عمر: لولاك لافتضحنا «وترك الحلي بحاله»[(٢)].

وقد اشتهر عنه في حكم المتعتين ما يخالف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ «متعتان كانتا في زمن رسول الله ﷺ حلالاً وأنا أحرمهما وأعاقب عليهما متعة الحج ومتعة النساء»[(٣)].

وهكذا نراه يتفلت عن هذه الأسوة المباركة أحياناً ويتلفت أخرى ولماذا؟ أنا لا أدري!.

وإليكم نبأ من المؤمنين معه ﷺ في تلك المعركة المزمجرة المحرجة التي برزت فيها معالم النفاق من طائفة، وضآلة الإيمان من أخرى، ولكنما الثالثة:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾:

وأين هذه الآمنة المؤمنة من تلك المنافقة الفاتكة ﴿...مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا... يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟... سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ...﴾!

وأين كان ومتى، وعد الله ورسوله هجمة الأحزاب وتحليقهم هكذا بأقطار المدينة من فوقهم ومن أسفل منهم؟ قد يكون مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ

(١ - ٣) وأشباهها راجع «علي والحاكمون» تجد فيه تفاصيلها.

حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١) و: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾(٢) بلاءً وزلزالاً من هجمة لا قبل لها من الأحزاب، وزلزالاً علّها أشد هي من هجمة الدعاية المنافقة: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وآية البقرة تصريحة بوعد البلاء والزلزال الشديد فهم يترقبونه، وتلميحة بقريب النصر علّه مع الزلزال أمّاهيه؟

وكما كان الرسول ﷺ - على ضوء وعد الله - وعدهم بتظاهر الأحزاب عليهم وإن الله ينصرهم(٣) ولكن متى نصر الله؟ هل هو في هذه الحرب؟ أم بعده؟ أم ودون حرب حارقة؟ ليس في وعدهم إلا ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(٤)!

ورغم أن هذه الزلازل بطبيعة الحال تزلزل من الإيمان أم تزيله، ولكنهم ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ إيماناً بالله حيث يرون وعده واقعاً، وتسليماً لأمر الله حتى وإن كان فيه بتسليم أنفسهم، فإنهم ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وهم دوماً في انتظار الانتصار وسواءٌ عليهم أيقتلون أو يقتلون!:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾: بعضاً قليلاً لا كلّهم حيث الإيمان درجات، وفي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١١.

(٣) نور الثقلين ٤: ٢٥٣، القمي في حديث غزوة الخندق «وقد كان رسول الله ﷺ أخبر أصحابه أن العرب تتحزب علي ويجيئون من فوق وتعذر اليهود ونخافهم من أسفل وأنه يصيبهم جهد شديد ولكن يكون العاقبة لي عليهم...».

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

هذا العرض ينضم المؤمنون غير الصادقين في عهدهم إلى قبيل المنافقين توسعاً فيهم وتضيقاً في قبيل المؤمنين ثم لا يبقى إلّا الكافرون!

وهذه صورة وضيئة من الإيمان الصادق تقابل صورة وضيعة من ضعف الإيمان تلحق النفاق فتنضم إليه وكما مضت ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وليتسابق المؤمنون في الحصول على صورته الوضيئة الصادقة. ومواصفة هؤلاء المؤمنين في أوّل المطاف بـ : «رجال» تأتي لهم بصورة صارمة من رجولات وبطولات في إيمانهم، فليست تعني رجولة الجنس فتخرج بها نساءٌ هنَّ أرجل من رجال كما الصديقة الطاهرة الزهراء سلام الله عليها.

فـ ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ... رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾...[1] و«لبيت علي وفاطمة من أفاضلها» على حدّ قول الرسول ﷺ فهي إذاً من هؤلاء الرجال، في رجولة العصمة القمة وتطلباتها: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾[2]

وهكذا رجال الأعراف: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ... وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾[3] كما رجال الجنة إذ ليس كل أصحاب الجنة رجال الجنس: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾[4] اللهم إلّا رجال الوحي: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾[5] فإن رجولة الجنس من شروط

---

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٦، ٣٧.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.
(٣) سورة الأعراف، الآيات: ٤٦-٤٨.
(٤) سورة ص، الآيتان: ٦٢، ٦٣.
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

وحي الرسالة أمّن يقابلون النساء: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾... [١] ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [٢].

﴿... رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾: عاهدوه صدقاً وأتوا بما عاهدوه صدقاً بكل ما لديهم من طاقات وإمكانيات: قالاً وحالاً وفعالاً، نفساً ومالاً وعلى أية حال ما وجدوا له مجالاً، فما هو ما عاهدوا الله عليه؟ المعاهدة - وهي عهد بين اثنين، فالبادئ معاهد والثاني معاهَد عليه - هي قد تكون من الله أن يعاهدك الله على شيءٍ وأنت تقبل: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾... [٣] وأخرى أنت تعاهد الله على ما عهد إليك، ومعاهدة الآية هي الأخرى ﴿عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وأوّل العهود الإلهية إلى المؤمنين أن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ والمؤمنون كلهم يعاهدون الله على ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فمنهم الصادقون، حيث يعيشون كلمة التوحيد قالاً وحالاً وأعمالاً، دون أي نفاق بين حال وقال، ولا بينهما وبين الأعمال، وقد صدقوا في عهد التوحيد تسليماً لله على أية حال.

ومن خلفيات هذه المعاهدة، مبايعة الرسول ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٤] فالمبايعون الموفون بعهد الله هم الصادقون ولهم الأجر العظيم، والناكثون لعهدهم هم من المنافقين مهما كانوا من المؤمنين، حيث النفاق دركات كما الإيمان درجات، وآية الأحزاب تقابل بين الذين ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وبين المنافقين، فليكونوا أعم ممن هو في الدرك الأسفل من النار ومن ضعفاء الإيمان.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٥.
(٢) سورة النمل، الآية: ٥٥.
(٣) سورة يس، الآية: ٦٠.
(٤) سورة الفتح، الآية: ١٠.

وقد اشترى الله المبايعين الصادقين بأنفسهم ونفائسهم: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١) وهنا الإيفاء بعهد الله وهو بصيغة أخرى قضاء للنحب، لا يختص بأن يقتل المؤمن في سبيل الله، بل وأن يَقتلُ، قُتِل بعد أم لم يُقتل.

وكما ليس هؤلاء المؤمنون الصادقون هم الأولون - فقط - كذلك المبايعون الله الذين اشترى أنفسهم وأموالهم، فطول الزمان وعرض المكان يحوي من هؤلاء من قد يفوق الأولين أم يساميهم:(٢).

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾... وليس قضاء النحب - فقط

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) يروى نزول الآية بشأن نفر من أصحاب رسول الله ﷺ كأنس بن نضر وأصحابه ففي الدر المنثور ٥: ١٩٠ - أخرج ابن سعد وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي والبغوي في معجمه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الدلائل عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن نضر عن بدر فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرين الله ما أصنع فشهد يوم أحد فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: يا أبا عمر! وإلى أين؟ قال: واهاً لريح الجنة أجدها دون أحد فقال حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم ونزلت هذه الآية ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟...﴾ [الأحزاب: ٢٣] وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه، ومنهم مصعب بن عمير كما أخرج الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي في الدلائل عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ...﴾ [الأحزاب: ٢٣] ثم قال ﷺ: أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا وردوا عليه، وفي ملحقات الإحقاق ٣: ٣٦٣ روى نزول الآية في علي عليه السلام عدة من أعلام القوم منهم ابن الصباغ في الفصول المهمة ١١٣ قيل سئل علي عليه السلام وهو على المنبر عن الآية قال: فيّ وفي عمر وحمزة وفي ابن عمي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وأما عمي حمزة فإنه قضى نحبه يوم أُحد وأما أنا فأنتظر أشقاها يخضب هذه من هذا وأشار إلى لحيته ورأسه عهد عهده إليّ حبيبي أبي القاسم ﷺ.

- الموت، فصيغته الخاصة منهم من قتل أو مات، وهما من مصاديق قضاء النحب في سبيل الله فقضاء النحب فيما عاهدوا الله عليه ليس إلّا أن يعيشوا ملتزمين بعهده في كافة الحقول، ومن أفضلها الجهاد في سبيل الله بأنفسهم ثم بأموالهم، ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[١] ما وجدوا للجهاد ظروفاً صالحة، ثم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قضاء نحبه ليس - فقط - انتظاراً للشهادة حيث الانتظار لها - فقط - ليس انتصاراً لقضية الإيمان، بل هو الانتصار لظرف يقضي فيه نحبه أن «يَقتُل أو يُقتل» في سبيل الله: إحدى الحسنيين!

فقد يعني «نحبه»: عهده ومراهنته إذا وجد له مكانه ومكانته، قتالاً: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أمّا ذا من جهاد في سبيل الله بنفس ونفيس إذ يقدم رخصاً دون بخس ونقص ما وجد له مجالاً!

ومن ثم يوفّون كل معاني النحب، المرافقة للعهد: نذراً وهمَّة وبرهاناً وحاجة وشدة وأجلاً ومدةً وعملاً ونفساً وسيراً سريعاً وجهاداً[٢] تكريساً لهممهم وبراهينهم في كل شدة وعمل من سير سريع وجهاد ليقضوا حاجتهم من عهدهم رَبهم ما دامت مدتهم وقام أجلهم، في نفس ونفيس بكل غال ورخيص!

فهم بين من قضى نحبه تماماً ما وجب عليه فيما عاهد عليه الله إن بالموت أو القتل أم في حياةٍ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ فرصة مناسبة لقضاء نحبه بموت أو قتل أم في حياة، فلا تختص قضاء النحب بقتل في سبيل الله مهما كان من أعلاها، فكل تضحية في سبيل الله كما تجب قضاءٌ لنحبٍ أياً كانت! وكما يروى[٣] فلا يعني قضاء النحب إلا توفية العهد وهي للمعصومين ومن

(١) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٢) لسان العرب لابن منظور الإفريقي.

(٣) نور الثقلين ٤ : ٢٥٨ ح ٤٨ عن روضة الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن محمد بن سليمان عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لأبي بصير: يا أبا محمد لقد ذكركم الله في =

معهم حاصلة قبل الموت أو القتل أو بهما، يعيشون قضاء نحبهم على أية حال!

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ ما عاهدوا الله عليه «تبديلاً» لا من قضى نحبه حين قضى ولا من ينتظر، وإنما كملوا تكميلاً، ومن الحكمة الحكيمة لذلك الابتلاء المثلث:

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾: وهم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

٢ - ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

= كتابه فقال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ...﴾ [الأحزَاب: ٢٣] إنكم وفيتم بما أخذ الله عليه ميثاقكم من ولايتنا وإنكم لم تبدلوا بنا غيرنا وفي أصول الكافي (٥٨) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: المؤمن مؤمنان فمؤمن صدق بعهد الله عزّ وجلّ ووفى بشرطه وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟...﴾ [الأحزَاب: ٢٣] وذلك الذي لا يصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة وذلك من يشفع ولا يشفع له ومؤمن كخامة الزرع - يعوج أحياناً ويقوم أحياناً فذلك ممن يصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة وذلك ممن يشفع له ولا يشفع. أقول: ولأن أفضل ما عاهدوا الله عليه هو القتل أو الموت في سبيل الله توفية كاملة للعهد فقد وردت روايات أخرى في أن قضاء النحب هو الموت أو القتل كما رواه في روضته الكافي (٤٩) عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا علي من أحبك ثم مات فقد قضى نحبه ومن أحبك ولم يمت فهو ينتظر».. وفي كتاب الخصال (٥٠) عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: ولقد كنت عاهدت الله تعالى ورسوله أنا وعمي حمزة وأخي جعفر وابن عمي عبيدة على أمر وفينا به لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فتقدمني أصحابي وتخلفت بعدهم لما أراد الله تعالى فأنزل الله فينا ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ...﴾ [الأحزَاب: ٢٣] حمزة وجعفر وعبيدة وأنا والله المنتظر يا أخا اليهود وما بدلت تبديلاً، وفي إرشاد المفيد (٥٠) في مقتل الحسين عليه السلام أن الحسين عليه السلام مشى إلى مسلم بن عوسجة لما صرع فإذا به رمق فقال: رحمك الله يا مسلم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزَاب: ٢٣] وفي كتاب مقتل الحسين لأبي مخنف أن الحسين لما أخبر بقتل رسوله عبد الله بن يقطر تغرغرت عينه بالدموع وفاضت على خديه ثم قال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ...﴾ وفي مناقب ابن شهرآشوب (٥٧) أن أصحاب الحسين بكربلاء كانوا كل من أراد الخروج ودّع الحسين عليه السلام وقال: السلام عليك يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجيبه: وعليك السلام ونحن خلفك ويقرأ ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ...﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ﴾... معلوم وهو قضية النفاق، بل ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾(١) فكيف ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؟

﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ لو تابوا وصحت توبتهم ونصحت، ولا سيما قرنائهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾(٢) حيث قرنوا بـ ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ فإنهم ذيولهم وليسوا منهم مردة النفاق ومرجفة المدينة، بل المستجيبون لهم في دعاياتهم لضعف ايمانهم، فعلّهم هم المعنيون بـ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

فآية ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾... جعلت غير الصادقين في إيمانهم منافقين أصولاً واتباعاً، ثم فرقت آية الجزاء بينهما ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٣ - ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾: قتلة ولا غلبة ولا غُنمة بل ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ فلم يقاتلوا إلا شذراً بما قتل أمير المؤمنين عمرو بن عبد ود ونفراً آخرين(٣) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾(٤) ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ وهذا نصيب الكفار ثم:

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.
(٣) في ملحقات الإحقاق ٣: ٣٧٦ روى نزول الآية في علي عليه السلام عدة من أعلام القوم منهم العلامة الكنجي في كفاية الطالب (١١٠) وأبو حيان الأندلس المغربي في البحر المحيط ٧: ٢٤ وملّا معين الكاشفي في معارج النبوة ١: ١٦٣ والسيوطي في الدر المنثور ٣: ١٩٢ والمير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ٥٥ والحافظ أبو بكر بن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة (٩٣) والألوسي في روح المعاني ٢١: ١٥٦ والقندوزي في ينابيع المودة ٩٤ وأبو نعيم الحافظ كلهم عن ابن مسعود كان يقرأ: وكفى الله المؤمنين القتال بعلي عليه السلام وساق قصة عمرو بن عبد ودّ كما فصلناه.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٩.

ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾:

المظاهرة هي المعاونة، والصياصي جمع صيصية وهي الحصن الحصين، وقد «أنزل» الله ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ المشركين ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو قريظة، أنزلهم من صياصيهم وحصونهم، وقذف في قلوبهم الرعب، فلا صياصي لهم آفاقية، ولا صياصي أنفسية حيث أنزلهم الله من كل الصياصي.

فأنتج عن ذلك الإنزال أنكم ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ من المنزلين ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

ثم ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ وطئتموها، بل ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ وهي أرض خيبر، أو التي أفاء الله على رسوله منهم مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب.

وقد يعني ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ كل أرض يرثها المسلمون منهم على طول خطوط النار، في جهادهم المتواصل الصارم! ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

هذه الآيات الثمان تستعرض بُعدين وجانبين من بيت النبي الطاهر، بيت الرسول: أزواجه، وبيت الرسالة: المحمديين المعصومين في جو الرسالة

القدسية الختمية، اختصاراً باختصار في عرض بيت الرسالة والتعريف به: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] في جمعين مذكرين يعنيان الذُّكران من أهل بيت الرسالة بمن فيهم فاطمة الصديقة عليها السلام، وذلك بعد عشرين خطاباً في جموع مؤنثة قبله واثنين بعده كلها تعني - فقط - نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أوامر ونواهي أكيدة شديدة متهددة ومرغبة، ولكي تجمع إلى طهارة أهل بيت الرسالة - وهي القمة بين بيوتات الرسالات - تجمع طهارة أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ثم الآية الثامنة تعميم لأجور المؤمنات حسب الدرجات سواءٌ أكن من ازواج النبي أم سواهن ولكي تبين ألّا ميِّزة لزوجية النبي بمفردها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2].

مضت آية الأمهات مصرحة أنهن أمهات المؤمنين، ولأن هذه الكرامة لها تكاليفها، ولزوجية النبي صلى الله عليه وآله وسلم تكلفاتها الوقائية، لذلك يُخاطبن في اثنين وعشرين خطاباً صارماً تختص بهن ليصنعن من أنفسهن أهلية زوجية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمومة المؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾:

هنا نساء النبي يخاطبن بوسيط النبي صلى الله عليه وآله وسلم علّه لبُعدهن عن ساحة الربوبية وإلّا فلماذا إرادة الحياة الدنيا في بيت الرسالة القدسية، ثم المأمور بأمرهن هو وليهن في بُعدي الرسالة والزوجية.

ثم ولقربهن شيئاً مّا إذ يتركن الحياة الدنيا وزينتها، ولتقريبهن إلى ساحة الطاعة لكي يَهَبن الله إذ يخاطبهن الله، يخاطَبن دون وسيط إلّا نقلاً لهن

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.

بالوحي، في سائر الخطابات الاثنين والعشرين: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ... وَٱذۡكُرۡنَ ... فِي بُيُوتِكُنَّ﴾....

يرجع الرسول ﷺ من غزوة خيبر مصيباً كنز آل أبي الحقيق فيقلن أزواجه له: أعطنا ما أصبت، فيقول لهن: قسمة بين المسلمين على ما أمر الله، فيغضبن من ذلك ويقلن له: لعلك ترى أنك إن طلقتنا ألّا نجد الأكفاءَ من قومنا يتزوجونا، فأنف الله عزّوجلّ لرسوله فأمره أن يعتزلهن فاعتزلهن في مشربة أم إبراهيم تسعة وعشرين يوماً حتى حضن وطهرن ثم أنزل الله آية التخيير هذه فقامت أم سلمة أمن هي؟ فقالت: قد اخترت الله ورسوله، فقمن كلهن فعانقنه وقلن مثل ذلك فأنزل الله عزّوجلّ : ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾...[1].

وهكذا نتلمَّح من ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ دون «بعض أزواجك» أنهن كلهن تشاركن في إزعاجه فانزعاجه ﷺ حتى نزل ما نزل وحصل ما حصل.

مجموعة حلائل النبي ﷺ كن سبع عشرة، دخل بهن أجمع إلا عمرة

(١) روى أصحابنا أنها أم سلمة كما أخرجه القمي في تفسيره على ما في المتن وروى إخواننا أنها عائشة كما في الدر المنثور بعدة طرق ففي نور الثقلين ٤ : ٢٦٦ عن المجمع روى الواحدي بالإسناد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ جالساً مع حفصة فتشاجرا بينهما فقال لها: هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلاً؟ قالت: نعم فأرسل ﷺ إلى عمر فلما أن دخل بينهما قال لها: تكلمي قالت يا رسول الله تكلم ولا تقل إلا حقاً فرفع عمر يده فوجأ وجهها فقال له النبي ﷺ: كف فقال عمر: يا عدوة الله النبي لا يقول إلّا حقاً والذي بعثه بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتي فقام النبي ﷺ فصعد إلى غرفة فمكث فيها شهراً لا يقرب شيئاً من نسائه يتغدى ويتعشى فيها فأنزل الله هذه الآيات.
وفيه ص ٣٦٥ ح ٦٦ بإسناده عن أبي الصباح الكناني قال ذكر أبو عبد الله عليه السلام أن زينب قالت لرسول الله ﷺ: لا تعدل وأنت رسول الله ﷺ وقالت حفصة: إن طلقتنا وجدنا أكفاءنا من قومنا...
أقول: مهما اختصت البعض من نسائه بالبعض من هذه الأقاويل فالقولة المشتركة علّها الأخيرة «إن طلقتنا»...

والسيفا وفيهن سريتان: مارية القبطية وريحانة الخندقية، كان يقسم لهما مع أزواجه. ولم يجمع قط إلّا بين تسع منهن فاعتزل ﷺ حين اعتزل عنهن ومات كذلك عنهن وأفضلهن خديجة ثم أم سلمة ثم ميمونة[١] وأرذلهن من حاربت وصيّه يوم الجمل!.

لقد خيرهن بعد نزول آية التخيير بين المقام معه إن يردن الله ورسوله، أو الانسراح عنه إن يردن الحياة الدنيا وزينتها، حيث اختار لنفسه وأهله معيشة الكفاف وعيشة العفاف دون زهوٍ ولهوٍ بتبذير أو إسراف، لا عجزاً عن حياة المتاع والزينة، وإنما زهداً عادلاً كقدوة للأمة.

إلا أن نساءه ﷺ يتطلَّبن منه زهوة وزهرة كما هي شيمة النساء، وليس الرسول يميل إلى ميولهن فيزدهي بزهوهن ويشتهي ما يشتهين، ولا سيما في الأموال التي هي لعامة المسلمين، وكذلك في أمواله الشخصية، ولذلك يعرض عنهن بعد عرضهن طلب الحياة الدنيا وزينتها واعتراضهن عليه، يعرض نظرة الوحي فتنزل آية التخيير فيخيرهن بين هذه وتلك.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٦٧ ح ٧٤ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: تزوج رسول الله ﷺ بخمس عشرة امرأة ودخل بثلاث عشرة امرأة منهن وقبض عن تسع فأما اللاتي لم يدخل بهما فعمرة والسيفا وأما الثلاث عشرة اللاتي دخل بهن (١) فأولهن خديجة بنت خويلد (٢) ثم سودة بنت زمعة (٣) ثم أم سلمة واسمها هند بنت أمية (٤) ثم أم عبد الله عائشة بنت أبي بكر (٥) ثم حفصة بنت عمر (٦) ثم زينب بنت خزيمة بنت الحارث أم المساكين (٧) ثم زينب بنت جحش (٨) ثم أم حبيب رملة بنت أبي سفيان (٩) ثم ميمونة بنت الحارث (١٠) ثم زينب بنت عميس (١١) ثم جويرية بنت الحارث (١٢) ثم صفية بنت حيي بن أخطب (١٣) والتي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم السلمي وكان له سريتان يقسم لهما مع أزواجه مارية القبطية وريحانة الخندفية والتسع اللاتي قبض عنهن عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب بنت جحش وميمونة وأم حبيب وجويرية وسودة وأفضلهن خديجة ثم أم سلمة ثم ميمونة أقول وفيه عن الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال في طوائف هؤلاء النسوة - ٤ - من تيم و - ٥ - من عدي و٣ - من بني مخزوم و- ٢ - من بني أسد و- ٨ - من بني أمية و- ٩ - من بني هلال و- ١٢ - من بني إسرائيل ولم يذكر البقية وطبعاً خديجة من أفضل قريش، وتفرق هذه الطوائف من الدليل على أن زواجاته كانت سياسية أكثر مما هي جنسية.

أترى كان عرض التخيير، أمامهن كلهن فاخترن الله ورسوله؟ أم أمام أم سلمة فتبعنها كلهن؟ أم أمام عائشة؟ وقد يروى أنها تطلَّب منه ﷺ اختصاصها فقال: «إن الله لم يبعثني متعنتاً ولكن بعثني معلماً مبشراً لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها»؟[١].

إنه ﷺ على أية حال لم يكن ليخرج عن العدل بين نسائه حتى في ذلك العرض دون فرق بين عائشتهن وأم سلمتهن، اللهم إلّا بفارق التقوى، دون تقديم لتلك بشبابها وجمالها على هذه أمّن هي لتقدمها عمراً أو تأخرها جمالاً!.

ويا له من عرض عريض بين عليا الحياة معه ﷺ ودنيا الحياة لا معه ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ في بيت الرسالة القدسية، تغافلاً عن أصل الحياة الزاهرة الباهرة في جوّ الوحي، والتنزيل، أو تذرُّعاً بها إلى الحياة الدنيا وزينتها، فلا جمع بين الحياتين مع النبي ﷺ ولا اختصاصاً بالحياة الدنيا، إلّا إرادة الله ورسوله، فـ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾...[٢].

وكيف لهؤلاء موقع في بيت الرسالة القدسية؟ ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ بما يجب محبوراً ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ فكاً عن أسركن إذ لا تجدن ما تُردن

(١) الدر المنثور ٥: ١٩٤ - أخرج بعدة طرق عن جابر وساق القصة الطويلة إلى قوله: وأنزل الله الخيار فبدأ بعائشة فقال: إني ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك قالت: ما هو؟ فتلا عليها الآية قالت عائشة: أفيك أستأمر أبوي بل اختار الله ورسوله فأسألك أن لا تذكر إلى امرأة من نسائك ما اخترت فقال: إن الله..

وفي نقل آخر فاكتم علي ولأحجز بذلك نساءك قال ﷺ بل أخبرهن به فأخبرهن رسول الله ﷺ جميعاً فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة فكان خياره بين الدنيا والآخرة أتخترن الآخرة أو الدنيا...؟

(٢) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

في ذلك البيت، فليس الطلاق إسلامياً إلّا فكاً عن أسر، من الجانبين أو من جانب واحد، فيسرح المفكوك زوجاً أم زوجة ويرتع حيث يشاء و﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ كلمة صُراح في سماح انطلاقهن بطلاقهن إلى اختيار الأزواج، ففي تسريحهن - إذاً - تطليقهن عن كونهن أمهات المؤمنين، كما عن كونهن أزواجه، فقضية السراح هي الانسراح عن قيود زوجيته إلى أخرى، وقضية أنه جميل استئصال كافة العقبات عن زواجهن الأخرى كسائر المطلقات، فلو بقي بعد طلاقهن كونهن أمهات المؤمنين، فلا سراح لهن فضلاً عن جميل، والله تعالى يقول: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾(١) تنديداً بمن يظلمهن هكذا، لا ذات بعل ولا خلية تتبعل، وساحة النبي أقدس وأحرى ألّا يذرهن بتسريحهن كالمعلقات.

وأما موته عنهن دون طلاق فليس سراحاً فضلاً عن جميل، وهن بعده أمهات المؤمنين، إلّا إذا تخلفن عن شروطاتها كما تخلف البعض منهن وهُدِّدت بالطلاق، إطلاقاً في الأزواج.

فكما النكاح في ميزان الله متاعٌ، كذلك الطلاق متاعٌ وسُراحٌ جميل، عقد جميل وفكٌّ جميل دونما عراك واحتكاك في ذلك الفكاك.

ليس النبي ليقبل ضغطاً عليه وتحميلاً في الحياة الدنيا وزينتها، وليس ليُضغِط أزواجه على بساطة العيشة في الحياة كأبسط ما تكون، أسراً لهن خلاف ما يردن ويرغبن، لذلك فليخيِّرهُنَّ ويقبل منهن ما يخترن.

وليس ليقبل النبي الأقدس من أبي بكر وعمر أن يضربا عائشة وحفصة على هذه المراجعة النكدة في النفقة، حيث المسألة مسألة مشاعر وميول بشرية وطلبات طبيعية نسائية، دون تسيير لهن على خلاف ميولهن، وإنما مسايرتهن ما لا يمس من كرامة بيت النبوة، ثم تخييرهن كما خيِّر، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٩.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾:

وإنه ليس الأجر العظيم إلّا للمحسنات منهن بعد ما أردن الله ورسوله والدار الآخرة، فهناك إرادة الإحسان وهنالك تحقيق الإحسان، وليست الإرادة لتكفي ما لم يتحقق المراد بالحسنى، ثم العاقبة الحسنى بمواصلة الإحسان في إرادة الله ورسوله، وأما اللاتي يردن الله ورسوله والدار الآخرة بُغيةَ البقاء في بيت النبي ﷺ ثم لا يُحسنَّ كما يناسب ذلك البيت، ومن ثم يحاربن في حرب الجمل أما ذا؟ وصيه الطاهر. فهن بعيدات من الأجر فضلاً عن عظيمه، وأبعد من العامرية التي اختارت قومها!.

ثم الإحسان في جو الوحي والتنزيل أفضل أجراً من سواه كما الإساءَة أرذل وأنكل، حيث البعد الثاني لكلا الإحسان والإساءَة راجع إلى إحسان هذا البيت وإساءَته بين الناس، فعلى مستوى عُظم ذلك البيت يعظم أجر الإحسان وعذاب الاساءَة، وهذه قاعدة عادلة سارية في أبعاد الأفعال خيراً أو شراً، وكما تواتر عن النبي ﷺ في من سن سنة حسنة أو سيئة.

وهل التسريح هنا هو التطليق رجعيّاً أم بائناً، فمن تختار الحياة الدنيا يطلقها بصيغة؟ أم أن اختيارهن لها طلاقٌ؟ التسريح صريح أنه فعلٌ من النبي إن اخترن الحياة الدنيا، فليس اختيارهن إذاً بنفسه طلاقاً، وليس التسريح - فقط - صيغة لفظية للطلاق، إلّا أن تسريح كل شخص بحسبه ولا نعرف تسريحاً إسلامياً للأزواج إلّا بالتطليق، إلّا أن يختص النبي ﷺ بتطليق دون لفظ كما في نكاح ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] إلّا أنهما لا تثبتان طلاقاً أو نكاحاً دونما صيغة، بل «لو اخترن أنفسهن لطلقهن»[2].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٠.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢٦٥ عن الكافي حميد عن ابن سماعة عن ابن رباط عن عيص بن القاسم عن=

وهل المسرَّحة هكذا تنسرح بحيث يحل لها الزواج بغيره؟ وهن أمهات المؤمنين!: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾(١)! ولكنما الحياة الدنيا وزينتها والسراح الجميل قد تتنافى وحرمان الزواج وهو من أمتع مُتع الحياة وزينتها ومن أجمل السراح! فقد يكون تسريحهن هكذا تطليقاً عن كونهن أمهات المؤمنين وكما خول علي عليه السلام بتطليقهن أن خرجن عن طور الطاعة له صلى الله عليه وآله وسلم كما يحق وقد مضى حديثه عن القائم المهدي عليه السلام ومن هنا نتبين على أية حال أن «لو اخترن أنفسهن لَبِنَّ»(٢) دونما رجعة حيث الأمر قاطعٌ لا مردَّ له من الله: ﴿قُل ... فَتَعَالَيْنَ ... وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ فليُسرِّح من اختارت الدنيا دونما رجعة، اللهم إلّا رجوعاً إلى الله ورسوله فرجعة بعقد جديد ولا دليل عليه!

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾:

ولماذا في قصة التخيير ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ ثم هنا والتي بعدها ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾؟ علّه حيث الأولى يخص أزواجه والأخريان تشملان معهن بناته وكل امرأة تعيش في جوّ الوحي مرتبطة به نسباً أو سبباً فهما بأحرى يشملان الصديقة الزهراء عليها السلام أن يؤتاها أجرها مرتين ويعتد لها رزقاً كريماً!

= أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن رجل خيّر امرأته فاختارت نفسها بانت؟ قال: لا - إنما هذا شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاصة أمر بذلك ففعل ولو اخترن أنفسهن لطلقهن.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(٢) نور الثقلين (٦٥) حميد عن ابن سماعة عن محمد بن زياد وابن رباط عن أبي أيوب الخزاز قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام إني سمعت أباك يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيّر نساءه فاخترن الله ورسوله فلم يمسكهن على طلاق ولو اخترن أنفسهن لبِنَّ؟ فقال: إن هذا حديث كان يرويه أبي عن عائشة وما للناس والخيار إنما هذا شيء خص الله به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذه ضابطة عامة في الأعمال خيراً وشراً، أن يُنظر إليها من بعدين: نفس العمل، ومن يرتبط به أياً كان، في خير أو شر من غير العامل، وأعظم رباط للعاملين هو الواقع في جو الوحي، ثم وما دونه من أجواء، يذكر هنا أفضلها لنجعله نبراساً ينير الدرب على ما دونه، كلٌّ بحسبه.

وإذا كان هذا موقف نسائه ﷺ فبأحرى بنته الزهراء عليها السلام وعلي عليه السلام والأئمة من ولدهما عليهم السلام من عترته وكما يروى عن زين العابدين عليه السلام: «نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجر الله في أزواج النبي من أن نكون كما تقول، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ولمسيئنا ضعفين من العذاب»[1].

وقد عد الرسول ﷺ أزواجه في هذه الميِّزة من «أربعة يؤتون أجرهم مرتين»[2] دون اختصاص بهن، فإنما الميزة للأقرب فالأقرب صلة ومكانة، وهما في عترة النبي ﷺ أقرب قرابة ومحتداً!

فمضاعفة العذاب هنا هي تبعة المكانة الكريمة من النبي ﷺ كما مضاعفة الأجر فإنها تابعة لنفس المكانة، تُقدَّران بقدرها في المنسوب والمنسوب إليه، ولا أكرم من الرسول ﷺ ولا أقرب من أهله الذين يعيشون جوَّ الوحي!

والفاحشة هي المعصية الفاحشة، متجاوزة حدها أم إلى غير العاصي أم تجمعهما، ثم الفاحشة قد تكون مبينة متجاهرة ولا تبين إلّا نفسها، وقد

---

(١) نور الثقلين ٤: ٢٦٨ ح ٧٧ في مجمع البيان وروى محمد بن أبي عمير عن إبراهيم بن عبد الحميد عن علي بن عبد الله بن الحسين عن أبيه عن علي بن الحسين زين العابدين أنه قال رجل: إنكم أهل بيت مغفور لكم قال فغضب وقال: نحن... وفي الدر المنثور ٥: ١٩٦ - أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عليه السلام يجري أزواجه مجرانا في الثواب والعقاب.

(٢) المصدر أخرج الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: أربعة يؤتون أجرهم مرتين منهم أزواج رسول الله ﷺ وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في الآية قال: إن الحجة على الأنبياء أشد منها على الأتباع في الخطيئة وأن الحجة على العلماء أشد منها على غيرهم فإن الحجة على نساء النبي ﷺ أشد منها على غيرهن...

تكون مبيِّنة تبين معها موقف صاحبها ومن يتصل بهم بطبيعة الحال، وهنا ﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ كالأخيرة لا فقط «مبيَّنة» إذاً فهي التي تبيّن موقف صاحبها أنها منه كما تتراوش من كوز، لا فلتةٌ غير قاصدة، كما وتبين ما يستحقه من العقاب عليها.

ثم وليست الفاحشة لتختص بالشذوذات الجنسية وهي من الخبيثات النسائية بعيدة عنها ساحة الرسالة القدسية حيث ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾[١] مهما كانت للبعض من نساء الأنبياء فاحشة الكفر كما قبل الإسلام بسائر فسقه إلّا الزنا.

فمن «الفاحشة الخروج بالسيف»[٢] على وصي النبي ﷺ فإنه خروج على نفس النبي ﷺ وما أفحشها من فاحشة، وكما خرجت عائشة يوم الجمل على وصي الرسول ﷺ وخرجت زوجة موسى على وصيه حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة[٣].

إن حرب عائشة زوجة النبي ﷺ وحرب صفيراء زوجة موسى عليه السلام مع وصييهما هي من الفاحشة المبيِّنة، خروجاً عن بيت النبوة، وخروجاً على بيت النبوة، ولا أفحش من هذه الفاحشة مبيِّنة مدى التخلف العارم على صاحب الرسالة الإلهية، والله يقول ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾...!

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٦.

(٢) نور الثقلين ٢٦٨ في تفسير علي بن إبراهيم بإسناد عن حريز قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٠]... قال عليه السلام: الفاحشة الخروج بالسيف، أقول وهو من التفسير بأفحش مصاديق الفاحشة.

(٣) نور الثقلين ٤: ٢٦٨ ح ٧٨ في كتاب كمال الدين وإتمام النعمة بإسناده إلى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ حديث طويل يقول فيه عليه السلام: إن يوشع بن نون وصي موسى عليه السلام عاش بعد موسى ثلاثين سنة وخرجت عليه صفيراء بنت شعيب زوجة موسى عليه السلام فقالت: أنا أحق منك بالأمر فقاتلها فقتل مقاتليها وأحسن أسرها وان ابنة أبي بكر ستخرج على عليّ في كذا وكذا ألفاً من أمتي فيقاتلها فيقتل مقاتليها ويأسرها فيحسن أسرها وفيها أنزل الله تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] يعني صفيراء بنت شعيب.

وترى أن مضاعفة العذاب ضعفين هي ضعفين على أصل العذاب فهي إذاً ثلاثة أضعاف؟ والأجر الذي هو قضية الفضل أحرى بذلك من العذاب العدل وهو «مرتين»! إذاً «فضعفين» هما «مرتين» حالاً من العذاب، عذاباً وثواباً على سواء، والمضاعفة هي الزيادة قلّت أو كثرت، من مرتين إلى ما شاء الله، وهي هنا ضعفين، فالضعف هو الزيادة دونما تحديد و﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾(١) وأقل الضعف لهم عشرة ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(٢) ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(٣) وكما لمن جاء بالسيئة ضعف في مضاعفتها: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾(٤) ومعلوم أن ضعف المضلَّل أضعف من ضعف المضلِّل وكلٌّ ضعف!..

ومن ثم الأضعاف تعني المرات من ثلاث فما فوقها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾(٥) أي: مرات مزيدة على الأصل ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾...(٦).

إذاً فمضاعفة الضعفين من العذاب هي الزيادة المثلين لا زيادة مثلين على أصل العذاب، وكما الأجر مرتين: عذاب أو أجر، للفاحشة أو القنوت، نفسه في حساب الفاعل، وآخر تخجيلاً أو تبجيلاً لجو الوحي والتنزيل جزاءً وفاقاً أو عطاءً حساباً.

هنالك فاحشة مبينة فعذاب ضعفين ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ وليس عليه عذابهن عسيراً تمنعه عنه مكانتهن من الرسول حيث الرسول نفسه أيضاً

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٣) سورة ق، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

مـهـدد: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

وهنـاك قنـوت لله ورسولـه ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ خضوعاً لله عبودية ولرسوله طاعة وعملاً يصلح لذلك الخضوع، صالحاً لجوّ الوحي والتنزيل ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ وزيادة هنا لأنه قضية الفضل: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ دونما هناك حيث العذاب قضية العدل فهو عِدل للفاحشة دونما ربوة. أترى إن كن عواناً بين ذلك، لا فاحشة مبينة ولا قنوت لله ورسوله، فهلّا يكون هنالك أجرٌ ولا عذاب؟

أجل! ولكنه لا ضعف في عذابهن ولا أجرهن، حيث البعد الثاني من العصيان والطاعة عادم فثاني الأجر والعذاب كذلك عادم ومثلهن إذاً كسائر النساء على سواء، فلا كرامة إلا بالتقوى ولا مهانة إلا بالطغوى، أياً كانت الطغى وإن زوجة النبي، وأياً كانت التقى وإن زوجة فرعون الشقي ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾[2].

ثم وليست مضاعفة الثواب والعقاب لنساء النبي إلّا للبُعد الثاني من الطاعة والعصيان، دون رعاية للصلة بالنبي، وإلّا فلا عقاب أم تخفيفاً من العذاب كضعف الثواب.

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.

(٢) سورة التحريم، الآيات: ١٠-١٢.

وترى أن مضاعفة العذاب في الفاحشة المبينة تخص الآخرة؟ أم تعم الأولى والآخرة؟ العموم قضية إطلاق العذاب، فالفاحشة التي فيها الحدّ يضاعف لهن حدّها في الأولى كما في الأخرى إلّا أنه يخص الفاحشة المبيِّنة، لا كل فاحشة ولا المبيّنة دون تبيين وقوفاً عند النص فيما يشذ عن القاعدة تأمل.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾:

إنه ليس ارتفاع المساواة بين نساء النبي وسائر النساء لأنهن نساء النبي، بل «إن اتقيتن» كما وليس النبي ﷺ كأحد من الرجال لنبوته.. أنتن في مكانة لا يشارككن فيه أحدٌ من النساء، ولا تشاركن فيها أحداً من النساء ولكن «إن اتقيتن» فليست المسألة مجرد قرابة من النبي بسبب أو نسب اللّهم إلّا حسب التقوى وسببها ونسبها، فالتقوى تقوى إن كانت في مكانة عليا ومحتد أقوى كما الطغوى تقوى على سواء، فلا بد من القيام بحق هذه القرابة العليا، وهو القائل: «يا فاطمة ابنة محمد! يا صفية ابنة عبد المطلب! يا بني عبد المطلب! لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم»[1].

وهل الأوامر والنواهي التالية تخصهن لاختصاص خطاباتها لهن؟ و«إن اتقيتن» تعم كل تقوى واجبة وراجحة من كل متقية منهن وسواهن! وموارد الأمر والنهي هنا لا تخصهن! فإنما التقوى لهن تخرجهن عن مساواتهن لسواهنّ دون واجبات أو محرمات تختصهن، وليست المذكورة إلّا عامة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ويروي المسلم والترمذي أيضاً قوله ﷺ: «يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار! يا معشر بني كعب انقذوا أنفسكم من النار! يا معشر بني هاشم انقذوا أنفسكم من النار! يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار! فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها».

لكافة المسلمين دون اختصاص بهن، فالآية تشجيع لهن على أصل التقوى وإذاً ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾!

تقوى في القول سلبياً ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ وإيجابياً ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾!

ينهاهن حين يخاطبن غير ذوي الأرحام عن أن يكون في أقوالهن خضوع له نبرة مثيرة، ولينة مغيرة، خضوعاً في موسيقا التعبير، أم ما يحمله من معنى مثير، فواويلاه إذ أجمعا في عبرة القول ونبرته وضحكته! ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾: الشهوة الكامنة حيث تظهرها القولة الخاضعة، فلتكن قولة مخضعة أم لأقل تقدير لا خاضعة ولا مخضعة، لا في موسيقاها ولا في معناها.

للمرأة قولات ثلاثة: ١ - خضوع - مثير بأي من أبعاده. فمحظور ٢ - لا خضوع ولا كبرياء فغير محظور، ٣ - وإخضاع بكبرياء في قول تطوي نسائية الصوت ولطافته طياً فمحبور مشكور، فتقوى واجبة في قولهن عدم الخضوع، ومن ثم راجحة هي إخضاع والقول المعروف هو المعروف عن مسلم حِلًّا في جنباته، ثم المعروف عن مؤمنة حلاً منها مع غير المحارم، ثم المعروف عن أهل النبي فهو إذاً مثلث المعروف وأقله ألّا يكون فيه ما يحرم من مؤمنة لغير محرم!

صحيح أنهن كأزواج النبي وأمهات المؤمنين ليس ليطمع فيهن طامع، ولكن المرض في قلوب مقلوبة يُستثار، قلوب مريضة بالشهوات دونما عفاف، أم ومريضة بنفاق أم نقصان في إيمان، مهما سلمت القلوب السليمة بإيمان وعفاف على ما فيها من شهوة، فإنها ليست ككل مرضاً فإن الله خلقها في كل مؤمن ومؤمنة، وفي النبيين، وإنما يُخاف ممن لا يعفُّ شهوته.

وإذا كن نساء النبي ﷺ على ما هن عليه من المكانة، في ذلك الزمن البدائي البسيط هن يُنهين عن الخضوع في القول، فكيف بهذا المجتمع الذي

نعيشه اليوم، المتقدمة فيه الشهوات، المرفوفة على جوّه الأطماع، المسعَّرة فيه السعارات المحمية الجنسية، فأحرى بالمؤمنات إذاً ألا يخضعن بالقول أو يَبرزن في أية صورة مثيرة، فإنها مثار الفتنة.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾....:

﴿وَقَرْنَ﴾ هل إنها أمر بالوقار؟ وأمره «قرن»! والوقار واجبهن على أية حال، وبأحرى خارج بيوتهن وهنا ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾! وقضية الموقف في سرد أوامر ونواهٍ، هي العطف كما في سائرها!

فهي إذاً «قَرن» عطفاً، فهل بعدُ من قار يقار إذا اجتمع؟ ولا موضوعية في جمعهن في بيوتهن إلّا قرارهن جماعات أو فرادى! وأمرها «اقررن»! اللهم إلّا بحذف الحرفين تخفيفاً كما في أضرابها فنعماً، ولكنها معنوياً غير مناسبة فكلّا!

أم إنها من قرَّ يَقَرُّ؟ وأمرها «اقررن» فكذلك الأمر إلّا في المعنى، فإنه أمر بقرارهن في بيوتهن، ومن دناءة المرأة كونها لَفوتاً تكثر الخروج من بيتها دون ضرورة تُلجئُها، وهذا يناسبها في أدب اللفظ وجمال المعنى، والأول يخالفهما، والأوسط يخالف المعنى، والقرآن حمال ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه وهو ثالثها.

يقرر هذا الأمر لهن أصل قرارهن في بيوتهن، فإن أشغالهن في الأكثرية الساحقة أشغال بيتية، كُفين عما سواها بمعونة الرجال مؤونات أما هي؟.

فلا يعني تحريم خروجهن عن بيوتهن اللهم إلّا تبرجاً كالجاهلية الأولى، فلو كان عطفاً لكان «ولا تخرجن» في تبرج وسواه، فإنما نهين عن تبرج الجاهلية الأولى:

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ احتشاماً في خروجهن إذا لزم الأمر

أو رجح، بتحجُّب يناسب حرمة النبي ﷺ والتبرج هو تكلف في الظهور كالبرج المظاهر لكل ناظر، تكلفاً في إظهار زينتهن الستيرة تحت ملابسهن، وتكلُّفاً في تزيُّن زائد على الذاتية النسائية فيهن، في عطرة تجلب، أو مشية تجذب، أو صوتة تُطمع، أو غنجة تثير، أمّا ذا من تظاهر نسائي يعطف إليهن أنظار الرجال الأجانب ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾!

البيت ستر أوّل للنساء، ثم إخفاء الزينة وكل جاذبية نسائية ﴿إِلَّا مَا ظَهَـرَ﴾[1] وتهدُّر بطبيعة الحال دونما تبرج.

«كانت عائشة إذا قرأت: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ بكت حتى تبل خمارها»[2] وهل كانت تبكيها وطأة الأمر الشاق؟ وليس قرار البيت إلّا راحة للمرأة واحتشاماً! أم كانت تبكيها لأنها أضمرت خروجها يوم الجمل؟ فعلوها فإنا لا ندري إلّا خروجها يوم الجمل تخلفاً عن أمر ربها على إمامها![3].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٩٦ - أخرج ابن أبي شيبة وابن سعد وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر عن مسروق قال: كانت عائشة...

(٣) نور الثقلين ٤: ٢٦٩ ح ٨٢ في بصائر الدرجات أحمد بن محمد والحسن بن علي بن النعمان عن أبيه عن علي بن النعمان عن محمد بن سنان يرفعه قال: إن عائشة قالت: التمسوا لي رجلاً شديد العداوة لهذا الرجل (تعني علياً عليه السلام) أبعثه إليه قال: فأتيت به فمثل بين يديها فرفعت إليه رأسها فقالت له: ما بلغ من عداوتك لهذا الرجل؟ فقال لها: كثيراً ما أتمنى على ربي أنه وأصحابه في وسطي فضربت ضربة بالسيف فسبق السيف الدم، قالت: فأنت له اذهب بكتابي هذا فادفعه إليه ظاعناً رأيته أو مقيماً، أما أنك إن رأيته رأيته راكباً على بغلة رسول الله ﷺ متنكباً قوسه معلقاً كنانته بقربوس سرجه وأصحابه خلفه كأنهم طير صواف قال: فاستقبله راكباً كما قالت فناوله الكتاب ففض خاتمه ثم قرأه فقال: تبلغ إلى منزلنا فتصيب من طعامنا وشرابنا ونكتب جواب كتابك؟ فقال: هذا والله ما لا يكون، قال: فسار خلفه فأحدق به أصحابه ثم قال له: أسألك قال: نعم قال: وتجيبني؟ قال: نعم قال: نشدتك بالله هل قالت: التمسوا لي رجلاً شديد العداوة لهذا الرجل فأتى بك فقالت لك: ما بلغ من عداوتك لهذا الرجل؟ فقلت: كثيراً ما أتمنى على ربي أنه وأصحابه في وسطي وأني ضربت ضربة سبق السيف الدم؟ قال: اللهم نعم! قال: فنشدتك الله هل قالت لك: اذهب بكتابي=

﴿وَقَرْنَ . . وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾!؟ كما وقرن ولم يتبرجن[١].

ولماذا تخرج المرأة من بيتها؟ ألما تعنيها من تحصيل النفقة إذ تعانيها؟ وهي من واجبات الرجال! أمّا ذا من واجبات خارج البيتية؟ وهي كلها موضوعة عنها موضوعة على الرجال، تخفيفاً عنهن واحتشاماً لهن وحفاظاً على حرماتهن!.

للرجال رجولة الأشغال وهي في فسحة خارج البيتية، وللنساء أنوثة الأشغال وهي داخل البيتية، فعلى كلٍّ تقديم واجبه، وفي معاكسة الأشغال أم خروج المرأة لتعمل مع الرجل، كارثة على البيت لا تجبر، اللهم إلّا في الضرورات التي تبيح المحظورات، وبيت المال يضمن مجالاتها الاقتصادية للرجال فضلاً عن النساء اللاتي ليس لهن من ينفق عليهن، أو عمل في البيت أو مثله في الحفاظ عليها!

= هذا فادفعه إليه ظاعناً كان أو مقيماً أما أنك إن رأيته رأيته راكباً على بغلة رسول الله ﷺ متنكباً قوسه معلقاً كنانته بقربوس سرجه أصحابه خلفه كأنهم طير صواف فتعطيه كتابي هذا؟ قال: اللهم نعم قال: فنشدتك الله هل قالت لك: إن عرض عليك طعامه وشرابه فلا تناولن منه شيئاً فإن فيه السحر؟ قال: اللهم نعم قال: فتبلغ عني؟ قال: اللهم نعم فإني قد أتيتك وما في الأرض خلق أبغض إليّ منك وأنا الساعة ما في الأرض خلق أحب اليّ منك فمرني بما شئت قال: ارجع إليها بكتابي هذا وقل لها: ما أطعت الله ولا رسوله حيث أمرك بلزوم بيتك فخرجت ترددين في العساكر وقل لهم: ما أنصفتم الله ولا رسوله حيث خلفتم حلائلكم في بيوتكم وأخرجتم حليلة رسول الله ﷺ قال فجاء بكتابه فطرح إليها وأبلغها مقالته ثم رجع إليه فأصيب بصفين فقالوا: ما نبعث إليه بأحد إلا أفسده علينا.

(١) الدر المنثور ٥: ١٩٦ - أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن سيرين قال نبئت أنه قيل لسودة زوج النبي ﷺ ما لك لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت وأمرني الله أن أقر في بيتي فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت قال: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت بجنازتها وفيه أخرج أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع هذه ثم ظهور الحصر قال: فكان كلهن يحججن إلا زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة وكانتا تقولان: والله لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ.

واجب النفقة أماذا من أشغال خارج البيتية يتيح للزوجة والأم من الجهد ومن الوقت وهدوء البال ما تشرف على الفراخ الناشئة، فالأم الكادحة المكدودة بالعمل لتحصيل النفقة، المقيدة بمواعيد العمل، ليست لتعطي للبيت واجبه التربوي، فبيوت العاملات والموظفات هي كالفنادق والخانات وأتعس منها وأركس، حيث الناشئة المحتاجة إلى تربية الأم تتهدر فيها، ولا ينوب أمها غيرها من مربين أو مربيات!

فأما أن تخرج المرأة لغير العمل، بل للاختلاط بالرجال والاشتغال بالملاهي أماذا من لهوات وشهوات فهو الارتكاس إلى حماة الحيونات ودَرك الجاهليات التي ترد الإنسان إلى مراتع الحيوان!

يقول الرسول ﷺ: «إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في بيتها»[١] كما و«جئن إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله ﷺ: ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله فما لنا عمل ندرك فضل المجاهدين في سبيل الله؟ فقال ﷺ: من قعدت منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله»[٢]. وقال ﷺ: «شر النساء المتبرجات وهن المنافقات لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم»[٣].

التأكيد في قعودهن في بيوتهن أمر إرشادي للحفاظ على العفاف وعدم التبذل أمام الرجال، وأما إذا خرجن غير متبرجات بزينة، متعففات، فما

---

(١) المصدر أخرج الترمذي والبزاز عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال:...

(٢) المصدر أخرج البزاز عن أنس قال: جئن النساء...

(٣) المصدر أخرج البيهقي في سننه عن أبي أذينة الصدفي أن رسول الله ﷺ قال:... وفيه أخرج الطبراني عن ابن عباس قال لما بايع النبي ﷺ النساء قال: لا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى قالت امرأة: يا رسول الله ﷺ أراك تشترط علينا ألا نتبرج وأن فلانة قد اسعدتني وقد مات أخوها فقال رسول الله ﷺ: اذهبي فاسعديها ثم تعالي فبايعيني.

عليهن من سبيل ولا سيما في محاويجهن المادية والمعنوية فراجح أو واجب، ولقد كن يخرجن زمن الرسول ﷺ للصلاة وتمريض جرحى الجهاد أمّا ذا من متطلبات راجحة وواجبة ولكن في غير تبرج وتظاهر بمفاتنهن، بل متعففات متحجبات، وقد «كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يُعرفن من الغلس»[1].

ولو كان خروجهن ممنوعاً لما أمرن بالحجاب، فإنه سترة عن الرجال الأجانب، والآية تنهى عن التبرج بعد الأمر بقرارهن في بيوتهن، فليس خروجهن غير متبرجات تحت النهي ولا تحت الأمر، فهو إذاً مسموح كفرع يستثنى عن أصل قرارهن في بيوتهن لراجح أو واجب أم مباح!.

هنالك المنعة عن تبرج الجاهلية الأولى، مما تلمح بتبرجة أخرى[2] أم تبرجات ثانية وثالثة أماهيه؟ وكما نعيش اليوم أبشع التبرجات النسائية في بلاد متخلفة عن شرعة الله، لا يسترن إلّا عوراتهن ولو كانت جميلة ما سترنها، وقد يتبرجن فيها جلية أكثر لمتاع الجنس وعند ذلك الطامة الكبرى! وجاهلية القرن العشرين من أبشع الجاهليات التي تمر فيها البشرية وعاشتها حتى الآن!

أنت يا ريحانة ماذا تعنين من التبرج، تظهرين مفاتنك، وتجملين بدنك وتتغنجين في صوتك وحركاتك، وتلبسين ما يجلب أنظار تجار الجنس وبغاته، فهل أنت متاع تعرِّضين نفسك للشراء، أم حيوانة شهوة تبغين البغاء وتفتشين عن زبائن، تعملين من نفسك برجاً يقصد وعند ذلك الطامة الكبرى.

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٦٩ ح ٧٩ تفسير القمي عن أبي عبد الله عليه السلام في هذه الآية قال: أي ستكون جاهلية أخرى

(٢) كما في الصحيحة عن عائشة.

للتبرج النسائي دركات، من مشية بين الرجال تجلب أنظارهم وضرب بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن، بمشية تكسُّر وتغنج، ومن تكشّف ما يجب إخفاؤه من زينة، وكل ما يعطف أنظار طلاب الجنس إليهن بصراً وسمعاً وشماً، كل هذه تبرجات مهما اختلفت دركاتها وخطراتها، والآية تمنع عن تبرج الجاهلية الأولى ولم يكن إلّا تبرجاً بزينة كيفما كانت، اللهم إلّا ما ظهر منها مهما جلبت أنظاراً أم لم تجلب.

هنالك تستر مطلق في قرارهن في بيوتهن وهو الأصل لحياتهن، ثم خروج باحتشام في غير تبرج بزينة، برجاً ظاهراً دونما تظاهر، ثم خروج في تبرج بأية زينة تجعلهن كبرج يُقصد، والممنوع هو الأخير بكل صوره ولا سيما التعري بين الرجال كما كن أحياناً يطفن البيت عاريات قائلات: اليوم يبدو كله أو بعضه. . فما بدى منه فلا أحلّه!

ولأن الجاهلية الأولى ما تجاوزت عن تلكم التبرجات[1] فنحن نعيش الآن جاهلية أعمى وأنحس من الأولى، غليظة الحس، حيوانية التصور، هابطة في درك البشرية إلى حضيض مهين وضلال مبين! حيث بلغ التبرج إلى أبشع من التعري.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كما يحق، لا قياماً للصلاة ولا إتيانها كيفما كان، وإنما إقامتها بظاهرها وباطنها كما تصلح لمحضر الرب سبحانه وتعالى. . ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الضريبة المالية التي تنمي المال وتطهر صاحب المال

(١) في الدر المنثور ٥: ١٩٩ عن مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال فذلك تبرج الجاهلية وعن قتادة: وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله عن ذلك عن ابن حيان: والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيرى قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج وقال ابن كثير في التفسير: كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت شعرها وأقرطة آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن في حياتهن وأحوالهن.

والمجتمع من دنس الفقر وسوء الحال ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فأنتن أحرى بذلك حيث ينزل الوحي في بيوتكن... إنما...؟

﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾:

هذه آية التطهير، منقطعة النظير، في التعريف بمدى العصمة والطهارة للبشير النذير، وأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم بذلك التطهير.

فإنها على اتصالها بما قبلها من جملات في آيتها وآيات قبلها ثم «واذكرن» التي بعدها، هي منفصلة عما احتفت بها في مغزاها ومعناها، حيث الخطابات في سواها الـ (٢٢) كلهما جموع مؤنثة تعني نساء النبي ﷺ وهنا جمعان مذكران يعنيان الذكران من أهل البيت عليهم السلام.

وإنها تصلح لفظياً ومعنوياً أن تكون آية مستقلة عما تصدرتها نازلة لوقت آخر، وكما تواترت بذلك روايات الفريقين عن النبي ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام (١).

واستقرارها تأليفاً في آية القرار: «وقرن...» أمرٌ قاصد قاسطٌ إذ يعني التأليف بين بيتي النبي الأقدس ﷺ في الظاهر النسائي والباطن المعرفي في قمة العصمة والطهارة، وليس لها موضع أنسب منها هاهنا، رغم ما يُهرف بما لا يُعرف فيخرُف أنها تحولت إلى هنا تحريفاً عن موضعها بُغية تحريف عن موضوعها أنها تعني نساء النبي كما عنتهن سائر خطاباتهن؟ وذكورة الضمير دليل قاطع لا مرد له عما يعنيه من ذكران أهل البيت!.

أو أن الله جعلها فيها كيلا تحرّف عما تعنيه زعم أنها تعني ما تعنيه

(١) أحاديث التطهير المتواترة مطبقة على أن آية التطهير مستقلة نزلت دون ألفاظها الأخرى التي معها في التأليف.

خطابات النساء، كحيلة إلهية تحول دون التحريف! ولا تحريف في القرآن ولن.. أياً كان وأيان بأدلة الحفظ عقلياً وكتابياً وفي السنة القطعية، فهل يخاف الله المحرفين لكي يحتال حتى لا يُغتال؟!

إن ضميري التذكير يحافظان على كيان آية التطهير، كما و«إنما» و«أهل البيت» أمّا ذا من عساكر البراهين من نفس الآية ومن السنة المتواترة تدلنا على تحول الخطاب عنهن إلى رجال أهل البيت، إذاً فالبيت غير البيت وأهله غير أهله!

ليست آية التطهير لتعني نساء النبي لا في أدب اللفظ لمكان «كم.. كم» ولا في حدب المعنى لمكان «إنما» أما ذا؟ من قرائن قطعية تحافظ على مكانة مخاطبيها، رغم مكانها بين مخاطبات!.

فكما ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾(١) لا تحوِّل ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾(٢) إلى مخاطبها، حيث اختلاف الضمائر يحافظ على ما يعنيه المضمر والضامر ذكراناً وإناثاً! كذلك «كم» هنا لا تتحول إلى غير مخاطبيها! وقرينة السياق - على نقد في أصلها - ليست لتسوق مقارنها إلى غير الصريح من معناها!

أترى نساء النبي ﷺ كن هنا رجالاً لكي يخاطبن بخطابهم «كُم» كما يهرفه من لا يعرف أدب اللفظ والمعنى؟(٣) أم نسي الله أو تناسى وسها فخاطبهن بعد خطابات النساء خطاب الرجال؟ أم عَنى بهم رجال أهل البيت وفي ضمنهم النساء تغليباً لقبيل الرجال كما في سائر الأحوال؟ وشمول

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٩.

(٣) كعكرمة في قولته: «من شاء باهلته» إنها نزلت في أزواج النبي ﷺ كما ويشير في قولته الأخرى إلى وحدته في وهدته «ليس بالذي تذهبون إليه إنما هو نساء النبي ﷺ» (الدر المنثور ٥: ١٩٨).

ضمير الرجال للنساء بحاجة إلى دليل قاطع! والقرائن القطعية في الآية تُنحِّيهن وكل من هو دون العصمة القمة عنها! والسنة القطعية لا تضم إليها إلّا الصديقة الكبرى سلام الله عليها! ولئن سألنا نساء النبي ﷺ هل أنتن أم واحدة منكن داخلة في هذه الطهارة القمة الخارج عنها من خرج نبياً وسواه؟ لا نسمع الجواب إلا كلا، ولا سيما وأن القرآن ناطق بالأخطاء الجارفة في بعضهن ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾[1]!

هنا «إنما» في إرادة الطهارة وإذهاب الرجس عن أهل البيت عليهم السلام تحصرها في أهل البيت وتحسرها عمن سواهم، أياً كانوا وأيان من أهل البيوتات الرسالية وملإ العالمين من الملائكة والجنة والناس أجمعين!.

فلا يدخل في ذلك البيت القمة في العصمة العليا نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ولا جبريل وميكال والروح عليهم السلام أمّن ذا؟ فضلاً عن نساء النبي ﷺ أم ورجال فوقهن في درجات الإيمان كمقداد وأبي ذر وسلمان!

أهل البيت في إطلاقها تشمل كل أهل من كل بيت، بيت السكن للبدن حيث الإنسان يستريح فيه ببدنه من الأعباء، فأهله هم الآهلون لتهيئة الراحة البدنية من أزواج وخدم وأضرابهم.

أم بيت يبيت فيه الروح، جوٌّ روحاني يبتغيه الروح لراحة الاستضاءة من أضواء المعرفة وأهله الآهلون لتلك الاستضاءة.

هذا جو روحاني وبيت يحلّق على أهله، وذاك جو جسداني وبيت يحلق على أهله، وأين بيت من بيت وأهل من أهل؟

وهما قد يجتمعان كبيت علي وفاطمة لهما وللرسول الأقدس ﷺ وقد يفترقان كحجرات الرسول بنسائِه، وكمن يعيشون عيشة الحيوان ليس لهم جوّ روحاني يعيشهم عيشة الإنسان!

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٤.

ولمكان «إنما» هنا ليس من أهل البيت نساءه ﷺ إذ لا يشملهن لأنهن أهل بيت سكن من حجر ومدر وهو بيت محمد كبشر، والمسند إليه هنا هو محمد الرسول ﷺ!

ترى بعدُ أنهم أهل بيت الرسول عليه السلام؟ وهو لا يشمل الرسول ﷺ وهواسه وأساسه! و«إنما» الحاصرة تجعله المصداق الأجلى في هذه الأهلية المباركة، وما سائر أهل البيت إلا كمصاديق ثانوية! مهما تواترت الرواية أنهم «علي وفاطمة والحسنان» في التنزيل وكما يروى عنه ﷺ هؤلاء أهل بيتي وهم أحق بخلافتي»[١].

أو أنهم أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، أعلى جو روحاني يشمله وإياهم، وبيت رسالي يعمهم، لا الرسولي الذي يخص أهل الرسول المعصومين؟ وهذا يناسب حصر الطهارة، وإطلاق البيت[٢] وتواتر

(١) غاية المرام في كفاية الخصام ص ٣٧٦ عن مسند أحمد بن حنبل عن عبد الرحمن بن أحمد بن حنبل عن أبيه أحمد عن شداد بن عمارة ذهبت إلى واثلة بن الأسقع وعنده جماعة يسبون علياً فشاركتهم فقال واثلة: أتريد أن أخبرك بما سمعت عن رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى قال: . . . ساق حديثه في آية التطهير ثم قال ﷺ: وهم أحق بخلافتي أقول والأربعة في التنزيل من باب التفسير بالمصداق الثاني المختلف فيه قائله بالمتفق عليه وقد أخرج عنه ﷺ نزولها في الخمسة محمد بن جرير الطبري في التفسير عن خمسة عشر طريقاً عن أم سلمة والسيوطي في التفسير عن عشرين طريقاً والثعلبي في التفسير عن تسعة طرق عن أم سلمة وفي طرق عدة عن عائشة، وقد نقله جماعة من الحفاظ والمحدثين مثل أبي نصر الحميدي وموفق بن أحمد وأبي رزين في جامع الصحاح والإمام أحمد والطبراني عن أم سلمة، والطبري والثعلبي في تفسيريهما وعبد الله الشافعي في مناقبه والطبراني في المعجم الكبير وابن أبي بكر في مجمع الزوائد والزرندي في نظم درر السمطين والهيثمي في الصواعق وابن حسنويه في درر بحر المناقب والجري في المناقب والبدخشي في مفتاح النجا والقاري في أربعين حديثاً والنبهاني في الأنوار المحمدية والواحدي في أسباب النزول والقندوزي في ينابيع المودة والأمر تسري في أرجح المطالب والقسطلاني في المواهب اللدنية والخمراوي في مشارق الأنوار والنبهاني في الشرف المؤيد والذهبي في تاريخ الإسلام - كلهم عن أبي سعيد الخدري عنه ﷺ.

(٢) حيث التقييد بأهل بيت الرسول روحياً كما هو بدنياً لا يناسب إطلاق أهل البيت، وبيت الرسالة المحمدية هنا قضية الإطلاق وسائر البراهين القاطعة.

الأحاديث الأخرى عن الرسول وأهل البيت وكما يروى عنه ﷺ: «نحن أهل بيت طهرهم الله من شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وبيت الرحمة ومعدن العلم عليهم السلام»(١).

ولقد أجمع أصحاب الرسول ﷺ والتابعون، وأتباعهم، وأئمة الحديث، والمفسرون في تواتر صارم لا قبل له ولا مثيل بين متواتر الحديث، أجمعوا على نزول آية التطهير في أهل بيت النبوة، وقد يربو رواة حديث التطهير ألفاً مما يجعله كآيته في التواتر الصارم!

ومن المروي عنهم فاطمة الزهراء عليها السلام (٢) بنت الرسول ﷺ وعائشة

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٩١ عن ضحال بن مزاحم أن نبي الله ﷺ كان يقول: . . . أقول: «كان يقول» دليل استمراره في قوله هذا وقد أخرج عنه ﷺ نزولها في الخمسة محمد بن جرير الطبري في خمس عشرة رواية عن شهر بن حوشب عن أم سلمة والسيوطي في التفسير في عشرين رواية والثعلبي عن أبي سعيد الخدري عنها وعن أبي هريرة وعبد الله بن وهب بن زمعة وعمر بن أبي سلمة عنها ومسلم بن الحجاج والبخاري وسائر الصحاح عنها والثعلبي في تفسيره بتسعة طرق وأبو نصر الحميدي وموفق بن أحمد صدر الأئمة وأبو رزين في جامع الصحاح كل عن أم سلمة عنه ﷺ والإمام أحمد والطبراني عنها وكذلك عن عائشة بعدة طرق، وعشرات وعشرات أخرى من الحفاظ ورجالات الحديث لحد يجعل نزولها في الخمسة أقوى من نزولها في الأربعة!

(٢) وقد روي عنها حديث الكساء المشهور، أخرجه عن جابر بن عبد الله الأنصاري جماعة كالشيخ البحراني صاحب العوالم يقول رأيت بخط الشيخ الجليل السيد هاشم البحراني عن السيد ماجد البحراني عن الشيخ حسن بن زين الدين الشهيد عن المقدس الأردبيلي عن علي ابن عبد العالي الكركي عن الشيخ علي بن هلال الجزائري عن الشيخ أحمد بن فهد الحلي عن الشيخ علي بن الخازن الحائري عن الشيخ ضياء الدين علي ابن الشهيد الأول عن أبيه عن فخر المحققين عن العلامة الحلي عن المحقق الحلي عن ابن نما الحلي عن محمد بن إدريس الحلي عن أبي حمزة الطوسي عن محمد بن شهر آشوب عن الطبرسي صاحب الاحتجاج عن الشيخ حسن بن محمد الطوسي عن أبيه شيخ الطائفة الطوسي عن الشيخ المفيد عن ابن قولويه القمي عن الكليني عن علي بن إبراهيم القمي عن إبراهيم بن هاشم عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي عن قاسم بن يحيى الجلاء الكوفي عن أبي بصير عن أبان بن تغلب عن جابر بن يزيد الجعفي عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: سمعت فاطمة الزهراء عليها السلام أنها =

وأم سلمة وزينب من أزواجه، . . . .

= قالت: دخل علي أبي رسول الله ﷺ في بعض الأيام فقال: السلام عليك يا فاطمة! فقلت: وعليك السلام يا أبتاه فقال: إني لأجد في بدني ضعفاً فقلت له: أعيذك بالله يا أبتاه من الضعف فقال: يا فاطمة ايتيني بالكساء اليماني وغطيني به وصرت أنظر إليه فإذا يتلألأ كأنه البدر في ليلة تمامه وكماله فما كانت إلا ساعة وإذا بولدي الحسن عليه السلام قد أقبل فقال: السلام عليك يا أماه فقلت: وعليك السلام يا قرة عيني وثمرة فؤادي فقال لي: يا أماه! إني أشم عندك رائحة طيبة كأنها رائحة جدي رسول الله ﷺ فقلت نعم يا ولدي إن جدك تحت الكساء فأقبل الحسن عليه السلام نحو الكساء وقال: السلام عليك يا جداه يا رسول الله ﷺ! أتأذن لي ان أدخل معك؟ فقال: وعليك السلام يا ولدي وصاحب حوضي قد أذنت لك فدخل معه تحت الكساء فما كانت إلا ساعة فإذا بولدي الحسين عليه السلام قد أقبل وقال: السلام عليك يا أماه! فقلت وعليك السلام يا قرة عيني وثمرة فؤادي فقال لي: يا أماه! إني أشم عندك رائحة طيبة كأنها رائحة جدي رسول الله ﷺ فقلت: نعم يا بني ان جدك وأخاك تحت الكساء فدنا الحسين عليه السلام نحو الكساء وقال: السلام عليك يا جداه السلام عليك يا من اختاره الله أتأذن لي أن أكون معكما تحت هذا الكساء؟ فقال: وعليك السلام يا ولدي ويا شافع أمتي قد أذنت لك فدخل معهما تحت الكساء فأقبل عند ذلك أبو الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: السلام عليك يا فاطمة يا بنت رسول الله ﷺ فقلت: وعليك السلام يا أبا الحسن ويا أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا فاطمة إني أشم عندك رائحة طيبة كأنها رائحة اخي وابن عمي رسول الله ﷺ فقلت: نعم ها هو مع ولديك تحت الكساء فأقبل علي نحو الكساء وقال: السلام عليك يا رسول الله ﷺ أتأذن لي أن أكون معكم تحت الكساء قال له: وعليك السلام يا أخي وخليفتي وصاحب لوائي في المحشر نعم قد أذنت لك فدخل علي تحت الكساء ثم أتيت نحو الكساء وقلت: السلام عليك يا أبتاه يا رسول الله ﷺ أتأذن لي أن أكون معكم تحت الكساء قال لي: وعليك السلام يا بنيتي ويا بضعتي قد أذنت لك فدخلت معهم فلما اكتملنا واجتمعنا جميعاً تحت الكساء أخذ أبي رسول الله ﷺ بطرفي الكساء وأومى بيده اليمنى إلى السماء وقال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وخاصتي وهامتي لحمهم لحمي ودمهم دمي يؤلمني ما يؤلمهم ويحزنني ما يحزنهم أنا حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وعدو لمن عاداهم ومحب لمن أحبهم وإنهم مني وأنا منهم فاجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك وغفرانك ورضوانك علي وعليهم وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فقال عز وجل: يا ملائكتي ويا سكان سماواتي إني ما خلقت سماء مبنية ولا أرضاً مدحية ولا قمراً منيراً ولا شمساً مضيئة ولا فلكاً يدور ولا فلكاً تسري ولا بحراً يجري إلا لمحبة هؤلاء الخمسة الذين هم تحت الكساء فقال الأمين جبرائيل: يا رب ومن تحت الكساء؟ فقال الله عز وجل: هم أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة وهم فاطمة وأبوها وبعلها وبنوها فقال جبرئيل: يا رب أتأذن لي أن أهبط إلى =

. . . .

= الأرض لأكون معهم سادساً فقال الله عَزَّوَجَلَّ: قد أذنت لك فهبط الأمين جبرائيل وقال لأبي: السلام عليك يا رسول الله ﷺ العلي الأعلى يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول لك: وعزتي وجلالي إني ما خلقت سماء مبنية ولا أرضاً مدحية ولا قمراً منيراً ولا شمساً مضيئة ولا فلكاً يدور ولا بحراً يجري ولا فلكاً تسري إلا لأجلكم ومحبتكم وقد أذن لي أن أدخل معكم فهل تأذن لي أنت يا رسول الله ﷺ؟ فقال أبي: وعليك السلام يا أمين وحي الله نعم قد أذنت لك فدخل جبرائيل معنا تحت الكساء فقال جبرائيل لأبي: إن الله قد أوحى إليكم يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رسول الله ﷺ أخبرني ما لجلوسنا هذا تحت هذا الكساء من الفضل عند الله؟ فقال ﷺ: والذي بعثني بالحق نبياً واصطفاني بالرسالة نجياً ما ذكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض وفيه جمع من شيعتنا ومحبينا إلا ونزلت عليهم الرحمة وحفت بهم الملائكة واستغفرت لهم إلى أن يتفرقوا فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذاً والله فزنا وفاز شيعتنا ورب الكعبة فقال أبي: يا علي! والذي بعثني بالحق نبياً واصطفاني بالرسالة نجياً ما ذكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض وفيه جمع من شيعتنا ومحبينا وفيهم مهموم إلا وفرج الله همه ولا مغموم إلا وكشف الله غمه ولا طالب حاجة إلا وقضى الله حاجته فقال علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذاً والله فزنا وسعدنا وكذلك شيعتنا فازوا وسعدوا في الدنيا والآخرة برب الكعبة».

أقول: ورواه مثله إلا في بعض المكررات الشيخ فخر الدين الطريحي في كتابه المنتخب الكبير والديلمي في الغرر والدرر والحسين العلوي والدمشقي الحنفي والشيخ محمد جواد الرازي الكنى في نور الآفاق ص ٤ وقد نظمه جماعة من نوابغ الأدب من أصحابنا وإخواننا منهم أبو المعز السيد محمد ابن السيد مهدي القزويني والسيد هاشم بن المحسن اللعيبي الموسوي والسيد محسن الأمين الحسين العاملي الدمشقي صاحب أعيان الشيعة والشيخ أحمد الشافعي على ما في المشارق للعدوي والشيخ يوسف النبهاني البيروتي والسيد محمد بن عبد المحسن المحيوي الخلوتي الدمشقي في ديوانه وتؤيد حديث الكساء الروايات التي تقول: جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة كما أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن واثلة بن الأسقع قال: جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة ومعه علي وحسن وحسين حتى دخل.. وأخرج سبط ابن الجوزي عن واثلة قال: أتيت فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ أسألها عن علي فقالت: توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره فإذا برسول الله قد أقبل ومعه علي والحسن والحسين قد أخذ بيد كل واحد منهم وقليل هذه الروايات التي تقول إن القصة كانت في بيت غير فاطمة، فإنها بين مطلقة وما تدل أنها كانت في بيتها. ولفظة «خرج ﷺ في رواية عائشة في الأكثر دليل ان القصة ما كانت في بيت عائشة كما رواه عنها ابن مسعود الشافعي مصابيح السنة والزمخشري في الكشاف وابن جرير في تفسيره وابن =

وكافة أئمة أهل البيت عليهم السلام [(١)]. . . . .

= حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف والدشتكي الشيرازي في روضة الأحباب ومسلم في صحيحه وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن واثلة بن الأسقع قال: جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة ومعه علي وحسن وحسين حتى دخل. . .

والنيسابوري في المستدرك ٢: ٤١٦ عن واثلة قال: جئت أريد علي. . . والقندوزي في ينابيع المودة ٢٢٩ عن واثلة قال: دخل النبي ﷺ على بيت فاطمة. . . أقول والرواية عن واثلة في كلمة واحدة أن رسول الله ﷺ جاء إلى بيتها!

(١) ومن أصح ما أسند إلى عائشة ما يروى عن مجمع أنه دخل مع أمه عليها بعد مقتل الإمام علي عليه السلام فسألتها عن علي عليه السلام فقالت: تسألني عن أحب الناس إلى رسول الله ﷺ لقد رأيت علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً وجمع رسول الله ﷺ بثوب عليهم ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» قلت: وأنا من أهل بيتك؟ قال ﷺ: تنحي أنت على مكانك إنما أراد الله بهذه الآية أنا وعلياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام رواه الثعلبي في تفسيره بإسناد متصل إلى مجمع الحارثي والبخاري ومسلم من مسند عائشة وابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عنها، ويتفاوت يسير عن الجمع بين الصحاح الستة عن موطأ مالك بن أنس وصحيحي مسلم والبخاري وسنن أبي داود عن جمع الشيخ أبي الحسن رزين بن معاوية العبد يري عن صحيح أبي داود عنها إلا في «أنا» ومقدمة القصة وأخرجه مثله أبو زكريا بن أبي إسحاق بسند له عن جميع اليتمي وأبو عبد الله الدينوري عن مجمع وعبد الله بن فراش الشيباني عن العوام كما في أمالي ابن بابويه (ملحقات الإحقاق ١٤: ٧٤ - ٧٥). وفي ٩: ١٠ البيهقي في المحاسن والمساوي ٢٩٧ قال قيل وسئلت عائشة عن أمير المؤمنين عليه السلام فقالت: وما عسيت أن أقول فيه وهو أحب الناس إلى رسول الله فساقت حديث التطهير إلى وقيل لها كيف سرت إليه؟ قالت: أنا نادمة وكان ذلك قدراً مقدوراً وممن أخرج ما في معناه عن عائشة العلامة باكثير الحضرمي في وسيلة المآل ص ٧٣ نسخة الظاهرية بدمشق والعلامة الشيخ عبد العزيز بن يحيى في الدر المنثور في تفسير الأسماء الحسنى بالمأثور (ص ١٢٦ ص ط الميمنية بمصر) والعلامة محمد رضا المصري والعلامة علي بن سلطان محمد القاري والثعلبي والبخاري ومسلم من مسند عائشة وابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي حاتم والحاكم والجمع بين الصحاح الستة عن موطإ مالك وصحيحى: مسلم والبخاري وسنن أبي داود عن جمع الشيخ أبي الحسن رزين معاوية عن صحيح أبي داود والعلامة جمال الدين الزرندي الحنفي في (نظم درر السمطين ١٢٣) والعلامة الشيخ إبراهيم الحمويني في فرائد السمطين المخطوط والعلامة السيد علوي بن طاهر الحداد الحضرمي في القول الفصل ج ٢ ص ٢١٥ ط جاوا والحافظ البيهقي في السنن الكبرى ج ٢=

. . . .

= ص ١٤٩ والطبري في جامع البيان ٢٢ : ٦ وأبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي في الجمع بين الصحيحين المخطوط والعلامة البغوي في تفسيره معالم التنزيل ٥ : ٢١٣ والعلامة محب الدين الطبري في ذخائر العقبى ص ٢٤ والعلامة ابن كثير الدمشقي في البداية والنهاية ٨ : ٣٤ والشيخ عبد القادر بن أحمد بدران الدمشقي في تهذيب تاريخ ابن عساكر والعلامة الشيخ علاء الدين البغدادي الشهير بالخازن في تفسيره (٥ : ٢١٣) والعلامة أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحنبلي في منهاج السنة ٣: ٤ و٤ : ٢٠ والعلامة الشيخ خضر بن عبد الرحمن في التبيان ص ١٢٥ مخطوط والعلامة الشيخ سعيد بن محمد بن مسعود الشافعي في المنتقى في سيرة المصطفى ص ١٨٨ المخطوط والخطيب التبريزي العمري في مشكاة المصابيح ص ٥٦٨ ط الدهلي والعلامة الذهبي في المنتقي من منهاج الاعتدال ص ١٦٨ و٣٠٤ والعلامة القاضي المير حسين الميبدي اليزدي في شرح ديوان أمير المؤمنين ص ١٨٥ مخطوط والعلامة أحمد بن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة ص ٢٢٧ والعلامة الشيخ عبد النبي بن أحمد القدوس الحنفي في سنن الهدى ٥٦٣ مخطوط والعلامة علي بن عبد العال الكركي في نفحات اللاهوت ص ٥٣ والعلامة عبد الغني بن إسماعيل النابلسي في ذخائر المواريث ج ٤ ص ٢٧٧ والعلامة الشيخ عبد الله الشافعي في المناقب ١٥ مخطوط والعلامة البدخشي في مفتاح النجا ١٤ مخطوط والعلامة الشيخ سليمان البلخي الحنفي في ينابيع المودة ١٠٧ والعلامة السيد محمد صديق حسنخان ملك بهوبال في فتح البيان ٧: ٢٧٧ والعلامة الشيخ عبد الله الشيباني في تيسير الوصول ١٦٠ والعلامة الشيخ يوسف النبهاني في الشرف المؤيد والعلامة الحضرمي في القول الفصل ٢ : ٢١٠ والعلامة السيد أبو بكر العلوي الحضرمي الشافعي في رشفة الصادي ١٥ والعلامة السيد محمد بن يوسف التونسي في السيف اليماني والعلامة الشيخ عبيد الله الحنفي الأمر تسري في أرجح المطالب ٥٢ والعلامة السيد أحمد بن سودة الحسني الإدريسي في رفع اللبس والشبهات ٦٥ والعلامة الشيخ منصور بن علي ناصف المصري في التاج الجامع للأصول ٣: ٣٠٨ والعلامة الملا علي بن سلطان الهروي الحنفي في جمع الوسائل في شرح الشمائل ١ : ١٤٧.

(٢) ومما روي عن أم سلمة ما أخرجه محمد بن جرير الطبري عن حكيم بن سعد قال ذكرنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عند أم سلمة فقالت: في بيتي نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . .﴾ [الأحزاب: ٣٣] جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي فقال: لا تأذني لأحد فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن جده ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده ثم جاء علي فلم أستطع أن أحجبه فاجتمعوا فجللهم رسول الله ﷺ بكساء، كان عليه ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فنزلت هذه الآية اجتمعوا على البساط فقلت: يا رسول الله وأنا فوالله ما أنعم وقال: إنك إلى خير =

. . . .

= وأخرج ابن المغازلي وكثير مثله عنها أنها قالت نزلت هذه الآية في رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وممن أخرج حديث التطهير عنها الحافظ أبو بشر الدولابي في كتاب الكنى ٢ : ٤٢١ والحافظ الحسين بن الحكم الجري في تنزيل الآيات ٢٠ نسخة فوتوغرافية جامعة طهران والعلامة الحضرمي في وسيلة المآل ٧٣ نسخة الظاهرية بدمشق والعلامة ابن المغازلي الشافعي في المناقب ١١٠ نسخة مكتبة صنعاً يمن والعلامة الشيخ محمد رضى المصري المالكي في الحسن والحسين ٧ والحافظ أبو عيسى الترمذي في صحيحه ١٣ : ٢٤١ وأحمد بن حنبل في مسنده ٦ : ٢٩٨ والطبري في تفسيره ٢٣ : ٧. والبخاري في التاريخ الكبير ١ : ٧٠ وأحمد بن علي بن ثابت الشافعي في تاريخ بغداد ٩ : ١٢٦ وعبد الله بن محمد بن حيان الأصبهاني في أخلاق النبي ١١٦ وأبو إسحاق الثعلبي في الكشف والبيان المخطوط والعلامة النبهاني في الأنوار المحمدية ٤٣٤ والواحدي النيسابوري في أسباب النزول ٢٦٧ وأبو نعيم في أخبار أصبهان ١ : ١٠٨ والبغوي في معالم التنزيل ٢١٣ وعلي بن ثابت الشافعي في موضح أوهام الجمع والتفريق ٣: ٢٨١ وابن الأثير في أسد الغابة ٤ : ٢٩ ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة ٢: ١٨٨ والذهبي في تاريخ الإسلام ٦ وعلي بن الحسين بن عساكر في تاريخ دمشق والنابلسي في ذخائر المواريث ٤ : ٢٩٣ والزرندي في نظم درر السمطين ٢٣٨ والبيهقي في السنن الكبرى ٢ : ١٥٠ والقاضي يوسف بن موسى في المعتصر من المختصر ٢ : ٢٦٦ وجلال الدين السيوطي في مفحمات الإقران في مبهمات القرآن ٣٢ والشيخ أبو الحسن الكازروني في شرف النبي على ما في مناقب الكاشي المخطوط ٢٢٤ والقسطلاني في المواهب اللدنية ٧: ٤ والعسقلاني في الإصابة ٤ : ٣٣٦ والذهبي في سير أعلام النبلاء ٣: ١٩٠ وابن حمزة الحسيني في البيان والتعريف ١٤٩ والشيخ حسن الحمزاوي في مشارق الأنوار ١١٣ والقرماني في أخبار الدول ١٢٠ وعلي بن عبد العال الكركي في نفحات اللاهوت ٥٣ والأزدي في التبيان ١٢٥ والسيد أحمد زيني دحلان في السيرة النبوية ٣: ٣٢٩ والملا علي القاري في الأربعين حديثاً ٦١ وابن الديبع في تيسير الوصول ١٦٠ وابن حمزة الحسيني في البيان والتعريف ١ : ١٥٠ والبدخشي في مفتاح النجا ١٤ والحضرمي في رشفة الصادي ١٤ والكاشفي في المواهب العلية والذهبي في المنتقى من منهاج الاعتدال ١٦٨ وابن محمد كرام القناني المالكي في الجواهر الحسان ٢٩٤ والقندوزي في ينابيع المودة ١٠٦ والشيخ عبد الهادي الأبياري المصري في جالية الكدر ١٩٦ والحضرمي في القول الفصل ٢: ١٦٥ والشيخ عبيد الله الحنفي الأمر تسري في أرجح المطالب ٥٢ وابن الألوسي في جلاء العينين ٣٩ والشيخ حسن النجار في الاشراف ١٠ وابن كثير الدمشقي في البداية والنهاية ٧: ٣٣٨»

(٣) ومما روي عن زينب بسند عن عبد الله بن جعفر الطيار عن أبيه قال: لما نظر النبي صلى الله عليه وآله وسلم=

وعلي أمير المؤمنين عليه السلام (١). . . . .

= إلى جبرائيل هابطاً من السماء قال: من يدعو لي؟ فقالت زينب: أنا يا رسول الله ﷺ! فقال: ادعي لي علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فجعل حسناً عن يمينه وحسيناً عن يساره وعلياً وفاطمة تجاههم ثم غشاهم بكساء، خيبري وقال ﷺ: اللهم إن لكل نبي أهلاً وإن هؤلاء أهلي فأنزل الله الآية فقالت زينب: ألا أدخل معكم؟ قال ﷺ: مكانك فإنك على خير إن شاء الله أقول: أخرجه عنها جماعة مما يجلب النظر تسابق نساء النبي ﷺ في اختصاص هذه الفضيلة ببيتها حتى عائشة المعادية لعلي عليه السلام مما يدل على مدى القاطعية الصارمة في واقع هذه القضية!

(١) يروى عنه حديثان أحدهما «كان النبي ﷺ يأتي كل يوم باب فاطمة عند صلاة الفجر فيقول: الصلاة يا أهل بيت النبوة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . .﴾ [الأحزاب: ٣٣] تسعة أشهر بعد ما نزلت ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]. . رواه عنه ثلاثمائة من الصحابة وممن أخرجه عنه العلامة القندوري في ينابيع المودة ١٧٤ والعلامة السيد أحمد بن عبد الحميد العباس في عمدة الأخبار ٧٨ والعلامة السهمودي في خلاصة الوفاء ٢١٣ والكاشفي في المواهب العلية والمراغي في تحقيق النضرة ٧٥ والسهمودي في وفاء الوفاء تاريخ المدينة المنورة ١: ٣٣١ وثانيها مختلف احتجاجاته عليه السلام يوم الشورى على أبي بكر ومنها: «فأنشدك بالله ألي ولأهلي وولدي آية التطهير من الرجس أم لك ولأهل بيتك؟ قال: بل ولك ولأهل بيتك (عن الخصال) ومنها احتجاجه على الناس يوم الشورى ح ٩٠ واحتجاجه أيام خلافة عثمان في جمع من المهاجرين والأنصار: أيها الناس أتعلمون أن الله عزّ وجلّ أنزل في كتابه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . .﴾ فجمعني وفاطمة وابني حسناً وحسيناً وألقى علينا كساءه وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي ولحمتي يؤلمني ما يؤلمهم ويحرجني ما يحرجهم فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فقالت أم سلمة وأنا يا رسول الله ﷺ! فقال: أنت - أو - إنك على خير إنما أنزلت فيّ وفي أخي وابنتي وابني وفي تسعة من ولد ابني الحسين خاصة ليس معنا فيها أحد فقالوا كلهم: نشهد أن أم سلمة حدثنا بذلك فسألنا رسول الله ﷺ فحدثنا كما حدثتنا أم سلمة (كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عنه عليه السلام وفي العلل بإسناده إلى ابن أبي عمير عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما منع أبو بكر فاطمة فدكاً وأخرج وكيلها جاء أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد وأبو بكر جالس وحوله المهاجرون والأنصار فقال: يا أبا بكر لم منعت فاطمة ما جعله رسول الله ﷺ لها ووكيلها فيه منذ سنين - إلى قوله - فقال عليه السلام لأبي بكر تقرأ القرآن؟ قال: بلى قال: فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . .﴾ فينا أو في غيرنا نزلت؟ قال: فيكم قال: فأخبرني لو أن شهوداً شهدوا على فاطمة بفاحشة ما كنت صانعاً؟ قال: كنت أقيم عليها الحد كما أقيم على نساء المؤمنين، =

وابن عباس(١) وأبي سعيد الخدري(٢) وأنس(٣). . . . .

= قال عليه السلام: كنت إذاً عند الله من الكافرين! قال: ولِمَ؟ قال: لأنك كنت ترد شهادة الله وتقبل شهادة غيره لأن الله عز وجل قد شهد لها بالطهارة فإذا رددت شهادة الله وقبلت شهادة غيره كنت من الكافرين قال: فبكى الناس وتفرقوا ودمدموا» (نور الثقلين ٤: ٢٧١ ح ٩٣).

(١) وقد روى عنه حديث التطهير جماعة من أعلام القوم ومنهم الحافظ الحسين بن الحكم الجري في تنزيل الآيات ٢٤ أن الآية نزلت إلى رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين، وفي ملحقات الإحقاق ١٤: ٦٨ بسند عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: إن الله تبارك وتعالى قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهم قسماً فذلك قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقِعَة: ٢٧] فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً فذلك قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ٨-١١] فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحُجرَات: ١٣] فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً فذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزَاب: ٣٣] وأخرجه أبو عبد الرحمن السلمي بسند عن عطية وأبو حفص عمر بن أحمد العابد عن أبي سعيد. والعلامة إسماعيل بن عبد الله النقشبندي في مناقب العشرة ١٩٤ والعلامة الأمر تسري في أرجح المطالب ٥٤ والسيوطي في الدر المنثور وابن مردويه.

(٢) وممن روى عنه القاري في مرقاة المفاتيح ١١: ٣٧١ والجري في تنزيل الآيات ٢٣ مخطوط والحضرمي في وسيلة المآل ٧٦ والشيخ محمد رضا المصري المالكي في (الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ) وابن المغازلي الشافعي في المناقب مخطوط ومحمد بن جرير الطبري ومما رواه عنه قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة فيّ وفي علي وحسن وحسين وفاطمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ. . .﴾ [الأحزاب: ٣٣].

كما أخرجه أبو إسحاق الثعلبي في الكشف والبيان مخطوط وعبد الله الشافعي في مناقبه ١٢ مخطوط والطبراني في المعجم الكبير ١٣٤ ونور الدين علي بن أبي بكر في مجمع الزوائد ٩: ١٦٧ والزرندي في نظم در السمطين ٢٣٨ وابن حجر الهيثمي في الصواعق ٢٢٧ وابن عساكر في تاريخه ٤: ٢٠٤ وابن حسنويه الحنفي في درر بحر المناقب ٥ مخطوط البدخشي في مفتاح النبي ١٣ والواحدي في أسباب النزول ٢٦٦ والقندوزي في ينابيع المودة ١٠٨.

(٣) وممن أخرجه عنه الترمذي في جامعه ٤: ١٤٤ والهندي في كنز العمال ج ١٦ والقاري في مرقاة المفاتيح ١١: ٣٧١ والمصري المالكي، وأحمد بن حنبل في مسنده ٣: ٢٥٩ والطبراني في المعجم الكبير ١٣٤ وابن جرير الطبري في التفسير ٢٢: ٦ وابن الأثير في =

وعطاء[١] وأبي الحمراء[٢] أو واثلة بن الأسقع[٣] وسعد[٤] وجعفر بن أبي طالب عليه السلام [٥] وأبي برزة[٦]. . . . .

= أسد الغابة (٥: ٥٢١) والذهبي في تاريخ الإسلام ٩: ٩٧ وابن شاهين في فضائل سيدة النساء والصفوري في المحاسن المجتمعة ١٨٩ والهندي في المنتخب ٥: ٩٦ وابن كثير في التفسير والسمعاني في الرسالة القوامية والسيد محمد صديق في فتح البيان ٧: ٢٧٧ والنابلسي في ذخائر المواريث ١: ٣٨ والمالكي في مشارق الأنوار ١١٣ والنجار في الأشراف ٩ وابن البديع في تيسير الوصول ١٦٠ والبدخشي في مفتاح النجا والبلخي في الينابيع ١٩٣ والعظيم آبادي الهندي في تجهيز الجيش مخطوط والنبهاني في الشرق المؤبد ٧٠٦ والأمر تسري في أرجح المطالب ومما روي عنه أن النبي ﷺ كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر كلما خرج إلى الصلاة فيقول: الصلاة أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . .﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(١) وممن رواه عنه ابن المغازلي في المناقب والحسكاني في شواهد التنزيل وابن الأثير في أسد الغابة ٣: ٤١٣ والعسقلاني في الإصابة ٢: ٤٧٩.

(٢) وممن أخرج عنه ابن الحكم الجري في تنزيل الآيات ٢٤ مخطوط والحضرمي في وسيلة المآل.

(٣) وممن أخرجه عنه الحضرمي وابن المغازلي ومحمد القاري وابن موسى في المعتصر من المختصر والثعلبي في الكشف والبيان مخطوط والبيهقي في السنن الكبرى ٢: ١٥٢ والطبري في ذخائر العقبى ٢٤ وابن كثير في التفسير والقسطلاني في المواهب ٧: ٣ وابن بكر في مجمع الزوائد ٩: ١٦٧ والكركي في نفحات اللاهوت ٥٢ والذهبي في سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٢ والقندوزي في الينابيع ٢٢٩ والحمزاوي في مشارق الأنوار ١١٣ والساعاتي في بدايع المنن ٢: ٤٩٥ والهاشمي في أئمة الهدى ١٤٥، ومن حديثه بإخراج المغازلي ١١١ مخطوط والمناقب عن أبي عمار قال دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم يذكرون علياً فقال لي واثلة: ألا أخبرك لما رأيت عن رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى - قال: أتيت فاطمة عليها السلام فسألتها عن علي عليه السلام فقالت: توجه إلى رسول الله ﷺ فجلت أنتظره في رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام معه فدخل معهم البيت فأدنى علياً وفاطمة فأجلس واحداً عن يمينه والآخر عن يساره ودعا الحسن والحسين فأجلس كل واحد منهما على فخذه ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . .﴾ [الأحزاب: ٣٣] اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق.

(٤) وممن أخرجه عنه تسعة وسبعون من هؤلاء الحفاظ والمحدثين والمفسرين وسواهم.

(٥) وممن أخرجه عنه الحضرمي في القول الفصل ١٨٥ والثعلبي في الكشف والبيان.

(٦) وممن أخرجه عنه علي بن أبي بكر في مجمع الزوائد في حديثه: صليت مع رسول الله ﷺ سبعة عشر شهراً فإذا أخرج من باب بيته أتى باب فاطمة فقال: الصلاة عليكم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . .﴾ [الأحزاب: ٣٣] رواه الطبراني.

وصبيح[١] وأبي سلمة[٢] وجماعة آخرون من الصحابة[٣] كلهم رووا أنها نزلت في الخمسة أو الأربعة، وفي أكثرها أنه ﷺ جمعهم وإياه تحت الكساء بعد نزولها - وفي بعضها قبل نزولها - ودعا لهم بما دعا.

والرواة عنهم يبلغون المئات في كتب الحديث والتفسير وسائر المصنفات[٤] وقد يربو قاطع التواتر في حديث الطهارة حول آية التطهير كل

---

(١) وممن أخرجه عنه العسقلاني في الإصابة ٢ : ١٦٩ والثعلبي في الكشف والبيان مخطوط وابن الأثير في أسد الغابة ٣: ١١ في ترجمة صُبيح بسنده إلى إبراهيم بن عبد الرحمن بن صبيح مولا أم سلمة عن جده صُبيح قال: كنت بباب رسول الله ﷺ وساق حديث التطهير.

(٢) وممن أخرجه عنه الترمذي في جامعه والحضرمي في وسيلته والسهلاوي في وسيلة النجاة ٢٠٤.

(٣) ومنهم سعد بن أبي وقاص وسهل بن سعد وأبو هريرة وبريدة الأسلمي وأبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمر وعمران بن الحصين وسلمة بن الأكوع كلهم بمعنى واحد عن النبي ﷺ أخرج عنهم ابن عبد البر في الاستيعاب ٢: ٤٦٠ والحضرمي في القول الفصل ١: ٤٨ ويهجت افندي في تاريخ آل محمد ٤٢ والترمذي في صحيحه والذهبي في سير أعلام النبلاء ٣: ١٩٠ والقندوزي في الينابيع ١٥ والثعلبي في الكشف والبيان مخطوط والجنابذي الحنفي في معالم تنزيل النبوة مخطوط.

(٤) ومن مصنفات إخواننا السنة التي تحوي حديث الكساء والتطهير مائة كتاب كمسند أبي داود بسنده عن أنس ٢ - ومسند ابن حنبل بأسانيد عن صحابيين وصحابيات - ٣ - وصحيح الترمذي - ٤ - وخصائص النسائي - ٥ - وتفسير الطبري عن خمسة عشر طريقاً إلى أبي سعيد وعائشة وأبي الديلم وأم سلمة وعمر وبن أبي سلمة وأنس وأبي الحمراء وواثلة ويونس ابن أبي إسحاق وأبي عمار - ٦ - ومسند الرازي - ٧ - ومعجم الطبراني - ٨ - وأحكام القرآن للجصاص - ٩ - ومستدرك الحاكم - ١٠ - والأمالي للهاروني - ١١ - وتاريخ جرجان السهمي - ١٢ - والسنن الكبرى للبيهقي - ١٣ - وتاريخ بغداد - ١٤ - والاستيعاب للأندلسي - ١٥ - وأسباب النزول للواحدي - ١٦ - والفردوسي للديلمي - ١٧ - ومصابي السنة للبغوي - ١٨ - والكشاف للزمخشري - ١٩ - وأحكام القرآن للإشبيلي - ٢٠ - والشفا للقاضي عياض - ٢١ - والمناقب لموفق بن أحمد - ٢٢ - وتاريخ دمشق لابن عساكر - ٢٣ - والتفسير الكبير للرازي - ٢٤ - وجامع الأصول لابن الأثير - ٢٥ - وكتب متعددة لابن بطريق - ٢٦ - وأسد الغابة لابن الأثير - ٢٧ - والتذكرة لابن الجوزي - ٢٨ - وكفاية الطالب للكنجي - ٢٩ - ومطالب السؤول لابن طلحة - ٣٠ - وأحكام القرآن للقرطبي =

تواتر في أي حديث مهما اختلف النقل في نزولها في: أيٍّ من بيوت: فاطمة بنت النبي ﷺ؟ أو أم سلمة؟ أو عائشة؟ أو زينب؟ مما يدل على شرف

= - ٣١ - وشرح المهذب للنووي - ٣٢ - وأنوار التنزيل للقاضي البيضاوي - ٣٣ - وذخائر العقبى لمحب الدين الطبري - ٣٤ - والمدارك للنسفي - ٣٥ - ومشكاة المصابيح للخطيب التبريزي - ٣٦ - وتفسير ابن كثير القرشي - ٣٧ - ومجمع الزوائد للهيثمي - ٣٨ - والفصول المهمة لابن صباغ - ٣٩ - والإصابة لابن حجر العسقلاني - ٤٠ - والكافي الشاف له - ٤١ - وفتح الباري له - ٤٢ - وتلخيص المستدرك للذهبي - ٤٣ - والحدائق الوردية لليماني - ٤٤ - وتفسير النيسابوري - ٤٥ - وروضة الأحباب للدشتكي الشيرازي - ٤٦ - والدر المنثور للسيوطي - ٤٧ والخصائص له - ٤٨ - والإتقان له - ٤٩ - والإكليل له - ٥٠ - والأبطال لابن روزبهان - ٥١ - وحبيب السير لخواند مير - ٥٢ - والصواعق المحرقة لابن حجر - ٥٣ - ومناقب مرتضوي للترمذي الكشفي - ٥٤ - ومنتخب كنز العمال لعلي المتقي ٥٥ - والسراج المنير لسراج الدين الخطيب - ٥٦ - والمناقب لابن النقيب - ٥٧ - والسعدية للغيثي - ٥٨ - وبحر المناقب للبلخي - ٥٩ - وشرح الفقه الكبير لعلي القاري - ٦٠ - وشرح الجامع الصغير للمناوي - ٦١ - وأرجح المطالب لشمس الدين - ٦٢ والكافية لشرف الدين - ٦٣ - والسيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي - ٦٤ - ومدارج النبوة للدهلوي - ٦٥ - والمناقب للزرقاني - ٦٦ - والإتحاف لحب الأشراف للشراف للشبراوي - ٦٧ - وإسعاف الراغبين لمحمد الصبان - ٦٨ - والروض النضير للحيمي اليماني - ٦٩ - وفتح القدير للشوكاني - ٧٠ - وروح المعاني للألوسي - ٧١ - ونور الأبصار للشبلنجي - ٧٢ - وتشريف البشر للسيد صديق - ٧٢ - ومشارق الأنوار لحسن العدوي - ٧٤ - وكتاب الشرف المؤيد لآل محمد للنبهاني - ٧٥ - ورشفة الصادي للحضرمي العلوي - ٧٦ - وأئمة الهدى للسيد عبد الغفار الأفغاني - ٧٧ - والسيف المسلول للتونسي الكافي - ٧٨ - والقول الفصل للحضرمي الجاوي ويذكر ثمانية عشر رجلاً من أعاظم أرباب الكتب ونقل صحيح الحديث عن ستة عشر رجلاً من فطاحل المحدثين وعد خمسة عشر صحابياً ممن ينتهي إليه الحديث - ٧٩ - والوسيط للواحدي - ٨٠ - والجمع بين الصحيحين للحمدي - ٨١ - وأبو نعيم الأصبهاني في كتابه - ٨٢ - والجمع بين الصحاح الستة للعبدري - ٨٣ - وتلخيص المستدرك للذهبي - ٨٨ - ومصابيح السنة للغوي - ٨٩ - وتهذيب الأسماء واللغات للنووي - ٩٠ - والرياض النضرة لمحب الدين الطبري - ٩١ - وتاريخ الإسلام لشمس الدين الذهبي - ٩٢ - والعقد الفريد للأندلسي - ٩٣ - والمقتل للخوارزمي - ٩٤ - والسيرة المحمدية للكازروني - ٩٥ - ومشكل الآثار للطحاوي - ٩٦ - وشرف النبي - ٩٧ - وحسن الأسوة للصديق حسن خان - ٩٨ - وكتاب المرزباني - ٩٩ - والمستدرك للحاكم - ١٠٠ - وكفاية الطالب للكنجي وكتب أخرى.

الموقف لحد تتسابق في انتسابه نساء النبي ﷺ أو أن ذلك تكرر في هذه البيوت! ولأن لفظ عائشة «خرج غداة غد..» فعلّها تعني إلى بيت فاطمة، كذلك وأم سلمة، اللهم إلّا في البعض من حديثيهما!

وفي كتاب إدريس النبي عليه السلام تأييد أكيد لشرف بيت الرسالة المحمدية كما تعنيه آية التطهير وحديث الكساء والتطهير، كما في الأصل السرياني «بارقليطا إيليا طيطه شِبَّر شُبَّير: محمد - علي - فاطمة - حسن - حسين - «هلِيلوه لِثْ شُوقَ مِنّي محمّد اِنّوي دِأَلَهَ»: هللوني فإنه لا إله إلا أنا ومحمد رسولي «إني لِهَوْيَوهْ انا لبرين وارَخ الشِّماي ولا الْ ارْعا ولا البِردس ولا الكَيْهَن ولا الشِمِش ولا السَّعر»: لولاهم لما خلقتك «يا آدم» ولا السماء ولا الأرض ولا الجنة ولا النار ولا الشمس ولا القمر[١]!

ومن بالغ اهتمام الرسول ﷺ بشأن أهل بيته المطهرين عليهم السلام أنه كان يتلو آية التطهير عند صلاة الفجر أو عند كل صلاة على بيت علي وفاطمة حسب مختلف الإحصاء من شهر[٢] إلى أربعين يوماً[٣] إلى ستة أشهر[٤] إلى سبعة[٥] . . . .

(١) راجع كتابنا رسول الإسلام في الكتب السماوية ص ١٣١.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في المسند ٨: ٢٧٤ قال: حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس عن النبي ﷺ أنه كان يمر على باب فاطمة شهراً قبل صلاة الصبح ويقول: الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ...﴾ [الأحزاب: ٣٣] وأخرجه ابن حنبل عن عائشة.

(٣) أخرجه ابن مردويه وموفق بن أحمد وجماعة آخرون عن أبي سعيد الخدري وسالم بن أبي حفصة عن أبي الحمراء.

(٤) أخرجه الطبراني وأبو داود ومالك بن أنس والترمذي عن أبي الحمراء، ومعقل بن يسار وأم سلمة، الحمراء الحسكاني في أنس ٢: ١١ - ٩١ ورواه جماعة عن عفان ورواه عنه عبد الحميد في تفسيره وتابعه جماعة عن حماد منهم إبراهيم السامي، ورواه أيضاً الأسود بن عامر - شاذان وحجاج بن منهال وعبيد الله محمد العبس عن حجاج وعن البغوي ورواه موسى بن إسماعيل التبوذكي.

(٥) أخرجه محمد رضى المالكي عن أبي الحمراء.

أو ثمانية[١] أو تسعة[٢] أو عشرة[٣] أو سنة[٤] أو سبعة عشر شهراً[٥] أو منذ نزولها حتى ارتحاله إلى جوار رحمة ربه[٦] تدليلاً على اختصاصها بأضرابهما من أهل بيت الرسالة، ولكيلا ينساهم المسلمون أو يتناسوهم، استمراراً في احترامهم دون اخترام، ولكنهم اضطهدوا ما لا يخلد بِخَلد ويكأنه ﷺ أوصى باضطهادهم وأكّد!

ولقد نرى الاحتجاج بآية التطهير للإمام علي عليه السلام وسائر أهل البيت عليهم السلام في مختلف الحقول، كضرورة لا مرد لها فيتسلمها المحجوجون كلهم بكل قبول دونما ريبة ونكول!

ولولا هذه الأحاديث لم تكن الآية لتشمل غير أهلها لمكان «إنما» الحاصرة لتلك الطهارة بأهل البيت عليهم السلام و﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ تعني إرادةً لدنية

(١) أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء وعن أبي سعيد الخدري ورواه الحاكم عن ابن شاهين عن الأشعث وعن السبعي في تفسيره.

(٢) أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس (الدر المنثور ٥ : ١٩٩) والثعلبي عن أبي الحمراء وموفق ابن أحمد عن أبي سعيد الخدري.

(٣) أخرجه محمد بن عمران المرزباني بسنده إلى أبي الحمراء فقال: قدمت رسول الله ﷺ نحواً من تسعة أشهر أو عشرة فرأيته... وفي ينابيع المودة ٢٦٠ ويروى هذا الخبر بأسانيده عن الثلاثمائة من أصحابه منهم من قال: ثمانية أشهر ومنهم من قال عشرة أشهر أقول هذا الخبر يشير إلى خبر مروره على بيت فاطمة عليها السلام.

(٤) أخرجه جماعة.

(٥) في ملحقات إحقاق الحق ١٤ : ٨٠ أخرجه الطبري بسند عن أبي الحمراء والحافظ نور الدين علي بن أبي بكر عن أبي برزة.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ...﴾ [الأحزاب: ٣٣] أقول: ظاهر (كان) استمرارية مقالته ﷺ تلك منذ نزول الآية حتى ارتحاله وعن داود السبيعي عن أبي الحمراء مثله ورواه جماعة عن أبي عاصم النبيل وأخرجه عنه عبد بن حميد في تفسيره ويعقوب بن سفيان ويونس بن أبي إسحاق السبيعي.

مستمرة مدى حياة العصمة القمة لهم مهما اختلفت درجاتها قبل النبوة والإمامة وبعدها، واختلفت طولهما حيث التكامل لا يستثنيهم!

أترى أنها إرادة تشريعية في النفي والإثبات «ليذهب ويطهِّر»؟ وهي تعم المكلفين أجمعين! أم تكوينية؟ فكذلك الأمر حيث التوفيق لمن سلك سبيل الهدى وترك الردى موعود لهم من الله! ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[1] أم تخص تكوين العصمة القمة في بُعدي السلب والإيجاب؟ وليس محطُّ الإرادة هذه يمتاز على مَن سواه، حيث الإرادة من الله، فالعصمة. إذاً - هي فقط من فعل الله!

إنه إرادة العصمة تكوينية بين الأمرين، عصمة بشرية كأفضل ما يستطاع، وليست بالتي تعصم صاحبها عصمة مطلقة، حيث الطاقة البشرية ليست مطلقة، بل هي مقدَّرة بقدرها وقُدُراتها، ثم عصمة إلهية تُكفيِّها فتجعلها مطلقة في الدرجة التي يعنيها دونما فوضى، وإنما بحساب ومقدار، وكل شيءٍ عنده بمقدار.

إن الرسالة الختمية تتطلب خاتمة العصمة القمة، محاولة بشرية كأفضل ما تكون وأعضله تتوسط إرادة الهية من قبل ومن بعد، فمن قبل قدّر أهل بيت العصمة المحمدية في أصلاب شامخة وأرحام مطهرة، لم تنجسهم الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسهم من مدلهمات ثيابها، تقديراً لظرف لائق فائق تتمكن فيه كافة المجالات لأفضل المحاولات البشرية لإعداد العصمة القمة.

ثم حاولوا كأفضل ما يمكن وأعضله تطهيراً لأنفسهم الزاكية لمدى اللياقة واللباقة لإرادة العصمة العليا، فعصمهم الله تعالى بما قدر وحاولوا، بما أراد وأرادوا!

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

فـ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ تشمل مثلث أحوالهم بما في أوسطه من محاولة بشرية بتوفيق الله، إرادة دائبة منذ فُطموا، حتى ارتحالهم إلى جوار رحمته تعالى، مهما اختلفت درجاتها بظروفها.

تلك الإرادة القاطعة الإلهية لزامهم منذ كانوا، تعصمهم عن كل رجس وتطهرهم تطهيراً، فما هو الرجس وما هي الطهارة؟

الرجس لغوياً هو كل قذر مادي أو معنوي، ما يستقذره الإنسان مادياً أياً كان، أو معنوياً أياً كان، فهو أعم من النَّجس إذ يخص القذر المادي، كما ويوصف به الرجس «أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم».

ولأن الأقذار الجسمانية هي لزام كل إنسان مهما يومر بالتجنب عنها من أحداث وأخباث، فإذهابها يخص جماعة خصوصاً فلا تعنيها الإرادة الإلهية الخاصة بأهل بيت الرسالة المحمدية، كما وأن الرجس في القرآن لا يعني القذارة المادية في سائر آياته، وإنما مرض القلب: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[1] وعمل الشيطان: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾...[2] واتباع الشيطان: ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3] ومعبوداتهم: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾[4] وختم القلب على الذين لا يعقلون: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[5] وكذلك كل أكلة تحوِّل الإنسان إلى حيوان كـ ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾[6] وقبله الميتة والدم المسفوح لم يشملهما الرجس مع أنهما من

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٥.
(٤) سورة الحج، الآية: ٣٠.
(٥) سورة يونس، الآية: ١٠٠.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

النجس، وكالعذاب على الرجس فإنه رجس على رجس: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾[(١)] ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)]!

هذه جماع الآيات التي تضم الرجس كلها تعني الرجاسة المعنوية، وهي هي التي تُرجس الإنسان وتخرجه عن العقلية والإيمان ورحمة الرحمن!

ولأن مرض القلب وعمل الشيطان واتّباعه دركات يشملها الرجس، فذهابه أيضاً درجات يشملها إذهاب الرجس، والجنس المحلى باللام يستأصل نفسه في نفيه.

إذاً فجنس الرجس أياً كان بعيد عنهم وعن ساحتهم من رجسٌ الفطرة والعقلية والفكرة والصدر والقلب والنية والعمل «وكل إنسان يعمل على شاكلته» لا غبرة على أرواحهم، وإنما نور على نور، لا ينقصهم إلّا أنهم مخلوقون، ثم الفقر إلى ربهم فخرهم.

كل قلب يتقلب إلى غير الله إلا تذرعاً أو تضرعاً إلى الله، فيه رجسٌ قدر اتجاهه إلى غير الله، وكل اتجاه في أدقِّ منحنيات الحياة ومتجهاتها إلى غير الله رجسٌ، والمتدلي بالله دونما إبقاءٍ لغير الله خارج عن كل رجس، وهكذا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾...!

أترى بعدُ أن إذهاب الرجس عنهم هو رفعه عن ساحتهم بعد كونه؟ ولا يذهب رجساً هكذا إلّا بتوبة أم أي تكفير يناسبه! وهذا يعم سائر أهل الرجس دون اختصاص! وهذا من فعل صاحب الرجس أن يذهب رجسه بتوبته! والعصمة لا تحل محلّ الوصمة! اللهم إلا في أدنى أدانيها بمعصية صغيرة بعد توبة كآدم: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾[(٣)].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧١. (٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.

إنه إذهاب لكل رجس بدفعه عنهم حين يعتريهم أو يهاجم عليهم ببواعثه، تسديداً لهم بما حاولوا وانتجبهم الله - عن كل رجسٍ، شكاً في قلب، أو جهلاً بواجب الشرعة أو المعرفة، أو خطأً في فكر، أو زلقاً في فعل، في عصمة عليا بمثلثها: تلقياً للوحي - وإلقاءً له - وتطبيقاً إياه.

هنالك محاولات بشرية لإذهاب الرجس عن أنفسهم رفعاً أو دفعاً، وليست لتكفي استئصالاً لكل رجس، وأهلُها مخلِصون!

وهنا إرادة دائبة إلهية تكفي محاولات قمة من أخلص المخلصين، فتستأصل عنهم كل رجس وأهلها مخلَصون، وهكذا ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وكما ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ يجتث في نفي الجنس كل رجس، كذلك ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ يختص بإثبات كل طهارة، فالسلب مطلق كما الإيجاب، والإيجاب مطلق كما السلب، تخلية عن كل نقص إلّا أنهم مخلوقون، وتحلية بكل كمال دون أنهم ليسوا بخالقين، فقد يصدق فيهم ما يقال عنهم «نزلونا عن الربوبية وقولوا فينا ما شئتم»:

زاحمد تا أحد يك ميم فرقست همه عالم در آن يك ميم غرقست.

هنا طهارة متصلة بهم، متعرقة فيهم، متزرعة في قلوبهم، هي العصمة الضافية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ...﴾! تكوينية وتشريعية فواجب الحفاظ على الشرعة تشريعاً فيهم، يوازي واجب العصمة الموهبة لهم تكويناً، عصمة بشرية تتصل بها وتحل فيها عصمة إلهية دونما فوضى جزاف، فكل درجة من العصمة الإلهية تتطلب كظرف لها عصمة بشرية تقتضيها، فـ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ إرادة تشريعية ما لم يُردها من أحد العالمين، إرادتان منحصرتان لهم وفيهم، منحسرتان عمن سواهم، فلا يُطلب من أهالي سائر البيوت الرسالية ما يُطلب من أهل بيت الرسالة المحمدية ﷺ من مدارج التقوى والعبودية والاجتهاد

الاضطهاد في سبيل الله، وكما يروى عنه «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت» وقال عنه ربه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾[1] فلو لم يكن هو أوّل العابدين على ضوء الرعاية القمة للشرعة لم يكن أوّل المعصومين في إرادة تكوينية.

وهناك طهارة منفصلة عنهم، وهي للمتصلين بهم، المنسوبين إليهم، يريدها الله منهم للحفاظ على محتد الطهارة لأهل بيت النبوة الأصول، فطهارة نساء النبي وأقربائه وأنسبائه لها تأثير منفصل في طهارته عند الناس، وليس الله ليريد الطهارة لأهل بيت الطهارة أنفسهم ثم يهمل طهارتهم عند الناس، فليكونوا وجهاً عند الله ليصلحوا دعاة إلى الله، ووجهاء عند الناس ليتجه بهم الناس إلى الله.

لذلك تحل آية التطهير محلات نساء النبي ﷺ لتحمل تطهيرهن إلى تطهيرهم، ولذلك نرى في الأكثرية المطلقة من روايات التطهير ليس الرسول ﷺ ليرضى دخول مثل أم سملة الطاهرة في أهل البيت المعنيين بآية التطهير، اللّهم إلّا شذراً بقوله: «إن شاء الله» أنها قد تدخل في أهل البيت دخولاً منفصلاً إذا أصلحت وقنتت لله ورسوله، فطهّرت أهل هذا البيت وجاه الناس بعد طهارتهم عند:

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾

﴿وَاذْكُرْنَ﴾ أنتن نساء النبي، القاطنات في بيت الوحي والتنزيل

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾... فأنتن أحرى من يُذكر فيتذكر، لنزول الوحي ابتداءً في بيوتكن، ولانتسابكن إلى النبي ﷺ فلكن ضعف الثواب وضعف العذاب، ثم: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾... هذه الصفات الكثيرة الغزيرة التي جمعت في هذه الآية تتعاون في تكوين النفس المسلمة.

وتلك هي عشرة كاملة، لا بد أن تكون عشيرة المسلمين على درجاتهم، من إسلام وإيمان وقنوت وصدق وصبر وخشوع وتصدّق وصيام وحفظ للفرج وذكر الله كثيراً: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ كلهم ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾

والخطوة الأولى هي الإسلام الاستسلام أمام الله، إقراراً باللسان، ثم الإيمان تصديقاً بالجنان، ثم القنوت الطاعة الناشئة من الإيمان، ثم صدق في الطاعة والإيمان، ثم صبر على أخطار الصدق والإيمان، ثم خشوع في الجنان يربط كل جوانب الإنسان، ثم تصدق في هذه السبيل بمال أو حال أو مقال على أية حال، ثم صيام في شهر الصيام وفي كل مجال، ثم حفظ للفرج عما يجب حفظه، ثم ذكر الله كثيراً في قال وحال وأعمال.

إنه لا فرق بين قبيلي الرجال والنساء في فضيلة الأعمال أم رذيلتها، مهما كان ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1] حيث القوامة هنا غيرها هناك في يوم الحساب، فرب قائم بأمر، ولي على أمر يرجح عليه المولى عليه لرجاحة الأعمال.



(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾

إن تزويج زينب بنت جحش من زيد بن الحارثة ومن ثم تزويجها من رسول الله ﷺ يحمل بعدين عميقين من أبعاد التربية الإسلامية، فأول البُعدين هو تحطيم الفوارق الطبقية وحتى بين الأحرار والعبيد، فيزوج النبي ﷺ مولاه زيداً من شريفة بني هاشم بنت عمته، ليُسقط هذه الفوارق أولاً بنفسه وفي أسرته، ثم يتزوجها هو ﷺ ليحطّم عملياً سنة التبنيّ وحرمة الزواج بحليلة المتبنى، ولم يكن ليكتفي في تحطيم هذين الصرحين الجاهليين بالقول فقط أم فعلٍ من غيره، فليدخل هو بنفسه في الميدان ليؤتسى به في الأمة الإسلامية مع الأبد.

إن الله يقضي أمر الزواج بين زيد وزينب لتقرير مبدأين جديدين في الأمة، ولكن زينب يخلد في خلدها شيءٌ من ذلك الزواج قائلة له ﷺ بعدما خطبها لزيد: «أوأمر نفسي فانظر»[1] فأنزل:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾:

هنا ﴿قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ لا تعني إلا التشريع من الله، ثم بلاغ الشرعة من رسول الله، أم وولاية الرسول على المؤمنين فيما يأمر وينهى كولي لأمر الأمة فإنه ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾[2]!

هذه الآية تقرر قراراً حاسماً على الكتلة المؤمنة أن ليست لهم خيرةٌ من أمرهم إذا قضى الله ورسوله أمراً سواء أكان من أمورهم الشخصية أو الجماعية في أي حقل من الحقول، في أحكام جامعة كسائر الشرعة، أم خاصة كذلك الزواج الصارم لما يحمل من بعدين، تبنياً لصرح الأمة على ما يريد الله وتقتضيه مصلحة الأمة.

﴿وَمَا كَانَ﴾ هنا وفي سواها نفيٌ يضرب إلى الأعماق، يعني نهياً صارماً

---

(١) الدر المنثور ٥: ٢٠٠ - أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال: إن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها قالت لست بناكحته قال: بلى فأنكحيه قالت: يا رسول الله ﷺ أوامر نفسي فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية قالت: قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً؟ قال ﷺ: نعم قالت إذاً لا أعصي رسول الله قد أنكحته نفسي وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسباً وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ...﴾ [الأحزاب: ٣٦] وفيه عنه قال رسول الله ﷺ لزينب: إني أريد أن أزوجك زيد بن حارثة فإني قد رضيته لك قالت: يا رسول الله ﷺ لكن لا أرضاه لنفسي وأنا أيّم قومي وبنت عمتك فلم أكن أفعل فنزلت، الآية وفيه عن قتادة قال خطب النبي ﷺ زينب وهو يريدها لزيد فظنت أنه يريدها لنفسه فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت فأنزل الله هذه الآية.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

لا قِبَل له، والانتهاء به قضية أصل الإيمان، وإلّا فلا إيمان ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ . . . و﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ يستأصل كون أية خيرة لهم إلّا ما قضاه الله ورسوله، وحتى إذا كانت خيرة الاستئمار من أنفسهم أو الشورى بينهم، ثم اختيار ما قضاه الله ورسوله!

فأدنى درك من العصيان هو خيرة كهذه التي توافق قضاء الله، وأسفل دركٍ منه بدار العصيان دونما تفكير، وأوسطه العصيان بعد استئمار أو شورى، و﴿ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ تستأصل الثلاثة، ثم لا تبقى إلّا الطاعة المطلقة دونما خيرة من أمرهم في جانحة ولا جارحة، وإنما مطلق الاستسلام! ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ تشمل الثلاثة ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ مهما اختلفت دركات الضلال والعصيان!

إن قضاء الله كوحي خاص في تشريع يحمله رسول الله في بلاغ الشرعة ثم قضاءه كوحي عام قضاءٌ لرسول الله كولي لأمر الأمة بما أراه الله، هو ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ فـ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1] مهما كان بلفظ القرآن أو السنة، أو كان حكماً سياسياً أمّاذا من أحكام، فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2]!

و«إن كنت لا تطيع خالقك فلا تأكل رزقه، وإن كنت واليت عدوه فاخرج من ملكه، وإن كنت غير قانع برضاه وقدره فاطلب رباً سواه»![3] «يقول الله: من لم يرض بقضائي ولم يؤمن بقدري فليلتمس إلهاً غيري»[4]

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١.
(٣) نور الثقلين ٤: ٢٨٠ ح ١٢٣ في كتاب التوحيد بإسناده إلى الأصبغ بن نباتة قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: . .
(٤) المصدر ح ١٢٤ فيه بإسناده إلى الحسين بن خالد عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول قال الله جل جلاله: . .

وقال رسول الله ﷺ: «في كل قضاء الله عَزَّوَجَلَّ خيرة للمؤمن»[1].

فالله يقضي زواجاً بين قريبة الرسول الشريفة في قومها وبين عبده قضاءً على سنة الفوارق ولا خيرة إذاً دون خيرة الله! ثم الله يقضي زواج رسوله بحليلة دعيِّه قضاءً على سنة جاهلية أخرى وفارقة أخرى فارغة كما الأولى، وليس للمؤمنين إلّا التسليم لقضائه! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل! ولا سبيل مستقيماً إلا الاستسلام المطلق أمام قضائه دون اختلاج خالجة في ضمير، ولا سيما في الأقضية التي تتبنى الإسلام، أصولاً يؤتسى بها على طول الخط، ولا بد من تجاوب من الأمة مع الرسول ﷺ في تبنّي صرح هذه الرسالة السامية. فإن يداً واحدة لا تصفق!.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧﴾:

هذا زيد بن حارثة ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالتربية المحمدية قبل الإسلام وبالإيمان بعده وأنكحه شريفة بني هاشم بنت عمة النبي ﷺ ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ في أحضانه بتربية صالحة وعتقه وإنكاحه بنت عمك وهي ترغبك دونه!. تقول له بعد منازعة مستمرة بينه وبينها ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وقضى الله إطلاقها لينكحك إياها هدماً لسنة جاهلية ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وكان تقواه طلاقها في الواقع مهما كانت إمساكها في الظاهر ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ من فرض زواجها لك بعده كما أبداه في إذاعة قرآنية ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾... وليس مما أخفاه ﷺ في نفسه أنه عشقها رغبة الجنس لما رآها تغتسل كما اختُلق

(١) المصدر ح ١٢٥ وقال رسول الله ﷺ: ..

عليه! ويشهد له ﴿مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ وما أبدى الله إلّا أصل الزواج ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾!

﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ إن أبديت أمرك فيها أن يقولوا طمع في حليلة دعيِّه، كما انطلقت ألسنة المنافقين: «تزوج حليلة ابنه»! ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ في تحقيق قضائه، دون أن تخشى الناس في خشيته، فإنما خشية بلا وسيط!.

أترى الرسول ﷺ في هذه المعركة الصاخبة خشي الناس ولم يخش الله؟ وهو أخشى الله من كل ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ وهو أبلغ من ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فأخشاهم لله فإنه ﴿أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾[(١)]؟.

إن خشية الله خشيتان، خشية عن طريق الناس وقد خشيه عنهم فأخفى في نفسه ما الله مبديه، لكيلا يمس من كرامة رسالته بما يتقوّله الناس، وكما خشيهم في بلاغ رسالة الولاية ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾...[(٢)]. وخشي أزواجه في قصة مارية فحرمها على نفسه خشية تظاهرهن عليه ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾[(٣)]؟ فآمنه الله عما يخشاه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[(٤)] في بلاغ الولاية ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[(٥)] في مارية ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ في زينب.

فقبل أن يؤمنه الله بأس الناس ما كان ليأمنهم أن يمسوا من كرامة رسالته، وكان عليه حفاظها تقديماً للأهم على مهمه، ثم الوحي الحبيب من

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٣) سورة التحريم، الآية: ١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٥) سورة التحريم، الآية: ٤.

الحبيب آمنه بأسهم، فنقله من خشيته تعالى من طريق الناس، إلى خشية خالصة لا وسيط لها ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾!

فذلك - إذاً - انتصار له في صيغة عتاب ولا عتاب، فإنه يبرأ ساحته الرسالية في هذه الإذاعة القرآنية عن كافة التقوُّلات الموجهة اليه: إنه رآها فأعجبته[(١)] أما ذا من هرطقات جاهلية وهُراءات عراء وساحة الرسول منها براء!.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾:

لقد كان لزيد منها وطرٌ: نهمة وحاجة مهمة، قضاءً على سنة جاهلية في التفاخر بالأنساب، ووقاءً لشهوة الجنس، والأول مقضي بمجرد الزواج ولكنما الثاني باق ما بقي صاحب الجنس في إربته، ثم ولا يحل لزوجته زواج آخر ما دامت في حبالته وإن قضيت إربته، فكيف ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾

إن نهمة الجنس وشهوته قد تنقضي بطبيعة الحال ولم تنقض من زيد وهو في شَبَق الشباب، وزوجه شريفة جميلة! وقد يقضيها هو بأسباب أخرى

(١) في نور الثقلين ٤: ٢٨٠ ح ١٢٧ عن أبي جعفر الباقر عليه السلام فيما رواه القمي عن أبي الجارود عنه عليه السلام في الآية وساق القصة إلى: ثم إنهما تشاجرا في شيء إلى رسول الله فنظر إليها رسول الله فأعجبته...

وفيه ح ١٣٠ عن الإمام الرضا عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قصد دار زيد بن حارثة في أمر أراده فرأى امرأته تغتسل فقال لها: سبحان الله. الذي خلقك... فلما عاد زيد إلى منزلة أخبرته امرأته بمجيء الرسول وقوله لها فلم يعلم زيد ما أراد بذلك فظن أنه قال ذلك لما أعجبه من حسن فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن امرأتي في خلقها سوء وإني أريد طلاقها فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أمسك عليك زوجك واتق الله...

أقول: إنهما ولاسيما الثاني مختلق على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلو أراد زوجها شهوة لبادر إليها قبل تقديمها لزيد وقد كانت تريده صلى الله عليه وآله وسلم ثم كيف يدخل الرسول بيتاً دون استئناس من أهله لحد يرى امرأة أجنبية تغتسل فتعجبه ويقول مقالته؟!

ولم تنقض، من عدم الوفاق لحد ينجر إلى الفراق فذلك قضاء وطر أوّل نهمّة وشهوة، أن يطلقها في طهر لم يواقعها فيه، فلو لم يقض وطراً منها لم يطلقها، ثم إن بقي له وطر منها راجعها في عدتها ولم يراجعها! فقد قضى منها وطراً ثانياً وأخيراً إذ سرّحها دونما رجعة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ حيث تم الزواج إذ تم قضاء الوطر بتمام العدة!.

فهنالك للزوج وهناك للزوج أوطار أخرى كحاجة وتمايلة إلى زوجه بعد الطلقة الثانية، ثم بعد الثالثة بمحلِّل حيث يعقد عليها بعده، ثم وطر بعد وطر حتى تبلغ الطلقات تسعاً بمحلّلين ثلاثة، ولا وطرَ له بعد الطلقة التاسعة حيث تتحقق بها الحرمة المؤبدة.

وأولى الأوطار التي يحل فيها زواجها بزوج آخر هي في الطلقة الأولى بمضي عدتها دون رجعة منه في الرجعية أو منها في المختلقة والمبارأة حين يقبل رجوعها.

و﴿وَطَرًا﴾ هنا مطلق يشمل قبل الطلاق وبعده ولمّا تخلص العدة، ويقيده بخلاص العدة قبل الرجعة آيات الرجعة، والمطلقة رجعية زوجة، فلا يحل لها زواج آخر ما دامت في العدة.

وهنا نرى الرسول وهو مأمور بزواجها لنفسه لا ينكحها بنفسه حتى يزوجه الله إياها: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[1] وإن كان يخطبها في ظاهر الأمر[2] . . . .

---

(١) في الدر المنثور ٥: ٢٠٢ - أخرج الحاكم عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: أنا أعظم نسائك عليك حقاً أنا خيرهن منكحاً وأكرمهن ستراً وأقربهن رحماً وزوجنيك الرحمن من فوق عرشه وكان جبرائيل عليه السلام هو السفير بذلك وأنا بنت عمك ليس لك من نسائك قريبة غيري.

(٢) يروي الإمام أحمد ومسلم والنسائي من طرق عن سليمان بن المغيرة عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها علي» فانطلق حتى=

وقد كانت تفتخر على سائر أزواجه ﷺ بزواجها الإلهي[1]!.

ولماذا ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ ألحظوة الجنس فقط؟ وقد كان له أن يتزوج بها قبل أن يزوجها لغلامه ولم يفعل وهي راغبة إليه ﷺ! أترى الشريفة القريبة إلى النبي ترجِّح غلامه ﷺ عليه، ثم النبي يرجح ثيبة غلامه على البكر؟!

فإنما ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ لسياسة رسالية: «لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً» قضاءً على سنة عريقة جاهلية هي حرمة حلائل الأدعياء اعتباراً أنهم أبناء ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ما كان ليُقضى عليها إلّا عملاً جاهراً من الرسول نفسه وقد فعل بأمر الله ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

فقد قضى الرسول ﷺ على جاهلية الفوارق الطبقية في بعدي تزويجه شريفة بعبد، ثم تزويج زوجة عبده لنفسه، ومن ثم جاهلية حرمة حلائل الأدعياء قضاء على كونهم أبناء، ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية في حياة المجتمع ليمضي بسهولة، حيث التقاليد الاجتماعية أعمق أثراً في النفوس

= أتاها وهي تخمر عجينها قال: لما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكحت على عقبي وقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ بذكرك قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي عزّ وجلّ فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن.

(١) في الدر المنثور ٥: ٢٠٣ - أخرج الطبراني والبيهقي في سننه وابن عساكر من طريق الكميت ابن يزيد الأسدي قال حدثني مذكور مولى زينب بنت جحش قالت: خطبني عدة من أصحاب النبي ﷺ فأرسلت اليه ﷺ أخي يشاوره في ذلك قال ﷺ فأين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها؟ قالت: من؟ قال ﷺ: زيد بن حارثة فغضبت وقالت تزوج بنت عمتك مولاك ثم اتتني فأخبرتني بذلك فقلت أشد من قولها وغضبت أشد من غضبها فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ...﴾ [الأحزاب: ٣٦] فأرسلت إليه زوجني من شئت فزوجني منه فأخذته بلساني فشكاني إلى النبي ﷺ فقال له: إذا طلقها فطلقني فبت طلاقي فلما انقضت عدتي لم أشعر إلا والنبي ﷺ وأنا مكشوفة الشعر فقلت هذا أمر من السماء دخلت يا رسول الله بلا خطبة ولا شهادة؟ قال: الله المزوج وجبريل الشاهد.

من أن تزول بسنِّ القوانين المجردة، إلا أن يسنها ويطبقها الرسول عملياً في نفسه، ويواجه المجتمع بهذه العملية الصارمة التي لا يستطيع أحد أن يواجه بها ذلك المجتمع الصلد العارم!

يأتيه ﷺ زيد مرة بعد أخرى يشكو اضطراب حياته الزوجية، والرسول ﷺ يحمل أمر الله في تزويجها لنفسه، ولكنه يحسُّ ثقل التبعة إن أظهر أمره - على نفاذ رسالته، فهو على شجاعته في مواجهة قومه في أمَّر أمر من العقيدة المضادة لما يعتقدون، دون أية لجلجة ولا خشية، إذ ما كانت لتمس من ساحة رسالته، نراه هنا متلجلجاً يخشاهم على رسالته خشيةً من ربه أن تتهدّم أركان دعوته بما يتوقعه من مجابهة عنيدة في هذه المواجهة فيقول: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ فأخفى في نفسه فعلاً ما الله مبديه، ويعلم أن الله مبديه، ولكن أين إبداء محمد من إبداء الله؟ إذ هم ليسوا ليعارضوا الله ويتهموه! مهما تجاسروا على معارضة رسول الله ﷺ، إذ جاء وحيٌ حبيب من الحبيب يُطمئنه بعصمته من بأسهم فنقله من خشيته تعالى بهم إلى خشيته في تعميتهم، فمهما كان حقاً لك أن تخشى الله احتراساً عن الناس حراساً على رسالتك، فالله أحق أن تخشاه إذ يطمئنك عن بأس الناس، فهو الذي أمرك بتحقيق أمره العجيب الإمر، حملاً لأعباء الرسالة مهما كانت ثقيلة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1] وهو الذي يلقي في قلب الزوجين عزيمة الفراق، وهو الذي يزوجك زوجة زيد بعد ذلك الفراق، بولاية قاطعة لا مرد لها ودونما استمارة واستئمار منكما ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ فهو الخاطب لك وهو المجري صيغة الزواج، فيدخل عليها الرسول بمجرد نزول الآية ودونما استئناس، وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة التي حُمِّلها فحملها في مواجهة المجتمع الذي كان يكرهها ويتقول فيها كما تقوَّل

(١) سورة المزمل، الآية: ٥.

البعض من المسلمين والجاهليون والمسيحيون[١]! ولكن ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ لا يمنعه مانع ولا يردعه رادع! إذ:

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾:

ضابطة سارية المفعول ترسمها الآية لحملة الرسالات الإلهية ألّا تقية لهم من الناس في بيان أو تطبيق شرعة الله. فالحرج على أقسام عدة، فقد يتحرج عن أصل الفرض على أية حال فلا يفرض على النبي والأمة على أية حال: فـ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢] وقد يتحرّج لأمرٍ في نفسه يعرضه كمرض يُحرجه في فرضه فهو مفروض إلّا في حرجه للنبي والأمة، وقد يتحرج بتحريج الناس فيتقيهم بتركه، فذلك خاصٌ بالأمة بمن فيهم الأئمة دون الرسول ﷺ إذ لا تقية له، و﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني الثالثة، فإن ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ تثبت فرضه فيخرج المُحرج في أصله، ثم «له» يُخرج المحرج في نفسه، فإنه موضوع عنه وعن الأمة سواء، فليكن هو المحرج الخارج عن نفسه من بأس الناس إذ يحرِّجون موقفه من تطبيق ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ فليس له أن يتقيهم حيث ضمن الله وقايته عن بأسهم كما هنا وفي قصة مارية وقضية بلاغ الإمرة.

---

(١) في الدر المنثور ٥: ٢٠٣ - أخرج الطبراني والبيهقي في سننه وابن عساكر من طريق الكميت ابن يزيد الأسدي قال حدثني مذكور مولى زينب بنت جحش قالت: خطبني عدة من أصحاب النبي ﷺ فأرسلت اليه ﷺ أخي يشاوره في ذلك قال ﷺ: فأين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها؟ قالت: من؟ قال ﷺ: زيد بن حارثة فغضبت وقالت تزوج بنت عمتك مولاك ثم أتتني فأخبرتني بذلك فقلت أشد من قولها وغضبت أشد من غضبها فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ...﴾ [الأحزاب: ٣٦] فأرسلت إليه زوجني من شئت فزوجني منه فأخذته بلساني فشكاني إلى النبي ﷺ فقال له: إذا طلقها فطلقني فبت طلاقي فلما انقضت عدتي لم أشعر إلا والنبي ﷺ وأنا مكشوفة الشعر فقلت هذا أمر من السماء دخلت يا رسول الله بلا خطبة ولا شهادة؟ قال: الله المزوج وجبريل الشاهد.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

ولماذا ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ دون «عليه» لأن الفرض هنا كان «له» حظوة بشرية ودعوةً رسالية، وحتى فيما لا خطوة له فيه شخصية، بل عبءٌ وثقل، فلا يثقل على كاهله، بل يستقبل فرض الله بكل رحابة صدر ورياحة خاطر، فكل فرائض الله «له» لا «عليه» إذ لا يستثقلها على أية حال!

إذاً فليس النبي ليتحرج فيما فرض الله له مهما كان عبئُه وثقله، لا في قرارة نفسه لأنه يحمل الرسالة فعليه ما حمّل، ولا يحق للأمة تحريج موقفه لأنهم مرسل إليهم وعليهم ما حمِّلوا، فلا تقية للنبي فيما يحمله من رسالة الله مهما صعبت الظروف والتوت لأنه يقرر مصير الأمة وعليه تمام المسؤولية، وهذه من سنن الله الثابتة في الذين خلوا من قبل من الرسل مهما تخلّف المرسل إليهم عن هذه السنة ولا يفرض الله لنبي ما لا يطيقه أو يُحيقه مهما كان أمراً إمراً وعبئاً ثقيلاً «وكان» طول الزمن الرسالية ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ لأنبيائه ﴿قَدَرًا﴾ قدره بعلمه وحكمته لصالحهم الرسالي ﴿مَّقْدُورًا﴾ لهم قدر الطاقة لا محرجاً ولا معسوراً.

فهناك يشجع الرسول ﷺ على ذلك الزواج دون تحرُّج من قالة الناس، وعطفاً لخشية الناس في الله إلى خشية الله مجرداً عن الناس وهنا يندد بالذين يحرِّجون موقفه فيما فرض الله له كسنة ثابتة للرسول وعلى الأمة ثم نفي الحرج عن النبي - لا محمد - وفيما فرض الله له - لا عليه - يدلان على أن الفرض هو الفرض الرسالي الذي يقرر مصير الأمة إذاً فلا تقية في بلاغه حتى على نفسه، والله يكفي خشية على رسالته.

وأما المفروض على الأمة فقد يكون فيه حرج وقد لا يكون فيُفعل أحياناً ويترك أخرى ثم ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ في هذه السنة هم:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾:

إنهم رجالات رسالات الوحي حيث يكثرون البلاغ ويشدقون في

رسالات الله التي حمّلوا بلاغها. ويخشونه فقط في سبيل التبليغ، ولا يخشون أحداً إلّا الله، حتى فيما يخشى على ساحة رسالتهم، حيث الله ضامن لهم أمرهم، فـ«يخشونه» تحصر خشيتهم في الله ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تنفي خشيه أي أحدٍ في الله إذ يطمئنهم الله عن بأس من سوى الله في سبيله إلى الله.

والخشية خوف يشوبه تعظيم، فخشية الناس في الله أن يخافوا عُظم ما يفعلون حيث يُغضب الله، فإن كفى الله خطرهم فلا خشية الّا من الله دون سواه وكما كُفي الرسول بأسهم فأمر أن يتحول من خشية الناس في الله إلى خشية الله في الله[1].

ومن الخشية في الله من غير الله خشية العنت، أن يخلف تخلفاً جنسياً ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾[2] وخشية القول الإمر: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[3] وخشية الإرهاق كفراً ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[4].

---

(١) وقد عدت الجمعية الرسالية الأمريكية زواجه ﷺ بزينب في عداد سيئاته قائلين: إنه أخذ امرأة زيد الذي تبناه مع أن قومه عيروه إلا أنه لم يبال بتعييراتهم لأن الشهوة إذا استولت على المجرد من النعمة الإلهية أماتت منه الإحساس، نعم وإن داود وقع في خطيئة الزنا ولكن يوجد فرق جسيم بين الأمرين فلم يأخذ داود امرأة ابنه وثانياً إنه استغفر ربه واعترف بذنبه وتاب أما محمد فجعل هذه الخطيئة سنة لكل إنسان فادعى أن الله أمره بذلك.

ويقول الدكتور فندر الألماني في كتابه ميزان الحق رداً على الإسلام ص ٢٥٤ ومن ذنوبه: إنه في يوم من الأيام يذهب إلى بيت زيد دعيه فلما دخل سبقت نظرته إلى امرأة زيد فأعجبته وشغفها حباً فقال: سبحان الله خالق النور تبارك الله أحسن الخالقين فشعرت زينب بذلك فأخبرت به زوجها زيد فطلقها زيد إما خوفاً من محمد أو حباً وإخلاصاً له فاختلق محمد الآيات التالية أن أمره ربه بنكاح زينب...

أقول: هذه وتلك من القالة التي قيلت عليه من المسيحيين فتسربت قالتهم إلى روايات المسلمين وكما نراها في الدر المنثور ونحن نضربها عرض الحائط لأنها خلاف كتاب الله والثابت من عقمه رسول الله ﷺ.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢٥. (٣) سورة طه، الآية: ٩٤.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٨٠.

فكل خشية في غير الله منهية، وخشية غير الله في الله مرغوبة ما لم يكن هنالك مندوحة كما خشي الرسول الناس مِن قالِهم عليه، وإذا كانت هناك مندوحة كأن يكفي الله بأس ما يُخشى فمنهية بعدما كفى الله، لا قبله، وكما الرسول لم يخش إلا الله بعدما كفاه الله قالة الناس، فخشيته قبله لم يكن بذلك المنهي!

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1] تبليغهم رسالات الله وخشيتهم الله وأجرهم على الله، فلا حسيب في هذه وتلك إلّا الله، كما ليس بلاغهم وخشيتهم إلّا لله وفي الله!

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾:

هذه الآية مما كفى الله بها محمداً بأس قالة الناس: إنه تزوج حليلة ابنه، استئصالاً أن يكون أبا أحد من رجالكم أبوة أصيلة أم رضاعية أم دعيّة هي بالإسلام منفية، فهلا كان أبا إبراهيم والقاسم والطيب والطاهر؟ أجل كان ولكنهم ماتوا قبل رجولتهم، ثم و﴿رِّجَالِكُمْ﴾ لا تشملهم ولو كانوا في رجولتهم، فإنهم - إذاً - من رجاله دون رجالهم! أم لم يكن أبا الحسنين عليهما السلام ومن ثم الأئمة من ذرية الحسين عليه السلام وسواهم من ذريته؟ اجل ولكن ﴿مَّا كَانَ﴾ تضرب إلى الماضي قبل نبوته وبعدها لحّد نزول الآية والحسنان بعدُ طفلان لم يتزوجا حتى يأتي دور حليلتيهما إنهما حلٌّ له أم لا! ولمّا تزوجا كان قد قضى نحبه بزمن بعيد، ثم وهم ليسوا من رجالهم بعد رجولتهم بل من رجاله صلى الله عليه وآله وسلم!

ففيما سبق استأصل بنوة الأدعياء: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾[2] فلم

(١) سورة النساء، الآية: ٦.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤.

يكن زيد بن محمد ﷺ من قبل، حتى تحرم حليلته، وهنا يستأصل أبوته لأحد من رجالكم لا الرجال ولا رجاله، نفياً لأبوته لزيد فتحل له حليلته، أم إمكانية زواجه بحلائل أبنائه، فإنهم بين من توفي في صباه، ومن ترجل بعد موته ﷺ فمن تزوج بها لم تكن حليلة ابنه، ومن تزوج من رجاله فإنما كانت رجولته وزواجه بعد موته، إذاً ففرية زواجه بحليلة ابنه منفية عنه مع الأبد.

إنه ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ تنتسبون إليه بالبنوَّة، وليست علاقته بالمسلمين إلّا علقة النبي بالأمة ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يحمل الرسالة والنبوة القمة الأخيرة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أن لم يجعله أبا أحد من رجالكم وأبطل سنة الأدعياء وجعله ﷺ خاتم الأنبياء.

ولماذا ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بعد ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ لا «خاتم المرسلين» «نبي الله وخاتم النبيين» أو ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فقط؟

إن الرسالة الإلهية هي بعد وحي النبوءة، ولأنها درجات بعضها فوق بعض اختصت العالية بصيغة النبوة من النبوة الرفعة، لا النبأ الوحي(١) ولذلك وصف النبوة يأتي بعد الرسالة دون معاكسة: كما ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾(٢) في موسى و٥٤ في إسماعيل و﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾(٣) في محمد ﷺ حيث الوصف الأعلى يأتي بعد العال، فالنبوة هي منزلة أشرف من الرسالة.

فـ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ تثبت منزلته الثانية مطابقة وقبلها النبوءة الوحي التزاماً، ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ تثبت ثالثة هي النبوة، ورابعة هي القمة والأخيرة إنه ختم وتصديقٌ للنبوات، فليكن أفضلهم وآخرهم، فلا نبوة بعده فضلاً عن رسالة

---

(١) لذلك لما يخاطب به نبيء الله يقول: لا تقل يا نبيء الله أنا نبيّ الله.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

أو نبوءَة اللّهم إلّا إلهاماً على هامشه تفهماً لنبوته دونما استقلال! وقد يعني «النبيين» جمع النبيء والنبي معاً، استئصالاً لأية نبوءَة وحي أو نبوة رسالة وبينهما رسالة الوحي فذلك المثلث السامي مسلوب بعد نبوته، مصدَّق لمن قبله به، فلا نبيءَ بعده ولا رسول ولا نبيَّ حيث «ختم به الوحي»! فلو قال «خاتم النبيئين» لكان هنالك مجال الرسالة بعده أو نبوّة! ولو قال «خاتم المرسلين» لكان بعده مجال النبوة، فلما قال: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ زال كل مجال من مثلث الوحي على أية حال!

وحتى إن كان جمعَ النبي فكونه خاتمهم يقتضي انقطاع الوحي به، فلماذا يوحي بعده، أتكميلاً لما أوحي إليه كما في ولي العزم الآتي بعد سابقه؟ وهو خاتم النبيين فلا أفضل منه ولا يسامى! أم حفاظاً وتصديقاً لوحيه عن تطرق التحريف كما كان يوحى إلى أنبياء بعد أولي العزم بهذا الصدد؟ وقرآنه محفوظ بحفاظ الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[١] فلماذا الوحي بعدُ، اللهم إلّا إلهاماً لعترته المعصومين، تفصيلاً لما أجمله من كتاب أو سنة، فإن دور الإمامة لا يعني إلّا نشر الرسالة بتفاصيلها الواقعة، دونما زيادة ولا نقيصة. فكل رسولٍ بعد ولي عزم من الرسل كانت رسالته وقائية غير مكملة لما كانت مع ولي العزم، فإنما كان يوحى إليه ما أوحي من قبل ليواصل رسالته متحللة عن كل تحريف. وهذه الرسالة السامية معصومة بكتابها القرآن العظيم، وهو العاصم لها عن كل ما يُتقوّل عليها دونما حاجة إلى رسالة متواصلة بعدها، ثم الائمة المعصومون يوفون أكثر مما يوفى بأية رسالة وقد فعلوا!

إن أفضل النبيين هم الخمسة الذين دارت عليهم الرحى وهو خاتمهم الذي يرأسهم لأن في تصديقه لهم إثبات كيانهم، وكما أخذ الله ميثاقهم

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

بالإيمان به والنصرة له: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[١].

لذلك نرى «النبي» بمختلف صيغه في سائر القرآن أقل من «الرسول» كذلك[٢] مما يوحي بقلة النبيين بين المرسلين، وحين تُذكر النبوة بعد الرسالة لا نجد من الخمس إلّا محمداً وموسى، ومن سائر المرسلين إلا إسماعيل وإن كان سائر الخمس وجماعة من المرسلين نبيين.

ثم رسالته الإلهية هي القمة لحد يُلمح كأنه الرسول لا سواه حيث «الرسول» معرفاً لا نجده إلّا إياه (٨٤) مرة وكذلك «النبي» (٣٣) مرة لا يعني إلّا إياه، مما يُطمئننا أن الرسالات والنبوات الإلهية مركزة في جنابه ﷺ وسائر الرسل والأنبياء إنما جاؤوا لتعبيد الطريق لهذه الرسالة النبوة السامية!

فهو هكذا «رسول الله» وهكذا «نبي الله» لا فحسب بل ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ حيث ختم النبؤآت والرسالات والنبوات فلا نبيء بعده ولا رسول ولا نبيٍّ، ولا وحي بعده ولا كتاب، ولا شرعة بعده ولا أي جديد من سماء الوحي! ليس هو - فقط - خاتِم النبيين، بل ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فالخاتم وهو اسم لما يُختم به ويُصدَّق فهو أبلغ من الخاتم وأعمق دلالة على خاتميته للنبوات، فقد بلغ من ختمه النبوات وتصديقه لها إلى حدٍّ سمي بالخاتم كما الرسول والنبي على سواء، دون من يختم كآخر لما يختمه وليس يصدقه، أو قد يأتي

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) النبي (٦٩) مرة والرسول «٣٩٤» مرة لكنهما معرفاً مفرداً لا يعنيان إلا محمداً ﷺ وفي نور الثقلين ٤ : ٢٨٤ ح ١٤٣ في مناقب ابن شهر آشوب عن أنس في حديث طويل سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا خاتم الأنبياء وأنت يا علي خاتم الأولياء وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ختم محمد ألف نبي وإني ختمت ألف وصي وإني كلفت ما لم يكلفوا».

بعده من هو أرقى منه، ولكن موقع هذا النبي من النبيين موقع الخاتم ختام[١] المكتوب حيث يصدقه والمكتوب تحته مكذوب، وكذلك الرسول محمد ﷺ فمدعي النبوة بعده مكذوب والذي لم يصدقه ممن قبله غير مصدق، فهو السطر الأخير من أسطر الوحي يصدِّق ما قبله من وحي، ويكذب ما بعده من دعوى الوحي وكما يروى عنه ﷺ: «إنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»[٢] وهو اللبنة الأخيرة من بناية الرسالة كما يروى عنه ﷺ قوله: «مَثَلي ومثَل النبيين كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة»[٣].

ويوجد العديد من تصريحات خاتميته بطيات بشارات في كتابات الوحي برسالته وكما في الأصل العبراني من كتاب حبقوق النبي الفصل ٣: ٣ - ٦ **إلوهَ متيماه يابوُء وِقادوش مِهرَ اران سِلاه... (٣) ونُغَه كااورتهيه... (٤) هَلِيخوتْ عُولامْ لو (٦):**

الله من يتمان يأتي والقدوس من جبل پاران: فاران - حرى - مع

---

(١) الخاتم ما يختم به وسمي خاتم الزينة به لأن فصه كان يحكّ عليه اسم صاحبه يختم به كتاباته.

(٢) الدر المنثور ٥: ٢٠٤ - أخرج ابن مردويه عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ وفيه أخرج أحمد عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: في أمتي كذابون دجالون سبعة وعشرون منهم أربع نسوة وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي.

(٣) المصدر أخرج أحمد ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: ... وأخرج ما في معناه باختلاف يسير مع الاحتفاظ على الأصل للبخاري ومسلم والترمذي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر عنه ﷺ وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه عن أبي هريرة عنه ﷺ وأحمد والترمذي وصححه عن أُبي بن كعب عنه ﷺ وفي نور الثقلين ٤: ٢٨٤ ح ١٤٤ في روضة الكافي بإسناده إلى علي بن عيسى رفعه قال: إن موسى ناجاه الله تبارك وتعالى فقال له في مناجاته: لا يطول الدنيا أملك - إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: له في وصيته له بالنبي ﷺ: يا موسى إنه أمي وهو عبد صدق ويبارك عليه كذلك فيما وضع يده عليه كذلك كان في علمي وكذلك خلقته به أفتح الساعة وبأمته أختم مفاتيح الدنيا وح ١٤٥ في عوالي اللآلي وقال ﷺ: «أنا أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً».

الأبد.. شعاعه كالشمس.. ومسالك الأزل له» فـ«باران» هو جبل حرى[1]: فاران مطلع النور المحمدي، إشراقه مع الأبد حيث شعاعه كالشمس ومسالك الأزل له، فلا انطفاء لشعاعه إلّا بانتفاء الدنيا.

وفي «نبوءِت هَيِّلد» وحي الطفل حسب الأصل الانقلوسي «محمد كِايا إعابايا دِيُطمع هوُيا وِهيهِي كليليا»: محمد كبير قدير - الشجرة الرفيعة الطيبة - مأمول لإفناء ما كان وإطفاء النائرة، وهو الكُل والتاج وحمل على الأكتاف».

فكونه كُلًّا يفصح أنه مجمع جماع الرسالات الإلهية، وكونه تاجاً على رؤوس رجالات الوحي يجعله أفضلهم، فماذا بعد الأفضل الكُلّ؟! إلا الناقص الكَلُّ؟!

وفي إنجيل يوحنا ١٤: ١٦ حسب الأصل السرياني: «وأنا بِت طالِبن مِن بَبى وَخين بار قَليطا بِت يَبلِ لُوخُون هَل ابَد»:

«وأنا أسأل الآب: الخالق - خالقي - فيعطيكم فارقليطا آخر ليقيم معكم إلى الأبد».

وفارقليطا في الأصل اليوناني: بريكليطوس بمعنى محمد - أحمد، ومحمّد آخر يعني نبياً محموداً في غاية المحمودية هو آخر الآخرين ليقيم معكم إلى الأبد[2].

وليست خاتمية الرسول محمد ﷺ بحاجة إلى سرد الأدلة - وهي كثيرة في الكتاب والسنة لأنها من الضروريات القاطعة الإسلامية حيث تُردف رسالته بخاتميته دونما ريبة، والآيات في مثلث من خاتميته بين المرسلين والنبيين، وخاتمية كتابه بين كتب السماء، وخاتمية شِرعته بين الشرائع تبلغ عشرات.

---

(١) وهذا إجماع مؤرخي العرب أن فاران هو حرى وكما يصرح في سفر التكوين ٢١: ٢١ «وأقام ببرية فاران» يعني إسماعيل بن إبراهيم من هاجر، راجع ص ٤٦ - ٥٣ من كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» تجد تفصيل هذه البشارة.

(٢) راجع رسول الإسلام ١٤٦ - ١٥٧ فيه تفصيل البشارة بفارقليط.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا (٤٣) تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا (٤٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا (٤٦) وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا (٤٧) وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (٤٨) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا (٤٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (٥٠) تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ

ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾:

من لزام الإيمان بالله ذكر الله، وكما الإيمان ليس له حدٌّ أو زمان أو مكان أو حالة خاصة، كذلك ذكر الله على كل حال، فـ «ما من شيء إلا وله حدٌّ ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حدٌّ ينتهي إليه، فرض الله عَزَّوَجَلَّ الفرائض فمن أداهن فهو حدهن وشهر رمضان فمن صامه فهو حده، والحج فمن حج فهو حده، إلا الذكر فإن الله عَزَّوَجَلَّ لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي إليه...»[1].

والذكر في الأصل حالة في القلب تظهر في مظاهر الأقوال والأفعال، ولأن اللسان يتأثر بالقلب في ذكره والقلب يؤثر فيه، لذلك يُسمى ذكره ذكراً وإلا فليس إلّا لقلقة البغبغاء.

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٨٤ ح ١٤٧ في أصول الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد عن جعفر بن محمد الأشعري عن ابن القداح عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ... ثم تلا آية الذكر فقال: لم يجعل الله له حداً ينتهي إليه قال: وكان أبي عَلَيْهِ السَّلَامُ كثير الذكر لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله وآكل معه الطعام وإنه ليذكر الله ولقد كان يحدث القوم ما يشغله ذلك عن ذكر الله وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلا الله وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا ومن كان لا يقرأ منا أمره بالذكر، والبيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب لأهل الأرض والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله تقل بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ألا أخبركم بخير أعمالكم أرفعها في درجاتكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من الدينار والدرهم وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهم ويقتلوكم؟ فقالوا: بلى، قال: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ كثيراً ثم قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال: من خير أهل المسجد؟ فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أكثرهم لله ذكراً وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: من أعطي لساناً ذاكراً فقد أعطي خير الدنيا والآخرة وقال: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ [المدّثر: ٦] قال: لا تستكثر ما عملت من خير لله.

و«لا أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن ذكر الله عندما أحل له وذكر الله عندما حرّم عليه»[١]. فاشتغال اللسان بذكر الله والقلب لاهٍ والعمل متخلف عن شرعة الله، إنه ليس ذكراً، بل هو مهانة واستهتار بالله، فليسكت عن ذكر الله، أو ويذكر الله في حلاله وحرامه!

فـ ﴿ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ تعني كثرة في عِدّة وكثرةً في عُدّة، عِدّة الجوارح والجوانح وعُدَّتها، كثرة العدد بُعددها، ولكلٍّ بكثرته، وكثرة العُدد بحق الذكر وحاقّه، دون أن يترك باطن الذكر إلى ظاهره، أو ظاهره إلى باطنه، أو يترك عُدّته أو عدته أو عِدَّته إلى عُدته وليكن محافظاً على باطن الذكر كمحور أصيل يتبنّاه طول حياته، فذكره بالقلب هو قلب الذكر وسائر الذكر هو قالب الذكر!

فـ ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ بقلوبكم في عَدد وعُددَ، وبألسنتكم في عَدد وعُدَد، في حلكم وترحالكم، وعلى كل أحوالكم، حيث النسيان أياً كان وأيّان يخلِّف قَدَره العصيان لا تقل إن أكثرت ذكر الله بلساني قيل إنه منافق، ما دمت ذاكره بقلبك ولسانك فـ «اذكروا الله حتى يقول المنافقون إنكم مراؤون»[٢] و«حتى يقولوا مجنون»[٣]! فإنما المجنون من لا يذكر الله، والمنافق من لا يوافق لسانه قلبه أو قلبه لسانه!

ذكر الله من مخلقات الإيمان على قدره ومستواه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[٤].

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٢٨٧ ح ١٥٦ في الخصال عن زيد الشحام قال قال أبو عبد الله عليه السلام : ما ابتلي المؤمن بشيء أشد عليه من ثلاث خصال يحرمها، قيل : وما هي؟ قال : المواساة في ذات يده والإنصاف من نفسه وذكر الله كثيراً أما إني لا أقول. . .

(٢) الدر المنثور ٥ : ٢٠٥ - أخرج الطبراني عن ابن عباس وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي الجوزاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : . . .

(٣) المصدر أخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : . . .

(٤) سورة الرعد، الآية : ٢٨.

ولأن في ذكر الله حالة إيجابية ذُكراً لذاته تعالى وأفعاله وصفاته، وقصورنا الذاتي عن أن ندركه سبحانه قد يوردنا موارد الخطأ عند ذكرِه، فلنُشفعه بتسبيحه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، من بكرة إلى أصيل ومن أصيل إلى بكرة كلما ذكرناه تسبيحاً بحمده أم في الوقتين الأصيلين: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، لكي يصفو ذكره عن كل كُدر، وكما في حديث قدسي: «اذكرني بعد الفجر وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما»[1].

فليكن المؤمن بتمام ذاته وتعلقاته ذكراً لله وتسبيحاً، أسوة برسول الله في تحقيق أمر الله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ. . .﴾[2] فيصبح حينئذ من المفرِدين[3] ولأن الرسول هو بنفسه ذكر الله: ﴿ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾ فلا ينسى الله، لذلك لا يشمله خطاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وإنما ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ اتقاءً عن زهوة القرب إلى الله وعما سوى الله.

فاتصال القلب بالله والانشغال عن الله اشتغالاً بالله في مراقبة دائبة، يجعل العبد ذكراً لله وسبحان الله ثم الله يذكره أكثر من ذكره ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[4] وأين ذكر من ذكر؟ يقول الله تعالى: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منه»[5].

---

(١) المصدر أخرج أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ فيما يذكر عن ربه تبارك وتعالى: اذكرني. . . وأخرج أحمد عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: لأن أقعد أذكر الله وأكبره وأحمده وأسبحه وأهلّله حتى تطلع الشمس أحب إلي من أن أعتق رقبتين أو أكثر من ولد إسماعيل ومن بعد العصر حتى تغرب الشمس أحب الي من أن أعتق أربع رقاب من ولد إسماعيل.

(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.

(٣) المصدر أخرج أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: سبق المفردون قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٥) أخرجه البخاري عن رسول الله ﷺ قال قال الله: . . .

ولئن قلت إن بواعث النسيان كثيرة كموانع الذكر، فكيف للعبد الضعيف أن يذكر الله كثيراً؟ فالجواب:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾:

فصلوات الله عليكم هي إنزال رحمته وصلوات ملائكته هي استزادة فيها باستنزال رحمته، رحمتان اثنتان من الله تخلفها المحاولة الدائبة لذكر الله كثيراً، فـ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[1].

هنالك ظلمات تحول دونك والنور، ولكنك بحولك في كل أحوالك بذكر الله، وبحول الله وقوته، سوف تخرج من ظلمات النسيان إلى نور الذكر الإيمان ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: فالنور واحد هو ذكر الله الواحد والظلمات عدة هي ذكر غير الله فنسيان الله، وليس يخرج المؤمن من الظلمات إلى النور إلّا بذكر الله كثيراً فصلوات الله عليه وملائكته إذ لا حول ولا قوة إلّا بالله!

ومن صلوات الملائكة للذاكرين الله استغفارهم: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾...[2] كما ومنها استنزال رحمات اخرى كرفع درجات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾...[3].

نحن نصلي لله والله يصلي علينا وملائكته وأين صلاة من صلاة؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «قلت لجبريل عليه السلام هل يصلي ربك؟ قال: نعم - قلت: وما صلاته؟ قال: سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي»[4].

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧. (٢) سورة الشورى، الآية: ٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.
(٤) الدر المنثور ٥: ٢٠٦ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ قلت...

وقد يجمع هذه الثلاث انعطاف برحمة إنزالاً واستنزالاً وعبودية. فإنه صلة بين هذه الصلوات! وصلوات الله على عباده درجات أعلاها صلواته على رسوله، وأدناها على أدنى المؤمنين وبينهما متوسطات.

فإذ يصلي ربنا علينا فهلا نصلي على عباده الصالحين تخلقاً بأخلاق الله مهما كان خصوصها بخصوص المخلصين(١).

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾:

أتراه سلاماً منهم على الله؟ ولا سلام على الله على أية حال لأنه هو بنفسه سلام فلا يحتاج إلى سلام من عبيده الفقراء إلى سلامه! أم سلاماً من بعضهم على بعض؟ وهو سلام المؤمنين في النشأتين دون اختصاص بـ ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ مهما عمّت النشأتين للمخلَصين والمخلِصين، حيث السلام يوم الدنيا يعم المؤمنين كما في يوم الدين!

إنه سلام من الله عليهم، على من هم ملاقو الله بالمعرفة القمة، وهم السابقون والمقربون وأفضل أصحاب اليمين يوم الدنيا ويوم الدين، وبالنسبة لسائر المؤمنين يخص بيوم الدين:

أترى ما هو الفرق بين صلوات الله علينا وسلامه حيث يختص سلامه بيوم يلقونه وصلواته تعمه ويوم الدنيا أم تخصها؟

إن سلام الله يوم الدنيا يختص بالمصطفين: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ

---

(١) أذكر أنني كنت أصلي على آل محمد لما أصلي على محمد في المسجد الحرام فاعترض عليّ كيف تضيف الآل؟ قلت: لأن الرسول أمرنا أن نضيف إليه الآل، فقيل لي: أحياناً تصلون على أولاد الآل، قلت: إن الله يصلي علينا وبعضنا في أدنى مراتب الإيمان ونحن نصلي على الصالحين من آل النبي وولدهم! قيل لي: فلماذا لا تضيفون الصحب إلى الآل؟ قلت: تأسياً برسول الله إذ أضاف الآل إليه ولم يزد والصلوات درجات لا تجتمع في درجة واحدة لمن هم درجات، فلنصلّ على النبي والآل لأنهم في درجة ثم نصلي على غيرهم من الصالحين كلاً على حدة!

﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾[1] - ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[2] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[4] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[5] ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾[6] وليحيى ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[7] وعيسى ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[8] سلام الله التام على هؤلاء في الأولى كما الأخرى إذ هم ملاقو الله فيهما، فـ ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ بالنسبة لهم، ثم من يحذو محذاهم، فهؤلاء مذكورون على نحو الخُصوص، وأولاء الأتباع تعمهم ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ على وجه العموم، ثم من سواهم سلام الله عليهم يوم الأخرى فإنه يوم لقائهم التام لقاءً دونما اختيار حيث تُكشف الغطاء.

فالسلام في الآخرة يعمهم وكل أصحاب الجنة بعدما سلموا من كل زين: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ كما هنا، ذلك لأن سلام الله خالصاً من اللّاسلام يخص المخلصين أهل السلام، وأما الصلوات فلأنها أعم من هكذا سلام كما للرسول وذويه، ومن سلام الغفران كما لمن يتأتى منه العصيان، فهي - إذاً - تعم من يصلح لرحمته يوم الدنيا ومن جرائها الأخرى وهي أحرى.

وهلّا يلقى الله أهل السلام يوم الدنيا حتى يختص سلامه بـ ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ في الأخرى؟

إن لقاءه تقرباً معرفيّاً بتوفية الجزاء دونما شوب من سلطان سواه، ذلك لا يتحقق إلا يوم الأخرى، اللّهم إلّا لمثل القائل: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً» حيث الغطاء الدنيا لا تغطي عليه ربَّه فهو ملاقٍ الله طول الحياة

---

(١) سورة النمل، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٨١.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٧٩.
(٤) سورة الصافات، الآية: ١٠٩.
(٥) سورة الصافات، الآية: ١٢٠.
(٦) سورة الصافات، الآية: ١٣٠.
(٧) سورة مريم، الآية: ١٥.
(٨) سورة مريم، الآية: ٣٣.

في الأولى والأخرى، وأما الأجر الكريم فهو من مختصات الأخرى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾:

ميزات خمس يحملها هذا النبي العظيم ما لها من سباق[١] وكل ذلك بإذن تكويني من الله وتشريعي، لولاهما لم يسطع تلك الدعوة العالية النافذة، فهو الداعي الضالين عن الله إلى الله، وهو السراج المنير الذي أسرجه الله لينير الدرب على السالكين إلى الله، وهو الشاهد من الله وعلى عباد الله، نموذجاً بالغاً من رسالة الله، وتلقياً أعمال عباد الله، وإلقاء لها يوم لقاء الله![٢] إنه ليست الدعوة إلى الله فوضى وهرجَ مرج، ابتداءً وابتداعاً أو تطوعاً، فعلة وقالة وحالة من عنده نفسه، إنما هي ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ كرسالته وشهادته وتبشيره وإنذاره وإنارته بسراجه!

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾:

فللمؤمنين البشارة والفضل، زيادة على ما عملوا، وعلى سواهم النذارة العدل، كلٌّ كما يستحقه.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

لا تُطِعهم حتى فيما يعدونك من قبول الإيمان فلا خير منهم يُرجى، وما

---

(١) فسرنا الثلاث الأولى في الفتح ج ٢٦ من الفرقان فراجع.

(٢) وفي الدر المنثور ٥: ٢٠٦ - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن العرباض بن سارية سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني عبد الله وخاتم النبيين وأبي منجدل في طينة وأخبركم عن ذلك أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت لها قصور الشام ثم تلا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا...﴾ [الأحزاب: ٤٥].

فيهم ومنهم إلّا شر ليس إلّا، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾: اتركهم يؤذونك ما اسطاعوا حتى يأتي أمرنا، ولا تؤذهم كما يؤذونك حتى يأتي أمرنا[١] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فيما أمرت وصبرت ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ حيث يكفيك بأسهم ما لا يكفي سواه، فلا حول ولا قوة إلّا بالله!

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾:

آية وحيدة في سائر القرآن تحمل سلباً لعدة الطلاق عمن طُلقت قبل مسِّها ثم وإيجاب المتعة والسراح الجميل، تخصص آية البقرة الموجبة لتربص القروء بالطلاق على الإطلاق مسِّها ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ﴾[٢] تخصصها بغير صورة المسِّ.

وترى ماذا يعني هنا المسّ؟ أهو مطلق اللمسّ وإن لم يجامعها كما قد يروى[٣] أم هو - فقط - الوطء قبلاً أو دبراً حيث المسّ بالنسبة للنساء لم يأت في سائر القرآن إلا بمعنى الوحي[٤]! قضية الأدب البارع في وحي

(١) «إذا هم» في الوجهين من إضافة المصدر إلى الفاعل أو المفعول.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٣) كما في صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن الرجل يطلق امرأته وقد مس كل شيء منها إلا أنه لم يجامعها ألها عدة؟ فقال: ابتلى أبو جعفر عليه السلام بذلك فقال له أبوه علي بن الحسين عليه السلام: إذا أغلق وأرخى ستراً وجب المهر والعدة، أقول: «ابتلى أبو جعفر» هو ابتلاء بسؤاله فليكن موضع تقية وإلا فلا ابتلاء، ثم «أغلق وأرخى ستراً» أعم من المس كما هو أعم من الوطء، وهاتان أمارتان لكون الجواب وارداً مورد التقية، أو أن أغلق وأرخى ستراً كناية عن الوطء.

(٤) ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [مريم: ٢٠، وآل عمران: ٤٧] ولا يأتي الولد إلا بمس الوطء لا مطلق المس ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ... فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ [المجادلة: ٣، ٤] ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ... وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٦، ٢٣٧].

القرآن، ثم المسُّ لغوياً أبلغ من اللمس دلالة على الوطء و﴿لَمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾(١) الموجبة للجنابة ليست إلّا الجماع! ولئن أريد مطلق اللمس الشامل لغير الوطء لبدّلت المسّ باللّمس! ولئن شكّ في إيجاب غير الوطء من اللمس تربص القروء فالأصل هنا عدم القروء، لا سيما وأن آية القروء مذيلة بما يلمح بالوطء: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾(٢) إضافة إلى تظافر الروايات أن المس هو الوطء فقط دون سائر اللمّس.

ثم المسّ ليس ليختص بوطء القبل بحجة رعاية حكمة الحفاظ على المياه وليس منشأ الولادة إلّا في القبل! حيث العقيمة تتربص بوطئها، القروء، كما الولود، بل يعم الوطء في الدبر، وعلّ الحكمة الجامعة لموارد العدة بالطلاق غاية اللذة الحاصلة بالمس قبلاً أو دبراً، وقضية إطلاق النص في عدم «المس» على أية حال، إطلاق عدم الوطء على أية حال.

ثم ترى هل تخص ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أحكام الآية بالمؤمنات المنكوحات بالعقد الدائم لمكان ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾؟ فالعدة إذاً ثابتة على المنفصلات بغير طلاق كالمنقطعة التي توهب وقتها أو ينتهي، والأمة المحررة، والدائمة غير المؤمنة، والمؤمنة الدائمة المنفصلة بغير طلاق، فسخاً من أحد الزوجين بموجبه، أو انفساخاً للعقد بسبب، كالتي يتزوج زوجها بنتها من غيره قبل أن يدخل بها، فإنها تنفصل عنه بمجرد العقد عليها إذ تصبح إذاً أماً لزوجته. امّن هي من اللاتي لسن مؤمنات دائمات مطلقات قبل الدخول؟

إن قيد ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لا يقيد الحكم بهن، إذ ليس يعني إلا تلميحاً بأن المؤمنين لا ينكحون إلّا المؤمنات، دون المشركات: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[1] ومهما سمحت آية المائدة نكاحهم بكتابيات ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[2] فإنه سماح هامشي على متن النكاح بشروطه، ثم العدة ليست إلّا لحرمة الموت ولا موت هنا! أم للحفاظ على المياه، ولا مياه هنا!

أم حرمة لقضاء غاية الشهوة الحاصلة بالدخول؟ ولم يدخل بها! وإذ لا حرمة لمؤمنة غير مدخول بها في عدة فبأحرى غير المؤمنة ألّا تعتد، وآية البقرة مهما عمّت المطلقات في فرض العدة، ليست لتشمل غير المدخول بها قضية ذيلها، وعند الشك فالقدر المتيقن هو المدخول بها، واليائسة المدخول بها خارجة عن هذه الحِكَم كما الصغيرة فإن وطء اليائسة ليس في غاية الشهوة، أم لأن فرض العدة بين الموت كعلة تامة، وبين وطء فيه إمكانية الحمل، والثاني منفي فيمن لا عدة لها، إن يائسة موطوءة، أم غيرها البالغة غير الموطوءة، وهذه ضابطة صارمة في العدّة، والله أعلم بالحكم في كل عِدَّة وعُدَّة.

ثم وقيد الطلاق وارد مورد النكاح الدائم، فليس ليقيِّد الحكم بمورد الطلاق، أو نتوسع في معنى الطلاق أنه الفراق عن النكاح أياً كان ولكنما المنقطعة التي تم وقتها ليست مطلقة على أية حال، مهما كانت الموهوبة وقتها والمباعة نفسها داخلتين في مطلق الطلاق.

ثم ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ تستأصل أية عدة وأن يوماً أو ساعة، ثم وتستأهلها لزواج آخر فور طلاقها، وتلمح أن عدة المطلقة حقٌّ لزوجها، ولكنه مرتبط بحقه لزاماً إذ لا يحق له التسامح عنه، فهو من الحقوق التي لا تسقط بإسقاط صاحبها كحق الزوجية والأبوة وأمثالها، لأنها حقوق ثابتة مرتبطة بالله وبالمجتمع، وفي زاوية ثالثة ترتبط بأصحابها،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥.

و«يتربصن» في فرض العدة حكم صارم إلهي ليس ليسقط بإسقاط، فهو حق يحيط به حكم، ليس حقاً خالصاً يصلح لإسقاط. فكما الحكم لا يسقط بإسقاط كذلك الحق الذي فيه الحكم، ثم الحق الخالص الشخصي صالح للإسقاط إذا كان صالحاً للإسقاط، دون الحق الذي له بعد جماعي بعد الشخص فإنه لا يسقط بإسقاط الشخص. ولأن العدة ﴿لَكُمْ عَلَيْهِنَّ﴾ فهي - إذاً - ليست إلّا لصالح الرجل، بين الحفاظ على صالح النسل مؤكداً أو محتملاً، والحفاظ على حق الرجوع كما في الرجعية، وأما البائنة غير المدخول بها فلا عدة لها، كما لا عدة لليائسة المدخول بها حيث لا ماءَ لها ولا رجعة إليها، وعدة الوفاة هي للزوج المتوفى حرمة له، فـ ﴿لَكُمْ عَلَيْهِنَّ﴾ هي في مثلث المصالح للأزواج، ولكنها مصالح تضم حقاً جماعياً لا يقبل الإسقاط.

وحق القول في الحق الثابت بالشرع أنه لا يسقط على أية حال إلّا بدليل كالحقوق المالية أما هيه، أصلاً أصيلاً صارماً قائماً في الحقوق إلّا ما يستثنى، كما في الأحكام ولكنها لا تستثنى.

وبصيغة أخرى: الحكم لا يسقط أياً كان، والحق قد يسقط بإسقاط أم دونه وقد لا يسقط، ولا حق إلّا ومعه حكم بضمنه يضمن تحقيقه، وهنالك أحكام لا تضمن حقوقاً بشرية وأخرى تضمنها، فهما - إذاً - متباينان جزئيان عموماً من وجه، قد يجتمعان وقد يفترقان قضية الملازمة الأصلية، وإلا فلا حق إلا ومعه حكم فبينهما عموم مطلق.

ثم ترى أتفرض ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ على الأزواج متاعاً زائداً على الفريضة؟ لأنها مطلقة تشمل اللاتي فرضتم لهن فريضة فتؤتى زيادة هي المتاع، وليست الفريضة متعة كما ليس مهر المثل متعة، وإنما هي الزائدة على الفريضة إن فرضت لها؟ والزائدة على مثل الفريضة إن لم تفرض تحنناً عليها وتعطفاً؟

أو أن المتاع إنما هو لمن لم يفرض لها فريضة إذ قوبلت في البقرة بمن فرضت لها فريضة: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ...﴾[1]؟ فـ ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2] يعني الفريضة أو مثلها إن دخل بها، أو نصف ذلك إن لم يدخل بها.

أو أن متاعهن بالمعروف يعني «اجملوهن بما قدرتم عليه من معروف، فإنهن يرجعن بكآبة ووحشة وهمٍّ عظيم وشماتة من أعدائهن، فإن الله كريم يستحي ويحب أهل الحياء، إن أكرمكم أشدكم إكراماً لحلائلهم»[3] وذلك الإجمال المتاع يعم مهر المثل والمسمّى وزيادة إن كانت لزام الإجمال قدر المستطاع، أم إجمالاً في دفع الفريضة، ولا يترك الاحتياط بدفع زيادة على المسمى لصدق المتاع، وفيما لا يسمى على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، وأولى من غير المدخول بها هي المدخول بها ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[4].

ثم السراح الجميل ما لا عضل فيه ولا أذى ولا تعنت ولا رغبة في تعويقهن عن استئناف حياة جديدة، بل ومساعدة لها على ما تبغي من زواج وتعريفاً بها عند من يريدها كيلا تبقى مرذولة منكوبة بِقالَة الناس! فكما النكاح توحيد للحياتين على حب، كذلك الطلاق فراق على حب ومتاعٍ!

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤١.

(٣) نور الثقلين ٤: ٢٨٨ ح ١٦٣ في من لا يحضره الفقيه روى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ...﴾ قال: متعوهن أي أجملوهن.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢١.

متاعاً أخلاقياً ومالياً أما ذا مما يمتعها ويذهب بكآبتها وتضيّقها، معاملةً معها في الفراق كما تُعامل في النكاح الوفاق، ويجب ذلك في كل شركة في معاملة أما ذا؟

هذا هو السراح الجميل بعد الطلاق حيث العادة الجاهلية كانت تعضلهن عن زواج آخر بعد الطلاق ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾...[1].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾:

هذه واللتان بعدها تحمل أحكاماً خاصة بالنبي ﷺ في أمرِ زواجه وأزواجه، لا تعدو إلى الأمة، فإنها من أحكام الرسالة بمختلف حقولها ومتطلباتها الرسالية، فردية أو جماعية.

فـ ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ﴾... تحلل له زواجاً وأزواجاً لا تُعد، بنكاح أو ملك يمين[2] ثم حرم عليه الزواج الجديد أو التبديل ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ... إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾[3]! و«لك» هنا من أدلة اختصاصهن به فلا تحل أزواجه من بعده لغيره: ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾[4] ولا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٢.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢٩٠ ح ١٧٥ في الكافي بسند صحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام سألته عن قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ...﴾ [الأحزاب: ٥٠] قلت: كم أحل له من النساء؟ قال: ما شاء الله من شيء ورواه مثله عن أبي بكر الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٢.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

ما ملكت يمينه فيئاً وإن لم يطأهن، فإنهن من زوجاته بمجرد ملك اليمين، كما المعقودة دائماً أو منقطعاً، فتشمل إماءَه ما تشمل سائر زوجاته كـ ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وقد يحل له تحليلهن لغيره قبل أن يطأهن، حيث الأزواج قد لا تشمل غير الموطوءات من الإماء ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ إنما أحلّت له دون نكاح إذا أراد. ولا من ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ مهما طال أو قصر تحقيق إرادته، وأما بنات عمه وعماته وبنات خاله وخالاته، فهن حلٌّ لغيره قبل ان ينكحهن، فـ«لك» فيهن ترجيح في زواجهن بالقرابة والهجرة أم فرضٌ يخصه مهما نسخ القيد أن بعده أم لم ينسخ حيث ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ قريبة مهاجرة أم غريبة غير مهاجرة.

وذلك الإحلال مرتبط بتلك النبوة السنامية، زواجاً سياسياً رسالياً تحكم عرى دعوته وكما في حليلة زيد دعيّه أمّن هي من نساء من مختلف الأقوام، ومحترج الظروف ومعترك الآراء، يقصد من خلالها مصاهرة مختلف القبائل ليربط بينهم لنفسه، تعميقاً لدعوته، وبسطاً لرسالته، ودفعاً لمكايدات منهم، فلما قضى ما عليه حرمت عليه النساء من بعد حتى إن متن أو طلقهن كلهن وقوة الجنس بعدُ بحالها! ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾.

ترى ذلك الإحلال يخص اللاتي آتى أجورهن ومهورهن؟ فلا إحلال قبله؟ والمرأة تُستحل بمجرد العقد عليها حتى وإن لم تؤت مهرها لوقته أم على أية حال!.

إن أجورهن هي مهورهن المفروضة أو أمثالها في غير المفروضة، بالنسبة لمن تزوجت على مهر، وقد يعني ﴿ءَاتَيْتَ﴾ ماضياً، ضرورة الإيتاء حسب القرار، فإن نوى ألا يؤتيها لم تحل له حتى ينوي أو يؤتي، فليس شرط الإحلال إلا أصل الإيتاء: ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾... [(١)] - ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [(٢)] ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [(٣)] ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [(٤)].

فإيتاء الأجر أو تصحيحه في وقته هو شرط الإحلال في اللاتي يُتزوجن بأجور، ومن الراجح الأكيد تقديم أجورهن قبل الدخول بهن حسب المستطاع.

ولأن النبي أسوة يقال له ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ولأنه كان قد آتاهن أجورهن، عنواناً مشيراً إلى حالة خاصة له ﷺ إليهن، لا أن ايتاءها لهن مسبقاً شرط إحلالهن! كما ويدل عليه سائر من ذكرت من المحللات من ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾... إذ لسن كلهن كالتي وهبت نفسها للنبي دون أجر، وقد أحلهن له ﷺ دون ذكر أجر فضلاً عن إيتائه المسبق وقد يعني ﴿ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مورد الإحلال المطلق حيث لا خيرة للزوجة في مطاوعة الجنس بعد الأجر فلها أن تمانع ما لم تأخذ المهر حتى تؤتى، وليس للزوج حملها على الوطء قبل إيتائها مهرها، فتقع التي لم تأخذ مهرها أمام النبي بين محظوري وجوب مطاوعة النبي لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وجواز ترك المطاوعة قبل أخذ المهر، ولكي لا يحمّل بالنبوة خلاف ما لها من حق فـ ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾! كما وأن استيفاء حق الجنس بعد إيفاء حقها أحق وأحرى بالنبي وأحلى للزوجة، فهكذا يصبح النبي أسوة!

﴿ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ هن واحدة من السبع التي أُحلت له ﷺ ومن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ٢٤.

ثم التحريم، والثانية ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ وهن الإماءُ اللّاتي تأسَّرن دونما حرب ومشقة، حيث الفيء هو الغنيمة التي لا تلحق فيها مشقة، فـ ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ هنا هن الأسيرات الخاصة بالرسول ﷺ و﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾(١).

فهنا إحلال يخص الرسول من ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ لا نصيب لسائر المسلمين فيهن وكما في سائر الفيء، ومجرد الملك في الإماء يحلِّل إلّا إذا زوجهن أو أباحهن لغيره.

وعلّ ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ كـ ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ليس قيداً يخص الإحلال بمورده، فإنهما القدر الواقع له من نسائه ﷺ أم لم تحل له سواهن من الإماء اشتراءً لهن أو تحليلاً له؟.

وكذلك الأربع الأخرى في قيدي القرابة والهجرة، فإنهما ليستا من شروط الإحلال، واختلاف العم والعمات والخال والخالات بالإفراد والجمع علّه إذ لم تكن له إلا بنات من عم أو بنات من خال، وكانت له بنات عمات وبنات خالات، أو إذا كانت لآخرين بنت أو بنات فهن حينئذ كن مزوجات، وكانت له بنات عمات وبنات خالات.

أحلّهن له الله كأفضل البنات وأحراهن لزواج النبي ﷺ وقد هاجرن معه فأصبحن ذوات الأولوية في بُعدي القرابة والهجرة، مهما حلت له الغريبات غير القريبات والمهاجرات إن كن مسلمات.

ثم السابعة ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قريبة كانت أو غريبة، ممن هاجرن معه أم

(١) سورة الحشر، الآية: ٦.

لم يهاجرن، فإنما الشرط هنا الإيمان والوهبة، فاقتسمت هذه السبع من حيث الأجر ودونه إلى ثلاث ١ - ﴿ٱلَّتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾، ٢ - القريبات الأربع حيث لم يذكر لهن أجرٌ أوتينه أم لا، والأجر ثابت بعد لا مرد له، ٣ - «الواهبة نفسها دون أجر، وفي حكم الثالثة السابعة ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ شرطان: ١ - «إن وهبت نفسها للنبي»، ٢ - ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ فلولاهما أو أحدهما لعمت الخالصة لسائر من يريدونها.

ثم ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ تقطع عنه كل ولاية حتى التي لأبيها، وتقطع عنها كل راغبٍ إليها، وتقطع عنها خيرتها ترك الهبة بعدما وهبت نفسها، اللهم إلّا إذا لم يردها النبي ﷺ فلها ولوليها والراغبين فيها الخيار.

وهل أن هذه الهبة تكفي عن صيغة النكاح، كما كفت إذن الولي والمهر؟ علّها تكفي لمكان ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ﴾ أم لا تكفي حيث لخالصة له لا تنافي شروط الإحلال ومن أهمها صيغة النكاح! ونطاق الهبة إنما هو السماح عن مهرها، لا السماح عن صيغة النكاح وليس لها هكذا سماح لأنه حكم شرعي، ولكنما المهر حق لها شخصي، فلها السماح فيما لها حقاً، وليس لها فيما عليها أو عليهما حكماً، اللهم إلّا ولاية وليها إذ أسقطها الله بـ ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ﴾.

فتلك الوهبة من امرأة مؤمنة، وارادة الاستنكاح من النبي، هما تجعلانها ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ مهما أرادوها وأرادتهم بعد الوهبة والإرادة، فهي حلٌّ له ﷺ ومحرمة على غيره ﷺ.

وهل تصح هكذا هبة لغير الرسول؟ آيات النكاح والطلاق تفرض الفريضة مسماة وسواها كحق ثابت في أي نكاح وقد تزيد متعته! وآية الخالصة تستخلص له هكذا هبة وهكذا موهوبة فهي إذاً في أبعادها من

اختصاصات النبي ﷺ وكما وردت بذلك الروايات المستفيضة[١] وقد وهبته ﷺ - فيمن وهبت - نفسها امرأة من الأنصار فقال ﷺ لها: انصرفي رحمك الله فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك فيّ وفي تعرضك لمحبتي وسروري وسيأتيك أمري إن شاء الله فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً﴾ فأحل الله عزّ وجلّ هبة المرأة نفسها لرسول الله ﷺ ولا يحل ذلك لغيره[٢] وقد وهبت نساءٌ أنفسهن للنبي ﷺ فقبل البعض وزوج بعضاً غيره ﷺ[٣].

---

(١) كما في نور الثقلين ٤: ٢٩١ ح ١٧٧ عن أبي عبد الله عليه السلام و١٧٨ عن أبي جعفر عليه السلام و١٧٩ عن أبي عبد الله و١٨٠ عن أبي جعفر وكذلك ١٨١ و١٨٢ و١٨٣ واللفظ المشترك بينها «لا تحل الهبة إلا لرسول الله ﷺ وأما غيره فلا يصلح نكاح إلّا بمهر».

(٢) المصدر ٢٩٢ ح ١٨٤ علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن محبوب عن ابن رئاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فدخلت عليه وهو في منزل حفصة والمرأة متلبسة متمشطة فدخلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: إن المرأة لا تخطب الزوج وأنا امرأة أيم لا زوج لي منذ دهر ولا ولد فهل لك من حاجة فإن تك فقد وهبت نفسي لك إن قبلتني فقال لها رسول الله ﷺ خيراً ودعا لها ثم قال ﷺ: يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله ﷺ خيراً فقد نصرني رجالكم ورغبت في نسائكم فقالت لها حفصة: ما أقل حياءك وأجراك وأنهمك للرجال؟ فقال رسول الله ﷺ: كفي عنها يا حفصة فإنها خير منك رغبت في رسول الله فلمتيها وعبتيها ثم قال للمرأة: انصرفي. . .
وفي نقل آخر عن علي بن إبراهيم فقالت لها عائشة: قبحك الله ما أنهمك للرجال فقال لها رسول ﷺ: صه يا عائشة فإنها رغبت في رسول الله ﷺ إذ زهدتن فيه. . . وح ١٨٦ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله في حديث كانت خولة بنت حكيم السلمي وفي المجمع قيل إنها لما وهبت نفسها للنبي قالت عائشة: ما بال النساء يبذلن أنفسهن بلا مهر فنزلت الآية فقالت عائشة: ما أرى الله تعالى إلّا يسارع في هواك فقال رسول الله ﷺ: وإنك إن أطعت الله سارع في هواك وفيه عن علي بن الحسين هي امرأة من بني أسد يقال لها شريك بنت جابر لك به حاجة قال: ما عندك تعطيها؟ قال: ما عندي إلا إزاري، قال: إن أعطيته إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئاً قال: ما أجد شيئاً فقال: التمس ولو خاتماً من حديد فلم يجد فقال: هل معك من القرآن شيء؟ قال: نعم سورة كذا وسورة كذا لسور سماها فقال: قد زوجناكها بما معك من القرآن.

(٣) الدر المنثور ٥: ٢٠٩ - أخرج مالك وعبد الرزاق وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود =

فقد حملت هذه الآية مربع الإحلال له ﷺ من مختلف النساء دونما حدٍّ إلا ما رآه الله إذ قال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ . . . وقد خصه بإتيان أجورهن قبل استحلالهن، وخصت به إماء الفيء لاختصاص الفيء به أياً كان، وأحلت له الأربع للقرابة والهجرة كأن سواهن لا تحل له، وخصت به التي وهبته نفسها إن أراد استنكاحها ولماذا؟ إذ ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ و﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾

فيكفيهم زواجاً ما فرضنا عليهم في أزواجهم: ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾[1] و﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾[2] من أسرى الحرب وما يشترون أو يوهب لهم، فزواجات الأمة تنحصر في الحقل العائلي وحظوة لجنس والإنسال، وأما زواجات النبي فتزيد عليهم ضرورة النبوة حقولاً أخرى يتوجب عليه فيها المزيد ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ﴾ . . . .

فهو الذي يجب عليه كحامل الرسالة أن يتزوج بحليلة دعيّه إبطالاً لسنة جاهلية، ويتوجب عليه التزويج بأرامل الجهاد تشجيعاً للجهاد وترفيعاً من شؤون الأرامل، ويتوجب عليه زواجات أخرى من مختلف الأقوام ربطاً بينها، وتخفيفاً لما كان يتربص عليه من الدوائر، فلولا ذلك الإحلال في مختلف المجال لكان عليه حرج:

﴿۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا

= والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن سهل بن سهل الساعدي أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فوهبت نفسها له فصمت فقال رجل: يا رسول وجنيها إن لم يكن وأخرج في الدر المنثور أربع نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ هما ميمونة بنت الحارث وليلى بنت الحطيم.

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾:

خيارات له ﷺ في نسائه قبل تزويجهن وبعده، قبل تطليقهن أو بعده، فـ﴿مِنْهُنَّ﴾ تعني فيما تعني ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ فله إرجاءها تأخيراً لنكاحها كما فعل في الأنصارية[1]، أو تبعيداً لها إنكاحاً لغيره كما في أخرى.، وله إيواؤها عاجلاً أو آجلاً باستنكاحها، ثم التي عزلها فلم يردها له ابتغاؤها بعد عزلها و﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾ أن تؤوي إليك الواهبة نفسها فور هبتها، أو تبتغيها بعد إرجائها أو عزلها.

و﴿مِنْهُنَّ﴾ نساءه بعد زواجهن ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ تطليقاً ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ إبقاءً ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ ابتغاء الرجوع إليها أو نكاحها من جديد ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ كتأديب لها أولاً ثم غفراناً ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾.

وإرجاءٌ ثالث تأخيرهن عن قسمهن أو تقديمهن أم قسماً سوياً ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ﴾ قسمها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ عن قسمها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾... ولكنما القسم في المضاجعة واجب عليه كما في الأمّة، فيخص سماح أرجائه فيه في المواقعة.

وهـــــل إن ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ راجع إلى ابتغاء مَن عزلها وكلا الإرجاء والإيواء في معانيهما الثلاثة؟ وليس إرجاء التي وهبت نفسها تركاً لنكاحها قرير عينها! ولا إرجاء

---

(١) نور الثقلين ٤: ح ١٩٠ في الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت أرأيت قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ...﴾ [الأحزاب: ٥١]؟

قال:... ورواه في المجمع عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام وفي الدر المنثور ٥: ٢١٠ - أخرج ابن مردويه عن سعيد بن المسيب عن خولة بنت الحكيم قال كان رسول الله ﷺ تزوجها فأرجاها فيمن أرجا من نسائه.

الطلاق، وتأخير القسم قرير عين لمن أرجئتا! وإن ذلك إيتاء لما آتاهن كلهن، وهذه وتلك سلب بعد الإيتاء أو عدم الإيتاء!.

أم إنه استنكاح التي وهبت نفسها عاجلاً، أم آجلاً بعد الإرجاء التأخير فإنه راجع إلى إيواء، و«من آوى فقد نكح ومن أرجى فلم ينكح»[١]. . . ثم الإيواء الإبقاء لمن تزوجها دون طلاق فـ«من آوى فقد نكح ومن أرجى فقد طلق»[٢] ثم الإيواء الرجوع بعد إرجاء الطلاق، أو تجديد العقد بعد العدة فإنه أيضاً من الإيواء أو أحرى حيث الإيواء تلمح باضطراب سابق ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ﴾ مورده المنصوص قبل «ذلك»! ثم الإيواء القسم بعد إرجائه، إيواءات ستة بعد إرجاء أم دونه قد تعنيها «ذلك» ويناسبها ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ دون إبـــلاس ولا إياس، وهو الأنسب للمقام أدبياً ومعنوياً، وقد آواهن كلهن فلم يطلِّق ولم يَردَّ الواهبة نفسها وإن بإنكاحها غيره فتوفّي عن التسع اللاتي كن معه، على ما كان منهن من مظاهرة جامعة جامحة فنزلت ما نزلت[٣] ومن تظاهرة عائشة وحفصة فنزلت ما نزلت[٤] تصبُّراً على كلٍّ ذلك حيث إن ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾. . . !

هنا يؤمر نبي الله أن يقر عيونهن ولا يحزنهن مهما كلف الأمر، وطبعاً ما لم يخالف شرعة الله ورضاه، تقديماً لهواهن على هواه ورضاهن على رضاه ما لم يخالف رضى الله، وقد بلغ في ذلك مبلغاً ما الله ينهاه:

---

(١) المصدر.

(٢) المصدر ٢٩٤ ح ١٩١ القمي في تفسيره قال الصادق عليه السلام: . . .

(٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

(٤) ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: ٤-٥].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[١] تبييناً لما خالَفت رضاهن رضى الله.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾﴾:

من قبل لحد الآن أُحلت له النساء المسلمات المذكورات وما ملكت يمينه مما أفاء الله عليه وأحل له أن يبدل بهن من أزواج: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ إحلال الزواج دون حدٍّ، وإحلال التبديل بهن دون حدٍّ، ومن الآن ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾... فهل يعني من النساء كل النساء، ومن بعد الآن ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾... فهل يعني النساء كل النساء، ومن بعد الآن، فلا يحل له أي زواج جديد ولا التبديل بأزواجه من أزواج؟ فلتكن هذه الآية نازلة بعد فترة من الزمن بإمكانه أن يستنكح فيها التي وهبت له نفسها، وأن يتزوج من قريباته الأربع، فصلاً هكذا في نزولها دون وصل، حيث الوصل يقضي على حكم الأصل!

فلا يحل لك النساء من بعد هذه التسع اللاتي عندك الآن ولا التبديل بهن من أزواج، اللهم إلا طلاقاً دون تبديل، وقد مات عن هذه التسع لم يزد عليهن ولم ينقص عنهن ولا استبدل بهن!

أو يعني النساء من بعد هذه الأوصاف منذ الإحلال وحتى متى؟ ولكنه يتطلب إضافة تبيين هذا الموقف الخاص لبعد د - «من بعدهن - أو - من بعد هذه الصفات» ومن البعيد أن يُعنى من البُعد المجرد مقيداً هكذا أو ذاك!

ثم التبدل بهن من أزواج قِسمٌ من الزواج الجديد يستأصل أي زواج

---

(١) سورة التحريم، الآية: ١.

مثلهن وسواهن، وهذه مرحلة ثانية من تحريم الأزواج من بعد، بعدَ الأولى المطلَّقة التي قد يفل منها التبدل، فليصرح به استئصالاً لأي زواج بعدُ حتى وإن طلقهن كلهن ويبقى بلا أزواج!

أو يعني النساء المحرمات في آية النساء ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾... [١] [٢] ولم تذكر هنا من قبل حتى تعنيهن ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾! ولا أن حرمتهن «لك» كحكم يخصه دون الأمة! ثم لا معنى صالحاً إذا لـ ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ حيث المحرمات في آية النساء لم يكنَّ محللات في أي زمن في نكاح جديد أو استبدال، والروايات الواردة هنا مما تحير العقول ولا تصلح محولة لـ ﴿لَّا يَحِلُّ﴾... عن نصها وظاهرها مهما بلغت ما بلغت من كثرة! [٣] كالتي تفسر ﴿أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بمبادلة الأزواج فوضى دون زواج، فإنها كانت سنة جاهلية قضى عليها الإسلام منذ بزوغه بسنة الزواج على شروطه، فهل كان النبي يبادل هكذا أزواج قبل التحريم حتى يرد نصه له خاصاً دون المسلمين: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم!

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

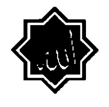
(٢) نور الثقلين ٤ : ٢٩٤ ح ١٩٣ في الكافي بإسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل : ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢] فقال عليه السلام : إنما عنى به لا يحل النساء التي حرم الله عليك في هذه الآية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ...﴾ [النساء: ٢٣] ولو كان الأمر كما يقولون كان قد أحل لكم ما لم يحل له لأن أحدكم يستبدل كلما أرادوا ولكن الأمر ليس كما يقولون إن الله أحل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن ينكح من النساء ما أراد إلا ما حرم في هذه الآية في سورة النساء.

أقول وروي ما في معناه عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام وعن أبي بصير عنه عليه السلام بنفس الدليل، ولكنه تعالى قد أحل للأمة ألا يصلوا صلاة الليل، ولم يحل له تركها إلى غير ذلك من مفارقات في محللات ومحرمات فلا مورد لاستنكاره، ثم تحويل ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ هنا إلى ما بعد آية النساء كاللغز ولا يقبل على كتاب الله وإن تواترت به الرواية.

(٣) المصدر.

وترى كيف يعجب الرسول حسنُ نساءٍ قبل أن يتزوج بهن أو أن يراهُن وليس ليرى غير ذوات محرم؟ إنها رؤية لإرادة التزويج، محللة قدر الحاجة من معرفة الزوج من جمالها، وبطبيعة الحال يعجبه حسنها إن كانت جميلة، قضية تمييز الجميلة عن القبيحة لكل إنسان وله ﷺ أحرى فيما يحل.

فكما لم يكن عدد النساء اللاتي يحل له زواجهن غير محدد، لسياسة رسالية وحكمة تخصه، كذلك تحرم عليه النساء من ذلك التحليل الواسع لنفس الحكمة والسياسة، ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ رَّقِيبًا﴾.



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ
طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ
وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ
وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ
ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ
ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ
عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا
﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ
إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ
ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ
يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ
عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا
ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ
وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ
فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا
يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ

تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

تتمة من اختصاصات النبي ﷺ ألّا يدخل بيته حتى باستئذان ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ رعاية لأوقاته الشريفة أن تهدر بلقاءات وزيارات لا تعني عناية جماهيرية لصالح المسلمين وكما عنته آية النجوى، وحفاظاً زائداً على أهل بيته.

على الأمة له ﷺ أدب الحضور في الملأ صلاةً عليه وسلاماً، وواجب التسليم له وكما يأتي في آية الصلاة والتسليم، وعليهم كذلك له أدب الحضور في الخلاءِ ألّا يؤذوه بالدخول إلّا بإذنه بدائياً دونما استئذان، وباطالة الجلوس إذا دُعوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾:

هذه الآية تتضمن آداباً كانت الجاهلية تخالفها، دخولاً في البيوت دونما استئذان ولا سيما بيت النبي ﷺ إذ كان مهبط الوحي ومنزل الرحمة، يعتبرونه مأواهم في كل وقت، وبيوتهم للأكل، ويطيلون الجلوس والاستئناس لحديث بعد الأكل، مما كان يؤذي النبي ويستحيي منهم إن صارحهم بنهيه عن بيته، وعادة العرب احترام واستقبال الضيوف حتى إذا كانوا أعداءً، ولكنما النبي لمكانته من رسالته يختلف عن سائر الناس في

كيفية عشرته وصرف أوقاته، فمنزلته الكريمة من ناحية، وعبئُهُ في بلاغه من أخرى، يتطلبان له فراغاً لتطبيق واجبه الرسالي أكثر ممن سواه.

فـ ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ إذنٌ بدائي دونما استئذان فإنه يتحرج ويستحيي إذا استأذن ألّا يأذن! ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾! وقد تلمح ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ عدم السماح لانتظار وقت الإذن والسماح، حتى يكون هو الذي يأذن دونما انتظار ولا استئذان لطعام وسواه.

وترى الإذن يخص إذنه ﷺ - وبطبيعة الحال - فإنه صاحب البيت وأهله؟ فلماذا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ دون أن «يأذن»! علّه ليشمل موارد الضرورة، فإنها إذن من الله قدر الضرورة ويبقى واجب الاستئذان لأجل النظر وتهيُّؤ الاستقبال فهنا يجوز الاستئذان فضلاً عن نَظِرةَ الإذن، لا أن يدخل دون صريح الإذن، فإنه محظور في سائر البيوت ولبيت النبي فضله عليها! وعلّ ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ ليس تخصيصاً بطعام، فإذا أذن لغير طعام، لأمرٍ أهم أمّاذا؟ فلا دخول! وإنما تضييقاً لدائرة الدخول إلى بيوت النبي بدءاً باقلّه «الطعام» وإشارة إلى ما فوقه. وقليل مَن هم الذين يدخلون لحاجة معرفية، والرسول في متناولهم في أوقات الصلاة الخمسة.

اللهم إلا لنجوى وقد حددته آيتها - وكانوا «إذا نهض إلى بيته بادروه فأخذوا المجلس فلا يعرف بذلك في وجه رسول الله ولا يبسط يده إلى طعام مستحيياً منهم فعوتبوا في ذلك[1].

تدخلون بيوته بإذنه إلى طعام ولكن «غير ناظرين إناه» فالنظر «إلى» هو الإبصار أو التفكير، وهو متعدياً بنفسه كما هنا الانتظار[2].

---

(١) الدر المنثور ٥: ٢١٤ - أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال كان رسول الله ﷺ إذا نهض...

(٢) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ =

والإنى هو الوقت والساعة والحين، وهو النضج والإدراك، فهو إنى إذنه ﷺ وقتاً وهو إنى طعامه وقتاً ونضجاً، فليس لكم الانتظار لوقت إذنه، تربصاً أن يأذن لكم إلى طعام وسواه، إلا أن يأذن لكم ﴿غَيْرَ نَظِرِينَ إِنَنَهُ﴾ نضج طعامه أم وقت إطعامه، ولا لكم إذا دخلتم بيوته بإذنه لا إلى طعام أن تنظروا «إناه»: إدراك طعامه ونضجه وقد لا يتهيأ لاطعامكم، ولا لكم إذا دعاكم إلى طعام أن تدخلوا إلّا وقت الطعام، لا قبله ناظرين إنى طعامه وقتاً ونضجاً وإدراكاً ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ دخولاً لطعام قدَرَ وقته لا سابقاً ﴿نَظِرِينَ إِنَنَهُ﴾ ولا لاحقاً جالسين بعد الطعام «إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق»[1].

﴿وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ قبل الطعام أو بعده أم فيما ليس طعام، أحديث بينكم أنفسكم؟ فله مجال في غير بيوته! فلا تتخذوها مقهى أو نادياً تستأنسون فيه بحديث.

أو حديث بينكم وبين نسائه فأرذل وأنكى، فما لكم والاستئناس بحديث نسائه؟!.

أو حديث بينكم وبينه ﷺ، تحدثونه وهو يسمع، أو يجيب عما لا يعنيكم من سؤال ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ الْحَقِّ﴾ اللهم إلّا سؤالاً مفروضاً أم راجحاً في شِرعة الله، وبأحرى حديثاً من رسول الله ﷺ أم سؤال متاع تحتاجونه من نسائه لكن:

= وَالْمَلَٰٓئِكَةُ. . .﴾ [البَقَرَة: ٢١٠] ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٤٩] ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ [الزخرف: ٦٦] كل ذلك يعني الانتظار.

(١) في الدر المنثور ٥: ٢١٣ عن أنس رضي الله عنه قال لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام منهم من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا﴾. . . [الأحزاب: ٥٣].

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ دونما استيناس لحديث، ولا سؤال راجح دون حجاب فوق حجابهن.

فآيات الحجاب لسائر الأمة تخص حجاب النساء أنفسهن عن الرجال الأغارب، وهذه تختص نساء النبي بحجاب فوق الحجاب، كرامة لبيت الرسالة وأمومة لنسائه ﷺ فلا يواجهوهن في سؤال أم غير سؤال إلّا من وراء حجابٍ وسترٍ يفصل بينهم وبينهن.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ تجنباً عن جاذبية الجنس وهن أمهاتكم «وقلوبهن» تجنباً عن مواجهة الرجال في غير حاجة راجحة ودون حجاب، ففي المواجهات القالبية اتجاهات قلبية، وهي في الجنس محرمة ولا سيما بالنسبة لأمهات المؤمنين!.

وترى إذا لم يكن الاستحياء من الحق حقاً لأن الله لا يستحي منه، فهل النبي يستحي باطلاً؟ الحق المستحى منه هنا هو حقه ﷺ الخاص القابل للسماح عنه على أذىً، وهذا من كرم أخلاقه، ثم الله يحق حقه بكلماته ويقطع دابر المبطلين، وأما حق الله في عباده وعبادته، وحق الخلق فيما لهم وعليهم، فهما من حاق رسالته، ليس ليترك شيئاً منهما استحياءً، مهما رجع بالضرر إليه، وكما في زينب بنت جحش! كما ولا يحق له أن يستحي عن ضياع حقه في رسالته، أم في عرضه وماله وسائر نواميسه الواجبة الحفظ.

وكضابطة عامة لا تستثنى على أية حال ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بأي أذىً معمَّدٍ ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ من بعد طلاقه أو موته وكلاهما معنيان في «من بعده» إطلاقاً لـ «من بعده» لكلا البَعدين في كلا البُعدين: الطلاق والموت، ولأنهما يؤذيانه ﷺ على سواء، فلم يقل بعد طلاقهن أو بعد موته، وإنما «من بعده» منذ أصبح زوجاً لهن.

فلا يحل لكم نكاح أزواجه «أبداً» في أي وقت وعلى أية حال وبأي نكاح ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ مدى عظمة رسول الله ورسالة الله، فإيذاؤه عظيم عند الله! وذنب كبير قد لا يغفره الله![1].

﴿إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾:

إن تبدوا شيئاً مما يؤذيه من نكاح أزواجه أمّا ذا من إيذاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ قبل نية الإبداء وبعدها، قبل الإبداء وبعده ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من هذه وتلك ﴿عَلِيمًا﴾ فعمّن تخفونه ما تخفونه؟

ومهما جاز دخول بيوت الأمة باستئذان لطعام وسواه فلا يجوز دخول بيوت النبي ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾... ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ حيث المتطلبات الرسالية تضيق عليه أوقاته الشريفة فلا يسطع أن يضيفكم أو يطيل الجلوس في مجلسكم.

وهكذا تكون السنة فيمن يحذو حذو النبي ﷺ: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إذ يجوز دخول سائر البيوت باستئذان، ولكن بشرط ظاهر الرضا، وأما الأذن عن استحياء، أو الأكل أو طول المكوث، فلا يسمح بأي تصرف فإنه دون رضىً مهما لفظ بإذن، وعلينا أن نعيش واقعيين، بعيدين عن عشرة التخجيل والاستحياء، فلا نستحي في الحق ولا نجعل الناس في استحياء، فشرّ الإخوان من تُكُلِّف له.

(١) الدر المنثور ٥: ٢١٤ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ...﴾ [الأحزاب: ٥٣] قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ وعنه قال رجل: لئن مات محمد لأتزوجن عائشة فأنزل الله الآية... وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال بلغ النبي ﷺ أن رجلاً يقول: إن توفي رسول الله ﷺ تزوجت فلانة من بعده فكان ذلك يؤذي النبي ﷺ فنزلت وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فنزلت...

آية السؤال من وراء حجاب هي أولى آيات الحجاب، ابتداءً ببيت النبي كما في روايات ولكن:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾:

أترى لماذا هنا يستثنى عن عموم فرض الحجاب - فقط - هؤلاء المذكورون، ويترك الأعمام والأخوال كأنهم ليسوا من المحارم؟ ليس هنا فرض الحجاب الأصل، والأعمام والأخوال أبعد من سائر المحارم فليظلوا هناك في عموم الحظر.

أم لعل آية النور متأخرة النزول عن آية الأحزاب كما تقتضيه طبيعة التكليف، فهي تعم الاستثناء بعد اختصاصه.

ثم ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ هنا و﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ﴾ هن كما في النور، نساءٌ مؤمنات، وإماءٌ مؤمنات.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾:

آية منقطعة النظير، تحمل للبشير النذير هدية الصلوات الثلاث برحمات، من الله إنزالاً، ومن الملائكة والذين آمنوا استنزالاً، ثم ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ له مطلقاً دون شرط، كما الصلاة عليه مطلقة دون شرط! وأين تذهب صلاتنا والملائكة بعد صلاة الله؟ فإنما يريد الله تشريفنا قرناً لصلاتنا إلى صلاته، لتكون صِلاتٍ بيننا وبينه ﷺ كما بينه وبين ربه فيرحمنا بهذه الصَّلاة الصِّلات!.

ومثلث الصلاة هذه عليه في الملإ الأعلى والأدنى تعني أن مقامه أرفع المقامات بين ملإ العالمين من الملائكة والجنة والناس أجمعين.

أجـــل ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وأين صلاة من صلاة، حيث هذه تخرجنا من الظلمات إلى النور ولكنما النبي هو نورٌ في حالات وهالات من النور: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[1] فالنبي هو النور ومعه الكتاب النور، ولأن الكتاب متجسِّد في روحه حيث كان خلقه القرآن فهو إذاً نور على نور!

فلا تعني صلوات الله عليه إلّا دوام تسديده بعصمة فائقة، وإتمام نوره معرفة وعملاً وعلماً وكما أمره ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3] ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾...[4].

رحمات الله ليست لها نهايات، فلتواصِلْ على أفضل البريات وغاية الغايات، وقد تكفيه صلوات الله سلباً لما يتربصه من دوائر السوء، وإيجاباً لما يليقه من مقامات الخير، فما هي حاجته إلى صلوات ملائكة الله وصلواتنا، إلّا حاجاتهم وحاجاتنا، لهم ترفيعاً لمقاماتهم، ولنا غفراناً لذنوبنا واستجابة لدعواتنا بشفاعة النبي المختار، فـ«بالصلاة تنالون الرحمة»[5] مهما زادته ﷺ رحمة على رحمة - ولكنها لنا عون ونجاح الطلبة: فـ«صلِّ على محمد وآله صلاة دائمة نامية لا انقطاع لأبدها ولا منتهى لأمدها واجعل ذلك عوناً لي وسبباً لنجاح طلبتي إنك واسع كريم»[6]

(١) سورة المائدة، الآية: ١٥.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الصف، الآية: ٨.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٢.
(٥) نور الثقلين ٤: ٣٠٢ ح ٢٢٤ في كتاب التوحيد من خطب علي عليه السلام وفيها: بالشهادتين تدخلون الجنة وبالصلاة تنالون الرحمة فأكثروا من الصلاة على نبيكم وآله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٦].
(٦) في الصحيفة السجادية في دعائه عليه السلام في طلب الحوائج...

فـ «قد كان في الله وملائكته كفاية ولكن خص المؤمنين بذلك ليثيبهم عليه»[١].

ومهما رُدت دعوات منا حيث لا نأهل إجابة، لقصوراتنا وتقصيراتنا، فليست لتُرد صلواتنا على النبي ﷺ إذ يأهل، كما الله يصلي عليه ابتداءً دون دعاءٍ، وهل يقبل الله دعاءنا فيه ثم يرد دعاءنا فينا؟ كلا، يا كريم! ولكن شرط ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وكما سلّم لربه تسليماً، فاستحق تلك المنزلة الرفيعة.

فمن آداب الدعاء وشرائط استجابة الدعاء أن تتوسط الصلاة على النبي وآله وكما نراه في صحيفة الإمام السجاد عليه السلام: وعن الإمام علي عليه السلام «ما من دعاء إلا وبينه وبين السماء حجاب إلى أن يدعو لمحمد وآل محمد»[٢].

عرفنا الصلاة عليه، فهل التسليم كما الصلاة أيضاً عليه، أن نقول: السلام عليك؟ أم التسليم له، استسلاماً لأمره ومطاوعة لإمرته؟ لا فقط في لفظة القول؟[٣].

علّه يعنيهما ولاسيما التسليم له وهو الأهم الأتم، ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ لا تحمل لا «له» ولا «عليه» فلتحمل التسليمين معاً، والتسليم له هو الشرط الأصيل للإيمان، وشرط إجابة الدعاء، فلو عني التسليم عليه فقط كما الصلاة لقال ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾!

ومن التسليم له أن نصلي عليه كما أمر: «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد..» لا الصلاة البتراء كما نَهى: لا تصلوا عليّ الصلاة البتراء: اللّهم

---

(١) الدر المنثور أخرج الأصبهاني في الترغيب والديلمي عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها وموطنها أكثركم علي في دار الدنيا صلاة أنه قد كان...

(٢) الديلمي في كتاب الفردوس رواه بسنده عنه عليه السلام ورواه مثله السمعاني في مناقب الصحابة بسنده عن الحارث وعاصم بن حمزة عليه السلام.

(٣) نور الثقلين ٤: ٣٠٥ ح ٢٣٥ في محاسن البرقي عن محمد بن سنان عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية: اثنوا عليه وسلموا له.

صلِّ على محمد! ولقد تواترت الرواية عنه (صلى الله على محمد وآل محمد) ما لا تحصى بزيادة الآل، والأكثرية الساحقة من المسلمين تعوّدوا أن يصلوا عليه الصلاة البتراء، أم إذا زادوا الآل ردفوا بهم أزواج النبي وأصحابه، فهم بين نقيصة بتراء وزيادة بتراء والله منهما والرسولُ براء!

لقد أخرج الحفاظ والمصنفون والمحدثون والمفسرون ما يصعب إحصاؤه(١) عن عدد من الصحابة كالإمام علي عليه السلام (٢) وابن عباس(٣) وأبي

---

(١) وممن أورده محمد بن إدريس الشافعي في مسنده والبخاري في صحيحه باب كيف نصلي عليه وكذا في تاريخه الكبير ج ١٢ القسم الأول ص ٣٥١ والحاكم في مستدركه ٣: ١٤٨ وفي معرفة علوم الحديث ص ٣٢ وأبو نعيم الأصفهاني في أخبار أصفهان ١: ١٣١ ويوسف بن عبد البر الأندلسي في تجريد التمهيد ص ١٨٥ والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٦: ٢١٦ والواحدي النيسابوري في أسباب النزول ص ٢٧١ والبغوي في معالم التنزيل والثعلبي في تفسيره والحمويني في فرائده وأبو نعيم في الحلية والديلمي في الفردوس والسمعاني في مناقب الصحابة وابن العربي الأندلسي في أحكام القرآن ١: ١٨٤ والرازي في تفسيره الكبير ٢٥: ٢٢٦ والذهبي في تلخيص المستدرك والقرطبي في تفسيره ١٤: ٢٣٣ - ٢٣٤ ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى ص ١٩ ومحيي الدين يحيى بن شرف النووي في رياض الصالحين ص ٤٥٥ والطبري في تفسيره ٢٢: ٢٧ وابن كثير في تفسيره وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط ٧: ٢٤٨ والدشتكي الشيرازي الهروي في روضة الأحباب في باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومحمد بن إدريس الهندي الكاندهلوي الحنفي في التعليق الصبيح في شرح المصابيح ١: ٤٠١ والمحدث السيد إبراهيم نقيب مصر في البيان والتعريف ٣: ١٣٤ والخازن في تفسيره ٥: ٣٢٦ وجلال الدين السيوطي الشافعي في بغية الدعاة ص ٤٤٢ وفي الدر المنثور حيث نقلنا الإخراجات عدد المروي عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والهيثمي في الصواعق المحرقة ص ١٤٤ والمولى محمد بن پير علي افندي البركوئي في الأربعين حديثاً ص ٢٦٤ والمير محمد صالح الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي ص ٤٥ والشوكاني في فتح القدير ٤: ٢٩٣ والألوسي في روح المعاني ٢٢: ٧٣ وأبو بكر العلوي الحضرمي في رشفة الصادي ص ٣٤ و٢٩ والجاوي في القول الفصل ٣: ٣٧٢ (ملحقات إحقاق الحق ٣: ٢٥٢ - ٢٧١).

(٢) أخرجه عنه ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والنسائي وابن ماجة وابن مردويه.

(٣) أخرجه عنه ابن جرير عن يونس بن خباب قال خطبنا بفارس فقال: إن الله وملائكته الآية قال: أنبأني من سمع ابن عباس يقول هكذا أنزل فقالوا: يا رسول الله قد علمنا الصلاة السلام عليك فكيف الصلاة؟ فقال قولوا: . . .

سعيد الخدري(١) وأبي طالب(٢) وابن أبي مسعود(٣) وأنس بن مالك(٤) وكعب بن عجرة(٥) وطلحة(٦) وعبد الله بن طلحة(٧) وإبراهيم(٨) وأبي هريرة(٩) وبشير بن سعد(١٠) وأبي مسعود الأنصاري(١١) وأبي حمية الساعدي(١٢) وأم سلمة(١٣) وأئمة أهل البيت عليهم السلام كافة عن النبي صلى الله عليه وآله

(١) أخرجه عنه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن ماجة وابن مردويه.
(٢) أخرجه عنه ابن مردويه.
(٣) أخرجه عنه - فيمن أخرجه - ابن جرير.
(٤) ممن أخرجه عنه ابن جرير وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن كعب بن عجرة قال لما نزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ . . .﴾ [الأحزاب: ٥٦] قلنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك؟ قال قولوا: «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك» وأخرج مثله عنه عبد الرزاق وابن شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.
(٥) أخرجه عنه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والنسائي وابن أبي عاصم والهيثم بن كليب الشاشي وابن مردويه وابن جرير.
(٦) أخرجه عنه أبو داود وابن مردويه والبيهقي في سننه وعبد بن حميد والنسائي والبخاري في الأدب المفرد.
(٧) أخرجه عنه ابن سعد وأحمد والنسائي وابن مردويه.
(٨) أخرجه عنه ابن جرير.
(٩) أخرجه عنه فيمن أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن كثير عنه ومثله مالك وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه وابن خزيمة والحاكم وصححه والبيهقي في سننه.
(١٠) أخرجه عنه أحمد وعبد بن حميد وابن مردويه.
(١١) أخرجه عنه مالك وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن مردويه.
(١٢) أخرجه عنه مالك وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن مردويه.
(١٣) محمد بن إدريس الشافعي في مسنده أخبرنا إبراهيم بن محمد أخبرنا صفوان بن سليم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله كيف نصلي عليك؟ فقال: تقولون . . .

قوله: «تقولون: اللهم صلّ على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ثم تسلمون علي» وقد تختلف فيها صيغة النقل مع الحِفاظ على الأصل: إن الصلاة على آل محمد لزام الصلاة عليه ﷺ.

وقد يلمح وصف الخطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إن الصلاة عليه والتسليم له من لوازم الإيمان، أجل وكما الصلاة لله مهما اختلفت صلاة عن صلاة اختلاف الأحد عن أحمد!.

إن التسليم له ﷺ مما يجب أن يعيشه المؤمن في حياته الإيمانية، ثم الصلاة عليه وآله من واجبات التشهد، والتسليم عليه من سنن السلام المندوبة، فلولا الصلاة عليه فلا صلاة، مهما كان التسليم عليه ندباً دون فرض.

وهل تجب الصلاة عليه دائباً دونما انقطاع؟ وهو حرج قاض على كافة الواجبات اللفظية حتى الصلاة! وكيف تربو الصلاة عليه الصلاة لله! فلتكن لأكثر تقدير مع كل صلاة! أم وكلما ذكر كما في متظافر الروايات[1] وكلما

---

(١) المصدر أخرج الطبراني وابن مردويه وابن النجار عن الحسن بن علي رضى الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله أرأيت قول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾؟ قال: إن هذا لمن المكتوم ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم إن الله وكل بي ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلي علي إلا قال ذانك الملكان: غفر الله لك وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين آمين ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي علي إلا قال ذلك الملكان: لا غفر الله لك وقال الله وملائكته لذينك الملكين آمين «اقول: آمين من الله إخبار عن الاستجابة لا دعائها وفيه أخرج أحمد والترمذي عن الحسين بن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: البخيل من ذكرت عنده فلم يصلّ علي وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قالا قال رسول الله ﷺ: من نسي الصلاة علي أخطأ طريق الجنة أقول: يعني به التناسي والتساهل. وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ آتاني جبرائيل فقال: رغم أنف أمري ذكرت عنده فلم يصلّ عليك وأخرج القاضي إسماعيل عن الحسن رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ كفى به شحاً أن يذكرني قوم فلا يصلون علي. =

تدعو استجابة لدعائك[(١)] وكلما تذكر ربك[(٢)] فلتعش ذكر الله ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾[(٣)] وتعيش على ضوئه الصلاة على رسول الله[(٤)] وكما ندرس ذلك القرن الدائب من الشهادتين!

إنما الواجب من الصلاة عليه ما في تشهد الصلاة، ويليه على أشراف الواجب كلما ذُكر، ثم وسائر الصلاة عليه سنة، فصلوات الله عليه وعلى آله ما طلعت الشمس وغربت[(٥)] وواجب التسليم له ﷺ يشمل كل حياة التكليف

= وفي نور الثقلين ٤ : ٣٠٢ ح ٢٢٠ وفي من لا يحضره الفقيه روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: وصلّ على النبي ﷺ كلما ذكرته أو ذكره ذاكر عندك في أذان أو غيره.

(١) المصدر أخرج عبد الرزاق عن ابن عيينة قال أخبرني يعقوب بن زيد التيمي قال قال رسول الله ﷺ : آتاني آت من ربي فقال: لا يصلي عليك عبد إلا صلى الله عليه عشراً فقال رجل: يا رسول الله ﷺ ! ألا أجعل نصف دعائي لك؟ قال: إن شئت قال: ألا اجعل كل دعائي لك؟ قال ﷺ : إذن يكفيك الله هم الدنيا والآخرة.

(٢) المصدر أخرج الترمذي وحسنه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم وفيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ما اجتمع قوم ثم تفرقوا عن غير ذكر الله وصلاة على النبي إلا قاموا عن أنتن جيفة.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.

(٤) المصدر أخرج الترمذي وحسنه وابن حبان عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة.

(٥) نور الثقلين ٤ : ٣٠١ في عيون الاخبار باب ما كتبه الرضا عليه السلام للمأمون عن محض الإسلام وشرائع الدين :«والصلاة على النبي واجبة في كل موطن وعند العطاس والذبايح وغير ذلك وفي الخصال عن الأعمش عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: هذه شرائع الدين - إلى أن قال: - والصلاة على النبي واجبة في كل المواطن وعند العطاس والرياح وغير ذلك أقول عله يعني من واجبة ثابتة مهما اختلفت الثبوتات فرضاً وندباً، وفي ثواب الأعمال عن أبي المعزا قال سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: من قال في دبر صلاة الصبح وصلاة المغرب قبل أن يثني رجليه أو يكلم أحداً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] اللهم صل على محمد وذريته قضى الله له مائة حاجة سبعين في الدنيا وثلاثين في الآخرة قال قلت: ما معنى صلاة الله وصلاة ملائكته وصلاة المؤمن؟ قال: صلاة الله رحمة من الله وصلاة الملائكة تزكية منهم له وصلاة المؤمنين دعاء منهم له.

في حياته ﷺ وبعد مماته ﷺ وكذلك سنة التسليم عليه فإنه المجيب ميتاً كما يجيب حياً[١] ثم الصلاة عليه في صلاة وسواها فإنه يسمع سلامنا وصلاتنا دون أن تهدَر بلا جواب وصواب أو ثواب![٢].

ولأن الصلاة عليه أحسن هدية إليه وهو أحق من يُهدى إليه فقولوا: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد»[٣] وكما قال ﷺ: اللهم صلّ على محمد وأبلغه درجة الوسيلة من الجنة اللهم اجعل في المصطفين محبته، وفي المقربين مودته، وفي علّيين ذكره وداره، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد»[٤].

---

(١) المصدر أخرج البيهقي في الشعب والخطيب وابن عساكر عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: من صلى علي عند قبري سمعته ومن صلى علي نائياً كفي أمر دنياه وآخرته وكنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة وعنه قال قال رسول الله ﷺ: أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة فإنها معروضة علي.

(٢) المصدر أخرج البيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر وابن المنذر في تاريخه عن أنس بن مالك ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم علي صلاة في الدنيا من صلى علي يوم الجمعة وليلة الجمعة مائه مرة قضى الله له مائة حاجة سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا ثم يوكل الله بذلك ملكاً يدخله في قبري كما يدخل عليكم الهدايا يخبرني بمن صلى علي باسمه ونسبه إلى عشرة فأثبته عندي في صحيفة بيضاء.

(٣) الدر المنثور ٥: ٢١٩ - أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن ماجه وابن مردويه عن ابن مسعود قال: إذا صليتم على النبي ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه قالوا: فعلّمنا قال: قولوا...

(٤) المصدر أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال قلنا يا رسول الله ﷺ: قد عرفنا كيف السلام عليك فكيف نصلي عليك؟ قال:...

وأخصر صلاةٍ عليه «اللهم صل على محمد وآله» يكتفى بها حال الدعاء كما في الصحيفة السجادية، ثم «وآل محمد» كلما ذكر، ثم أحسنوا الصلاة عليه حسب المستطاع في سائر الحالات والمجالات وكما في صلاة الجمعة والميت.

ومن اللمحات اللامعة في هذه الآية فرض الصلاة على النبي ﷺ لمّا مات، وكما صلى عليه أهل المدينة وأهل العوالي(١) فصلوات الله عليه حياً وصلوات الله عليه حين مات وصلوات الله عليه مدى الدهر، كما ومن التسليم له التسليم لمن وصاه بأمر الله(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾:

إيذاء الله ورسوله لا تحمله إلّا هذه الآية، وقرنُ الرسول في إيذائه بالله مما يؤذون إن في إيذاء الرسول إيذاء الله، فإنه يحمل رسالة الله، فإيذاؤه كرسول إيذاء للمرسلِ، وأين إيذاء من إيذاءٍ؟

---

(١) نور الثقلين ٤: ٣٠٣ ح ٢٢٨ في أصول الكافي عن أبي مريم الأنصاري عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت له: كيف كانت الصلاة على النبي ﷺ؟ قال: لما غسله أمير المؤمنين عليه السلام وكفنه وسجاه ثم أدخل عليه عشرة فداروا حوله ثم وقف أمير المؤمنين عليه السلام في وسطهم وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ...﴾ [الأحزاب: ٥٦] فيقول القوم كما يقول حتى صلى عليه أهل المدينة وأهل العوالي وفيه عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما قبض النبي ﷺ صلت عليه الملائكة والمهاجرون والأنصار فوجاً فوجاً قال وقال أمير المؤمنين عليه السلام سمعت رسول الله ﷺ يقول في صحته وسلامته: إنما نزلت هذه الآية علي بعد قبض الله لي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ...﴾ أقول: يعني أنها تعني فيما تعني الصلاة علي بعد موتي.

(٢) المصدر ٣٠٥: ٢٣٤ في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام فأما ما علمه الجاهل والعالم من فضل رسول الله ﷺ من كتاب الله فهو قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ...﴾ ولهذه الآية ظاهر وباطن، فالظاهر قوله: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦] والباطن قوله: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] أي سلموا لمن وصاه واستخلفه عليكم فضله وما عهد به إليه تسليماً وهذا مما أخبرتك أنه لا يعلم تأويله إلا من لطف حسّه وصفي ذهنه وصح تمييزه.

الذين يؤذون رسول الله ينالون منه ويظلمونه، انتقاصاً من ساحته وتكديراً لقلبه، وتكويراً لنوره، فهو يتغير بما يغيّرون ويتأثر بما يتقولون ويفتعلون: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[2].

أترى الوقيعة في أهل بيت الرسول (عليهم أفضل الصلوات) وشكيمتهم لا تؤذيه؟

أو أن سن السباب على أخيه وخليفته علي أمير المؤمنين عليه السلام لا يؤذيه؟

أم إن تحريض المؤمنين في حرب الجمل من صاحبة الجمل لا يؤذيه؟

سلوا خال المؤمنين وأمهم أمّن هم من هؤلاء الذين نكلوا بأفلاذ كبده وركلوهم، هل إن هذه تُفرحه أم تؤذيه فـ ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾!

ثم الله ليس ليتأذى كخلقه سواء، إذ لا يتغير بانغيار المخلوقين، فإيذاؤه أمّاذا من هذه المتشابهات يجرَّد عما للخلق من تأثُّر وتغيُّر، ويستخلص كما يناسب ساحة الربوبية في تحرير خِلْوٍ عن أي تعيير، فكما أن غضب الله عذابه، كذلك ايذاؤه من موجبات عذابه.

وما أشنعه وأبشعه وهم يحاولون أذى ربهم وما هم ببالغيه ولو بشق

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٩.

الأنفس، وإنما ذلك تعبير يصور حساسية مرهفة بإيذاء الرسول، وكأنما هو إيذاء لله، كما وإجاعة المؤمن كأنها إجاعة الله، أماذا من تعابير تصور فضاضة الفعل وهزازته في ميزان الله، وكأنها واصلة إلى الله! ثم ومن الرسول ﷺ يستطرد إلى المؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾:

قد يكتسب المؤمن ذنباً بحق الله أو الخلق فيؤذى حداً أو تعزيراً كما حدد في شرعة الله، أو يعتدى عليه كما اعتدى، وأما أذاهم بغير ما اكتسبوا في براءة متأكدة، أم جريمة غير ثابتة فإنها احتمال لحملين اثنين:

١ - ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ حيث الأذى من مؤمن إلى مؤمن تنادى في ظاهر الحال أنه اكتسب إثماً به يؤذى، فرية عملية وبهتة فعلية.

٢ - ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ في أصل الإيذاء شكيمة له وتحسساً منه، قد يخلِّف ما لا تُحمد عقباه، وهكذا تكون الأذى قولياً بقالة السوء عنهم، وإشاعة التهم ضدهم، ثم ويلاه الجمع بين قالة وفعلة مؤذية، وكما افتعلوها بأهل بيت الرسالة القدسية ومن نحى نحوهم من الكتلة الإيمانية[1].

قضية الإيمان هي الرحمة إلى أهله، وقضية اللاإيمان الشرس إيذاء إلهه، وبينهما عوان لا رحمة ولا أذىً هو من ضعفاء الإيمان، غير الملتزمين بقضايا الإيمان ولزاماته.

---

(١) نور الثقلين ٤: ٣٠٦ ح ٢٤١ عن المفضل بن عمر قال قال أبو عبد الله عليه السلام إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الصدود لأوليائي فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم فيقال: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين ونصبوا لهم وعاندوهم وعنفوهم في دينهم ثم يؤمر بهم إلى جهنم و٢٤٢ في الخصال عن أبي جعفر عليه السلام قال: الناس رجلان مؤمن وجاهل فلا تؤذ المؤمن ولا تجهل على الجاهل فتكون مثله والقمي عن رسول الله ﷺ قال: من بهت مؤمناً أو مؤمنة أقيم في طينة خبال أو يخرج مما قال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ :

كما تحرم أذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، كذلك يحرم التعرض للأذى بتهيئة أسبابها، وذلك في بُعديه بالنسبة للمؤمنات أشدُّ وأنكى، فعلى نساء المؤمنين إماءً وحرائر[١] ما دمن مؤمنات أن يدنين عليهن من جلابيبهن: الملابس الشاملة قرن ذيل، فلا يرسلنها مبسوطة تُرى زينهن من خلالها، فهنالك حجاب لرؤوسهن هي الخُمُر: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ستراً للصدور والثَّديِّ الثغور، وهنا حجاب لسائر أبدانهن هي الجلابيب: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ وكما الباء في ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ تلمح بتبعض الحجاب في رؤوسهن فلا يشمل وجوههن، كذلك «من» في ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ والوجوه هي أقل تقدير من الخارج عن فرض حجابهن، ثم اليدان والرجلان وكما في متظافر الأحاديث.

«ذلك» الإدناء دون إرسال، ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ بالعفاف ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ فالمرأة المكشوفة، المسترسلة المبتذلة تؤذى زَعم أنها من أهل التونُّس، فلتظهر العفيفة بمظاهر العفاف كيلا تؤذى، زعم الباطل بحقها.

إن أذى القالة فيهن ومن ثم متابعتهن إلى الفعلة فيهن من قبل الفساق وأضرابهم، هي من مخلفات عدم حجابهن كما يجب، إذ لا يُعرفن بالعفاف حيث لا ظاهرةَ له، فكما يفرض عليهن عفاف الباطن كيلا ينجذبن بجواذب من سراق الجنس، كذلك عليهن آياته الظاهرة من حجاب وسائر الملامح كيلا يخيَّل فيهن عدم العفاف.

فإذا تحجبت بكاملها ولكنها تغنَّجت وأبرزت حركات وقولات تدل على

(١) هنا روايات وردت في الدر المنثور أن هذا الفرض يخص الحرائر، فهل أن الإماء المؤمنات لا بأس في إيذائهن والتعرض للإيذاء؟ هذه خرافة طبقية قومية تجنب عنها ساحة الإسلام.

سخافتها فقد عُرفت بعدم العفاف، فلم ينفعها الحجاب - إذاً - إلّا هزءاً بكل حجاب، وهي أشر ممن لا تحتجب وليست عليها ملامح عدم العفاف إلّا عدم الحجاب، وخير منهما غير المحتجبة التي تلمح بعفافها قولة وفعلة وفي حركات وتصرفات، ولكنما الواجب على المؤمنة الجمع بين العفافين منعاً لإثارة الجنس واستثارته، فمهما عُرفت بالعفاف فلا يؤذيها الفساق، ففي تبرُّجها أو عدم الحجاب تأذي المؤمنين وتبذل المؤمنات!

وقد يبدو من ملامح آية الجلابيب - وكما تؤيده الروايات - إنها أولى آيات الحجاب، حيث تكتفي بـ «أدنى» أن يعرفن فلا يؤذين «كحكمة أولى هي أقوى الحِكَم لفرض الحجاب، ومن ثم آية النور ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا ... وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾...[1] تفرض حجاباً فوق الحجاب، وبصورة مطلقة تحلّق على «أن يعرفن» أو لا يعرفن، أوذين أم لا يؤذين، حيث الحجاب الإسلامي على النساء تتبناه حِكمُ عدة أولاها وأولاها ﴿أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾:

تهديد شديد يعم المنافقين والذين في قلوبهم مرض، منهم كأنحسهم ومَن سواهم من المشركين أم ضعفاء الإيمان المستغلين، كذلك والمرجفون في المدينة أية رجفة ضد الطمأنينة الإسلامية.

لئن لم ينتهوا ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: نحرضنك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ فيها بعد ذلك التحريض ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الوقت، أو قليلاً منهم هم أقل إرجافاً وإرهافاً، ومن ذلك التحريض الحكمُ الصارم:

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾:

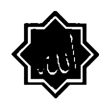
﴿مَّلْعُونِينَ﴾ في حساب الله إذ لعنهم الله و﴿مَّلْعُونِينَ﴾ بين المؤمنين بالله إذ عليهم طردتهم وعزلهم عن جوّ الإيمان كيلا يكدِّروه ويقذروه.

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ و﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ فآخر الدواء الكي حين لا يكفي طردُهم بأسهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾:

سنة دائبة إلهية ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ مؤمنين وسواهم، طرداً وقتلاً للمرجفين ضد الرسل والرسالات الإلهية، وواجباً جماهيرياً للكتلة المؤمنة أن يطهروا الأجواء حسب المستطاع من المرجفين ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

وليست التقية في ظروفها تبديلاً لهذه السنة السنية، حيث التكليف مرفوع عندها، وإنما تطبَّق هذه السنة عند الاستطاعة حسب المستطاع.



﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣)﴾

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣)﴾:

سؤال عن وقت الساعة تعنتاً لها ونكراناً، كأنها حين لا جواب عنه فلا حقيقة لها، والجواب الحاسم ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ ولا جواب سواه إلّا ترجي قربها ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ عل البداية هي خلق هذا الإنسان حيث السائلون هم من هذا النسل فلا يعرفون مدى قربها إلا بمعرفة البداية،

أم هي بداية خلق المكلفين قبل هذا الإنسان، فقربها يطمئننا أن الأكثر أياً كان لقد مضى، وعلى أية حال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾:

السعير نارٌ شديدة الحرارة والزبانية، وهي من مظاهر اللعنة الأخروية، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ اللعنة بمطلق الخلود الذي فيه خروج، أو الخلود المطلق الذي ليس فيه خروج، والخلود - أياً كان - يخص الكافرين، وأما سواهم ممن يستحق العذاب، فعذاب البرزخ، ثم الشفاعة في القيامة، ثم مس سقر دون خلود، اللهم إلا من هو كالكفار المعاندين، كما ومن الكفار من لا يخلد أو لا يعذب وهم القاصرون.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾:

﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ عما كانت يوم الدنيا إلى حقائقها النحسة الكالحة، و«تقلب» حال بعد حال في سيئات الأحوال، و«تقلب» من جهة على النار كاللحم يشوى، وإلى سائر التقلبات السوء هناك حسب سوء التقلبات هنا جزاءً وفاقاً.

ثم ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾ التحسر الدائب عذاب فوق العذاب، كما:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾:

وهي مقالة الأتباع، حيث الكافرين يعمهم والمتبوعين وللكل خلود، مهما اختلف خلود عن خلود وهذه القيلة لهم حيلة كأنها لهم عاذرة عن كفرهم، أم مخففة عن عذابهم، وأما مضاعفة العذاب لمضلليهم فهو لا محالة واقع:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾:

مهما لا يستجابون ككل، فقد يضاعف لهم العذاب، وأخرى ﴿لِكُلٍّ

ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ مهما اختلف ضعف عن ضعف، فضعف المضللين لضلالهم وإضلالهم، وضعف المضللين لضلالهم وتخاذلهم في اتباعهم!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ۝٦٩﴾:

هذه أذية خاصة فيها فرية وتهمة لمكان ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾ مهما كانت مطلق الأذية محرمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾...[1] ولكن أذية الفرية هي ألعن وأنكى.

ولـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾[2] فضلاً عن الرسل، فلا تبقى فرية على رسول إلّا مبرئة بما وعد الله، مهما طالت المدة أم قصرت، ومهما مضت على الفرية ردح فالمهم هو الوجاهة عند الله ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾.

ومما آذوا النبي ﷺ هي قصة الإفك، وقصة حليلة زيد، وقد برأه الله في اذاعة قرآنية خالدة، كما برأ موسى مما نسبوا إليه من فاحشة ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾:

القول السديد هو شديد السداد حيث يسدّ عنه تخلفه عن العقيدة فإنه نفاق، أم تخلفه عن الواقع فهو كذب، أم تخلفه عما يعنيه فهو لغو، فليُسدَّ عن أقوال المؤمنين كافة الثغرات والنوافذ إلى باطل، وهذا من مخلفات تقوى الله، إذ تشمل القول إلى العمل إلى الاعتقاد.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٨.

والقول السديد يصلح الأعمال، وهو ذريعة لغفر الذنوب، ثم القول السديد وصالح العمل هما طاعة الله الرسول، وهي الفوز العظيم.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾:

آية الأمانة هذه منقطعة النظير في عرض الأمانة على الكون كله فإباؤها عن حملها والإشفاق منها وأن الإنسان حملها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فما هي تلك الأمانة وما هو عرضها وحملها والإباء عن حملها؟

الأمانة - بوجه عام - هي كل ما يؤمن عليه ويُطمأَن به مالاً أو حالاً أو عملاً أمّا ذا من واجب الأداء إلى أهلها كما أؤتمنت وحيث وأنّى وكيفما، ولا تصدق الأمانة إلّا فيما قبلت طوعاً أو كرهاً فأداءً لها أم خيانة فيها، وأما التي لم تقبل حتى يؤمن عليها فتؤدى أو تخان، فلا تحمل اسم الأمانة مهما وجب قبولها أو لم يجب، وكما وهي مستحيلة بالنسبة للأمور التي ليست لتنفصل عن المؤتمن حتى يأتمن غيره فيها.

ثم المقبولة طوعاً كسائر الأمانات أو كرهاً كأمانة السماوات والأرض والجبال ومن ضمنها الإنسان، هي بين محمولة دون رد وبين مؤداة، فمن طبع الأمانة أداؤها لا حملها إلّا لأدائها، فمن حمَلها فقد خانها: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[2] كشريطة من شروط إسلام التكليف، وبأحرى إيمانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾[3] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[4].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٨.

وقد تختلف الأمانات وجاه متقبليها في عرضها، فلا تُعرض أمانة العقل على من ليس يعقل، ولا أمانة الشعور على من ليس يشعر، ولا أية أمانة على ما ليس ليحملها، وهنا ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ معروضة على الكون كله فكائنة كامنة في الكون كله، المعبر عنه هنا وفي سائر القرآن بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وتخصيص الجبال من زمرة غير العقلاء يعني مثالاً لأصلب كائن وأصلده، كما تخصيص الإنسان من زمرة العقلاء يعني أعقل كائن، فهذه الأمانة من الرحمة الرحمانية بعد الخلق كالهداية العامة ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] ومن الهدى لكل شيء هدي التسبيح ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2] وتجمعهما الولاية وكما في رواية.

إذاً فليست هي فقط - أمانة العقل إذ تخص العقلاء، ولا أمانة الشعور إذ تخص الدواب، ولا أية أمانة تخص كائناً دون سواه، فهي إذاً أمانة تعم كل كائن هي مخلوقة معه مفطورة فيه، خلقت مع الخلق كله وعرضت على الخلق كله فانقسم في هذا العرض العريض إلى من ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فهي - إذاً - الولاية، شعور التسبيح بحمد الله وواقعه.

ولأنها أمانة فقد تحملها الكون كله كرهاً في تكوينه، إذ لا تسمى أمانة وجاهَ من لم يتقبلها، ثم ولا موقف لها أمانةً إلّا أداؤها أو خيانتها: ﴿فَأَبَيْنَ . . . وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ﴾ بعد تحمّلها في كره التكوين فحمل الأمانة هو خيانتها، والإنسان هو رأس الزاوية في خيانة الأمانة ثم الجن ثم سائر المكلفين، فهو من هذه الناحية - ككلٍّ ومجموعة - في أسفل سافلين، ومن حيث السابقين والمقربين وأصحاب اليمين هو رأس الزاوية في أداء الأمانة

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

سليمة فهو في أعلى عليين، حيث الرسالات الإلهية في الأصل ليست إلا في قبيل الإنسان. ولو أن حمل الأمانة يعني - فقط - تحملها، لم يكن للإباء عنها مجال لأي كائن، حيث العرض الرباني لها بجمعية الصفات «إنا عرضنا» ليس إلا لصالح الكائنات، فالتخلف عن قبولها تخلف عن إرادة الله، ولو كان بالإمكان لكان من العصيان، فقبولها طاعة، فكيف يعلَّل ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إذاً بـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، ومن ثم «ليعذب..» فهل أن مطاوعة الرب في تقبل الأمانة المعروضة ظلم وجهل يستتبعان العذاب؟!

إذاً فهي بُعدٌ ثانٍ من تكوين كل شيء وكينونته، لكلٍّ حسب مستواه ومستطاعه ووهبته دون زائد ولا ناقص، فهي لمن يعقل تكليف العقل قَدَره، ولمن يشعر تكليف الشعور قَدَره في حيوان أم نبات أم جماد: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1].

إن أمانة التكليف بصيغة أخرى هي «الولاية»[2] ولاية الله في تسبيح دائب كما لسائر الكون، وسائر الولايات في درجاتها لكل كتلة كما تناسبها كولاية الرسل لسائر المكلفين وولاية الرسول والأئمة[3] في خاتمة

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) نور الثقلين ٤: ٣٠٩ ح ٢٥٨ في عيون أخبار الرضا بإسناده إلى الحسين بن خالد قال: سألت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ...﴾ [الأحزاب: ٧٢] فقال: أمانة الولاية من ادعاها بغير حق كفر وفي معاني الأخبار ح ٢٦٠ مثله وفي ح ٢٦٧ بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال الولاية أبين أن يحملنها كفراً وحملها الإنسان والإنسان الذي حملها أبو فلان أقول حملها كفراً هو خيانتها كما خانها أبو فلان.

(٣) المصدر ح ٢٦١ في أصول الكافي عن إسحاق بن عمار عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام أقول إنه من باب الجري والتطبيق على بعض المصاديق فقبلها ولاية الرسول وقبلهما ولاية الله، والأخيرة هي العامة للكون كله.

الرسالات للخلق أجمعين، والتكليف صفة عامة في الولايات بدرجاتها ومن أهم الأمانات العملية الصلاة[1].

أجل! إنها بوجه يعم ويطم هي أمانة التكليف طوعاً أو كرهاً حيث كُلِّفها كلٌّ وسعَه، وتسبيح الله بحمده واقع لا ريب فيه في كل شيء، اللهم إلا الإنسان وأضرابه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾!

وعرض الأمانة هذه بذلك العرض العريض ليس ليعني عرض التخيير الترديد، بل هو عرضها على كل كائن بفرضها في ذات تكوينه، عرض يعني عرض الحال للبعد الثاني في كل كائن، حال واقعة لا مناص عنها في كينونته، فـ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾. . . ليس إلّا عرض واقع الحال للإنسان الظلوم الجهول، إنه المتخلف الوحيد في الكون كله بمن معه مِن أضرابه الجن أمّن ذا، وكما الأسماء عرضت على الملائكة لبيان حالهم وجاه العلم بها ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[2] وكما الصافنات الجياد عرضت على سليمان (٣٨: ٣١) كما ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾[3] كعرض الخير على أهله، ويماثله في أصل العرض الشر لأهله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾[4] ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[5] ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[6].

(١) المصدر ح ٢٦٥ في عوالي اللآلي في الحديث أن علياً عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلون فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين (عليك السلام) فيقول: جاء وقت الصلاة وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها أقول صلاة كل شيء بحسبه فهي لهذه الثلاث التسبيح كما في آياته.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٨.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١٠٠.

(٥) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

(٦) سورة غافر، الآية: ٤٦.

فكما الجنة والرحمة هما البعد الثاني لأهلهما لزاماً لهما عطاءً من ربك جزاءً وفاقاً، وكما النار هي البعد الثاني لأهلها جزاءً حساباً يوم الأخرى، كذلك الأمانة المعروضة على الكون كله هي البعد الثاني في الأولى، المتبني حياة الأخرى إلى سجين أم إلى عليين!

«أنا» في جمعية الصفات لا الذات وسبحانه «عرضنا» كذلك الأمر «الأمانة»: مطلق التكليف لا التكليف المطلق الخاص بذوي العقول، فسائر الكون مكلف بمعداته أن يعيش سائراً إلى ما خلق لأجله، أمام الخالق مسبحاً وأمام الخلق عدلاً سائراً ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ دون ردٍّ وبأداء كما حُمِّلن، فإن حمل الأمانة مطلقاً دون أداءٍ خيانة لها مطلقاً، وفي أداء غير سليم خيانة نسبية، فأبين أن يخونها وكلٌّ يعمل كما حمّل ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ خوفاً خليطاً بتعظيم، خوفاً من الله وتعظيماً لجلال الله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩﴾[1] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ۩﴾[2].

فهناك في الكون كلِّه تسبيح وسجود لله والكل مسخر بأمره ﴿... وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾[4] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ...﴾[5]. هؤلاء وهؤلاء

(١) سورة الرعد، الآية: ١٥.
(٢) سورة الحج، الآية: ١٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(٤) سورة النحل، الآية: ٧٩.
(٥) سورة النور، الآية: ٤١.

من حيوان ونبات وجماد ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

أترى بعدُ أن في حمل الأمانة تحملاً لها ظلماً وجهلاً حتى يؤنب قبيل الإنسان بذلك الحمل، وفي تحملّها وأدائها كما حمِّل عدل وعِلم! فليكن حملها خيانة لها ناشئة عن ظلمه بها وجهله بمن حمّلها إياه ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1].

«فقد خاب من ليس من أهلها أنها عرضت على السماوات المبنية والأرض المدحوة والجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عزٍّ لامتنعن ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2].

إنه لا أظلم من الإنسان ولا أجهل وجاه الأمانة العامة إلّا القليل ممن وفى لرعاية الحق فيها فمؤديها كما حمِّل، فهو في أحسن تقويم إذا وعى ورعى، وهو في أسفل سافلين إذا أودع وغوى، فلا مثيل له في سائر الكون في حمل الأمانة خيانة وأدائها صيانة.

«إنه كان» فيما كان أياً كان وأيان، في كينونة الخلقة فإن النفس لأمارة بالسوء، مهما خلقت له الفطرة والعقل، ولكنه بالفعل في الأكثرية الساحقة تتغلب هواه عقله وطبعُه فطرته.

﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ فيما يؤتمن من أمانة وما لا يؤتمن، ظلوماً بنفسه

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأخرجه عنه عليه السلام في الكافي مثله.

وغيره وأمانته، ظلوماً بحقه وكل حق وحقوق الآخرين... ﴿جَهُولًا﴾ بحق الله وأمانة الله ورعاية الحق في خلق الله!

ومن مخلفات حمل الأمانة في دركات الخيانة ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ ومن ذلك في عدم تحملها كما حمّل قصوراً أو تقصيراً في أداء الأمانة كما يجب: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ويبقى الرعيل الأعلى من المقربين ومن ثم أصحاب اليمين الذين أدوها كما حمّلوها في واجب التحمل والأداء، هؤلاء لا عذاب لهم إذ لم يحملوها حيث أدوها سليمة، ولا توبة إذ لم يقصروا فيها ولا هم قاصرون وجاهها.

فالتقسيم الثلاثي هنا راجع إلى مقسم حملها خيانة كما في المنافقين والمشركين، وتقصيراً أو قصوراً كما في المؤمنين، دون من لم يحملها على أية حال كالمعصومين.

﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هنا يعم الكافرين، وثنيين وكتابيين أمن ذا ممن أشرك في توحيد الله أو شرعته وأمره، أو في طاعته، فهو يشمل كافة دركات الإشراك بالله في مختلف دركات العذاب، كما ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعم كتلة الإيمان بدرجاته، الذين يعيشون حياة الإيمان مهما تفلتت عنهم صغيرة أو كبيرة حيث تكفَّر بتوبة أو شفاعة أو رجاحة الحسنات أو ترك الكبائر أما ذا من معدات التوبة من الله: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

فيا للإنسان من ظلوم بحق الأمانة ما أظلمه وجهول بها ما أجهله وهو أعقل من في الوجود، وقد منح ما لم يمنح غيره من معدات التكامل!

٣٤

سُورَةُ سَبَإٍ



مكيّة وآياتها أربع وخمسون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

آيات سبع من هذه السورة تختص بسبإ، طياً لدورهم الحائر إلى كورهم البائر، في حياة جهنمية كانوا يحسبونها جنة بجنّتيهم، ترمز هذه السبع لدركاتهم السبع، وتختص بهم اسم السورة فإنهم هم فيها المسرح لنوازل البلاء بعد منازل الترح والخيلاء إذ بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلونها وبئس الفرار!

موضوعات هذه السورة هي موضوعات العقيدة الرئيسية: الأصول الثلاثة: المبدأ والمعاد وما بين المبدأ والمعاد، طالما التركيز الأكثر فيها على المعاد، تبحيلاً بمن يعتقدونها فثواباً، وتخجيلاً بمن ينكرونها فتباباً، يأخذهم يوم الدنيا قبل الآخرة: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ...﴾(١).

يبدأ فيها بالمبدأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ ويختم بالمعاد: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾(٢) وفيما بينهما عرضٌ لما بينهما من الوحي والنبوة وصنويهما ومصدقيها وناكريها وبمسائرهم ومصائرهم والله من وراء القصد.

وإنها رابعة السور المفتحة بالحمد له، إذ تسبقها الأنعام والكهف والفاتحة وتلحقها الملائكة! طالما هي في الفاتحة معلَّلة بخمس: ﴿لِلَّهِ - رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ - ٱلرَّحْمَٰنِ - ٱلرَّحِيمِ - مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثم هي في الأنعام معللة - فقط - بالرحمة الرحمانية: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(٣) وفي الكهف بالرحيمية ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾(٤) وكما في الملائكة رحمانية ورحيمية ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾(٥)! وهي هنا تجمع بين رحمة الدنيا والآخرة:

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٥.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١.
(٤) سورة الكهف، الآية: ١.
(٥) سورة فاطر، الآية: ١.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾:

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ كله ومن كل حامد ﴿لِلَّهِ﴾ لا سواه فإنه ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾: مِلكاً ومُلكاً ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهي صيغة أخرى عن الكون كله، وطالما يُحمد هنا غير الله مع الله شركاً، أم يُلحد في حمده فـ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ لا سواه، فلا حامد هناك إلّا له، فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هنا استحقاقاً مهما تخلف عن الواقع ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ هناك واقعاً دون تخلف حتى ممن كانوا يجحدونه في الدنيا أو يشركون به سواه فيتمحض له الحمد في أخراه.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]؟ ثم ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه تكويناً وتشريعاً ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بعباده علماً ومن سعة علمه بحكمته:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾:

﴿... يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

فالوالج والخارج، والنازل والعارج هي صيغة أخرى عن كل حركة هي لزام كل كائن، محسوسة ملموسة، أم مغموسة مطروسة فهو خبرة شاملة وعلم كامل بكل شيءٍ، ولا شيءَ مخلوقاً إلّا في حراك دائب ولوجاً وخروجاً، أم نزولاً وعروجاً ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[3] معية القدرة النافذة، والحيطة العلمية ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعبادة على أية حال ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ على

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٤.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٤.

أية حال، اللّهم إلّا إذا كان الغفر ظلماً، فإنه أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة!

و﴿مَا﴾ هنا لا يعزب عنها عازب ولا يغرب عنها غارب، من والج الماء والهواء والبذر والدفناء من حيوان وإنسان ومن خارج النبات أم أي خارج، كما نازل السماء يعم - فيما يعنيه - نازل الماء والملائكة بالوحي ومن كل أمر، والعارج إليها من أرواح وأعمال وأبخرة أماهيه!

نقف هنا أمام هذه الصفحة المعروضة العريضة في كلمات قليلة غير طويلة، فإذا نحن أمام حشد هائل وجمع طائل من أشياء بحركاتها وتحولاتها في كل مجالاتها بأحجامها وصورها وأشكالها ومعانيها، لحد لا يصمد لها الخيال ولا يخطر في هيمنتها ببال!

ولو أن العالمين أجمع وقفوا وقفة واحدة لإحصاء ما يحصل في لحظة واحدة من بليارات اللحظات والحركات التي تطمها هذه الآية لرجعوا حاسرين.

أترى ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هنا أرضنا هذه؟ ثم ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هي المحيطة بها لا سواها، والقائل هو خالق السماوات والأرضين!. إنه كل أرض وكل سماء، فكل والج وخارج، وكل نازل وعارج، من أي أرض فيها وإلى سماء ومن كل سماء فيها وإلى كل أرض أو سماء، تشمله هذه الآية دون تحديد.

فكم من حبة تختبي أو تُخبّى في جنبات الأرضين، أم أية دودة أو حشرة، أم هامة وزاحفة تلج فيهن، وكم من ذرات غازات وإشعاعات كهربائية تندس في هذه البسيطة ورفاقها، وكم وكم مما لا نعرفها ولن. . . وعين الله يرعاها ساهرة معها!

وكم تخرج منها من نبعة فوارة، أم بركانة ثوارة، أو غازة متصاعدة أماهيه، لم يخلد بخلدٍ؟!

وكم من نازل من السماوات وعارج فيها من مجاهيل عندنا، ومهما عرفنا طرفاً منها نجهل أقدارها وأعمارها وأسرارها؟!

فيا لآية قصيرة واحدة من إحاطة لحراكات الكائنات في لمسة واحدة تتجلى فيها مملكة الوجود فوق مدّ البصائر والأبصار وحدّ العلوم والأفكار! أفبعد هذه القدرة الجامعة والحيطة اللامعة يعني ربنا عن إعادتنا نحن الهُز إلى الصغار الصغار؟:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾:

قالة من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالساعة ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ وحتى لو أتت غيرنا حيث السلب يخصهم فيما قالوا!.

والجواب بصورة ادعاء دون برهان وفي سيرة أقوى برهان ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ لتأتيكم الساعة كما تأتي غيركم ﴿وَرَبِّي﴾ فملامح التربية الإلهية الخاصة في دليل نبوتي، وإتيان الساعة أصل من أصولها، فـ ﴿وَرَبِّي﴾ هنا كما في قالة المرسلين في يس ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[1] فلأن النبوة المحمدية تفوق النبوات، محلِّقة على كافة النبيين، ففائقة التربية الإلهية فيه ناصعة، فهو بنفسه دليلٌ للمبدأ والمعاد عبر الوحي بواقعه وظاهره.

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ومن هو ربي؟ ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ﴾ والشهادة فكل شيء عنده شهادة ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾... ولا يغرب.. وقضية الحيطة العلمية هي العلم الشامل بكل ما يحصل من تقوى وطغوى أفبعد علمه وقدرته وحكمته سوف لا يجازي التقاة والطغاة، وهو جهل أم عجز أم ظلم، وما الله بظلام للعبيد!

(١) سورة يس، الآية: ١٦.

أم لأن الأجساد بأرواحها تضل في الأرض فلا يمكن جمعها فلا جمع ولا يوم جمع؟ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ . . . قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ. . .﴾[١]! ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾. . . مهما عزب عن علمكم، فلا عزب عن قدرته ولا عن علمه ولا عن حكمته ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[٢].

وليس فقط: لا يعزب عن علمه «كبيرة» بل ولا ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ولأن آية المثقال تحلّق على كل كائن أياً كان سوى ذاته تعالى وتقدس إذ ليس مثقالاً ولا ذرة ولا هو في السماوات ولا في الأرض، فليكن لكل كائن مثقال وهو وزن يقتضي حجماً من مادة ومادي، وهو الطاقة المنبثقة عن المادة، فلا مجرد - إذاً - سوى الله!

ثم ﴿ذَرَّةٍ﴾ وأصغر منها وأكبر، ليست لتعني - فيما تعنيه - الخارج عن حدود المادة، حيث المحور في مثلث «ذرة - أصغر منها - وأكبر منها» هو المادة، فلا كائن - إذاً - سوى الله إلّا في نطاق هذا المثلث دون إبقاء!

ومهما كانت الذرة معروفة قبل ردح من الزمن أنها أصغر الأجسام المرئية، فقد كشفت البشرية عن ذرات هي أصغر منها بكثير، ومن ثم بعد تحطيم الذرة تعرفت إلى أصغر من ذرة وهو جزئياتها الإلكترونية والبروتونية والنيترونية والبوزيترونية أماهيه، ولما يصل العلم - ولن، - إلى المادة الأم، التي منها الذرات والجزئيات والعناصر كلها - ثم لا أجزاء لنفسها تتجزأ إلا تجزئة عن كونها إلى فناء مطلق وانعدام مطبق[٣].

---

(١) سورة السجدة، الآيتان: ١٠، ١١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٣) راجع تفسير الآية ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] في الجزء (٢٦) من الفرقان و«حوار بين الإلهيين والماديين».

آية الذرة هذه لا نظيرة لها إلا ما في يونس ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1] وعلّها أكد شمولاً لمكان «من» الضاربة إلى أعماق الكائنات بذراتها وأصغر منها دون أن يفلت منها فالت، كما ولـ «ربك» موقعها من ذلك التأكيد الأكيد!.

و﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أهو القرآن: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[2]؟ ولكنه البعض من علم ربك الممكن تعليمه لعباده لا كلّه. ولكن ذلك العلم يختص بكل الكائنات، لا وحتى الذات المقدسة، فليكن ذلك دونها: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[3] حيث الرطب واليابس كناية عن كائنات الممكنات ككلّ دونما استثناء!: ﴿. . . يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾[4].

فالكائنات كلها ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كتاب العلم المطلق والقدرة المطلقة، الصادر منه كل رطب ويابس!:

﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾:

ترى ولماذا ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾؟ ﴿لِّيَجْزِيَ. . .﴾ قضية العدل، و﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾. . . ﴿لِّيَجْزِيَ﴾ قضية العلم! فالعدل - فقط - لا يكفي

(١) سورة يونس، الآية: ٦١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.
(٤) سورة هود، الآيتان: ٥، ٦.

لضرورة الجزاء لولا العلم بالصالحين والطالحين، والعلم - فقط - لا يكفي لولا العدل، إذاً فـ﴿لِيَجْزِيَ...﴾ هي حصيلة العلم المطلق والعدل المطبق على كل الكائنات، فلولا الجزاء فإمّا ظلم أم جهل، أم هما معاً فأسوأ وأنكى!

ولئن شك الجاهلون المتجاهلون في ذلك الذكر الحكيم ونبيه الرسول الكريم، فهنالك العالمون يصدقون ويوقنون:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾:

أترى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ هم - فقط - علماء أهل الكتاب كما يقال؟ فغيرهم حين لا يرون ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾... ليس إلا قصوراً في العلم إذ لم يؤتوا، فهم - إذاً - لا حجة عليهم حين يكفرون، كما لا حجة لهم حين يؤمنون، فلا قيمة لإيمانهم دون علم ولا سؤال عن كفرهم دون علم!

﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ ليست إلّا وسيلة للتفتح إلى ذلك الكتاب الخالد المفتوح بمصارعه للأجيال طول الزمان وعرض المكان، وللعلم درجات عدة يرى صاحبه ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ حسب درجاته ومحاولاته، فقد يكون من علماء الكتاب عارفاً بالبشارات المودوعة في كتابات الوحي بحق القرآن ونبيه ثم يجحد متجاهلاً قاحلاً!.

وقد يكون من جهال المشركين، فلأنه يحاول الحصول على الحق المرام يتحراه فيجد بغيته في ذلك الكتاب لأنه مسرح فصيح بليغ فسيح عن تجوال آيات الله البينات، والله يشهد بكلامه لحقه!

فـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ هم بوجه عام كافة المكلفين غير القُصَّر والمجانين، مهما كان أهل الكتاب وعلمائهم، وسائر أهل العلم أقوى حجة

من غيرهم تدليلاً على حق القرآن، ولكنه لا يمانع أصل التكليف بحجة العلم، وأقله علم الفطرة - مهما كان أصله - ثم العقل ثم علم الكتاب تقليدياً ثم باجتهاد وكذا سائر العلوم البشرية، والجامع بينها كلها معرفة الله، فالعارف ربه يعرف كلامه قدر ما عرفه.

فما من عاقل يفتح عينه إلى هذه الآيات البينات، أم أذنه وسمعه لسماعها، متدبراً فيها، إلّا وسوف يحصل على علم: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ فإنه أفضل الآيات وأخلد المعجزات ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَـٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ ...[1] مهما كان الأوفر علماً هو أوقر ثقلاً حيث الحجة عنده أكثر، فنكرانه لحق القرآن أنكى وأنكر.

هنا لا بد من علم ما يعرف به الحق من الباطل، ثم وإعماله كما يصح حتى يحصل على الحق المرام، والعلم المبدئي حاصل لكافة المكلفين، ثم عليهم حسب درجاتهم أن يدبّروا القول ويتفكروا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[2] فلا حجة - إذاً - للأغفال الكفار ما دامت لهم عقول تعقل، ثم لا حجة على القصر والمجانين.

فالذين أوتوا العلم من أهل الكتاب عندهم علم الوحي الكتابي بحق هذا القرآن إضافة إلى سائر العلم فطرْياً وعقلياً ...[3].

والذين أوتوا العلم من سواهم، بدراسات علمية لمختلف معلومات الكون، عندهم علم دون الوحي بحق هذا القرآن.

والذين أوتوا العلمين، عندهم علم مضاعف، حيث العلم أياً كان هو مفتاح للتفتح على حظيرة العلم وخزانته وإنما يعرف أهل الفضل ذووه.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٣) راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» تجد فيه زهاء ستين بشارة بحق القرآن ورسوله.

والذين حرموا العلمين عندهم علم العقل على ضوء الفطرة، فعندهم وحي الفطرة ومن ثم العقل، بهما يعقلون حق القرآن، فأين - إذاً - اختصاص الحجة بعلماء أهل الكتاب أم أي العلماء؟

ثم ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ هنا يحصر الحق في القرآن كأنه لا حق سواه، أفلا تكون كتابات الوحي بين يديه حقاً يسندون إليها أهلوها بحق القرآن؟

أجل! ولكن الحق درجات من أدناها إلى أعلاها، فالقرآن أعلاها، كما ولثباته درجات والقرآن أثبتها خلوداً وأعلاها! ومن ثم هو بين تحرف من المحرفين، وسليم عن أيدي الدس والتحريف والقرآن سليم في أعلاها.

إذاً فذلك الحق الأخير هو الأعلى في مثلث الكمال والخلود وسلامة الأصل، طالما الكتب السماوية الأخرى جامعة لسلبيه جمعاً بين النسخ والتحريف، وأنها دون الكمال القمة! إذاً فـ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ لا سواه كما ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾: كتاب عزيز حميد: لا يُغلب في معتركات الصدامات، ولا يذم في مذامٍّ بمختلف الجهات، ثم وهو يهدي إلى صراط الله ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾!

هؤلاء هم الذين أوتوا العلم حين يستعملونه في الحصول على الحق، ولكن الذين كفروا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا هم المشركون، دون الكفار من أهل الكتاب، إذ ينكرون هنا المعاد وهو أصل من الأصول الكتابية، فهم أولاء الأغفال يقولون مستهزئين، لإخوانهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ

مُمَزَّقٍ﴾ تمزقاً لأرواحكم عن أجسادكم، وتمزقاً لأجسادكم إلى رفاتكم، وتمزقاً لرفاتكم أم أجسادكم إلى مختلف المكان من أبدان أم أياً كان.

﴿يُنَبِّئُكُمْ . . . إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بعد مثلث من ذلك التمزق البعيد البعيد؟ وهذا باطل ليس صاحبه إلّا أن: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ حين ينقله عن الله ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ حين يقوله، فإنه على أية حال محال لا ينسب إلى الله، ولا إلى العقل، خارج عن وحي الأرض والسماء، مارج من فرية وجنون!

ولكنه لا! لا هنالك فرية ولا جنون ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ تغاضياً عن براهينها الظاهرة، إنهم عائشون ﴿فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ يوم الدنيا قبل يوم الدين، فـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ هو عذاب التغافل عن أحكام الفطرة والعقل، تغاضياً عن ظاهر إدراكاتهم وباطن معرفياتهم، وذلك هو ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ حيث الضلال القريب هو المرجو زواله إذ ليس عن عناد ماكن، وأما الذين ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] فضلاً لهم بعيد وحتى يموتوا ضُلّالاً، ومن ثم العذاب القريب!

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾:

أترى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو أفق السماء والأرض؟ وصحيح التعبير عنه «ما تحت أرجلهم من الأرض وما فوقهم من السماء»!

أم «ما بين أيديهم وما خلفهم» من كلٍّ من السماء والأرض أماماً وخلفاً؟ وتبقى الجهتان الأخريان يميناً وشمالاً، حيث الأربع هي الأفق المشهود من السماء والأرض!

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

أم لا هذا ولا ذاك، وإنما هي تلميحة لطيفة عميقة الجذور، بطيئة الظهور لكروية الأرض ودورية السماء، فـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من الأرض هو الأفق المشهود الدائري لكل شاهد في أكناف الأرض، ثم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هو الأفق والآفاق غير المشهودة، فليس ﴿خَلْفَهُمْ﴾ إلا خلف الأرض، وراء الأفق الظاهر، إذاً فليست الأرض مسطحة، بل هي مدورة مكورة لها من كل جانب منها ظهر وجاه خلف.

ثم و﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من السماء هو الأفق الظاهر منها لكل ناظر إليها في آفاق الأرض، فـ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هو الأفق غير الظاهر فليكن خلف الأرض - أياً كان - أرض وسماء، أرض تحيط بها السماء من كافة مناكبها، فهي - إذاً - في السماء معلقة كسائر نجومها ومصابيحها!

وترى كيف استفهام الإنكار التنديد بمن كانوا يعيشون الزمن الذي كانت كروية الأرض فيه كفراً وخلافاً للإحساس والعلم[1]؟! ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾... أجل

---

(١) في زوايا التاريخ ليست الأرض كروية فقد كان أول تصور للإنسان في شكل الأرض أنها بساط عظيم هائل لا نهاية لعمقه يعتمد عليها قبو السماء كالسقف المرفوع، ولما تقدم في الملاحة وقطع البحار الواسعة أخذ يتصور أن الأرض سابحة في أوقيانوس من الماء لا نهاية له وكان ذلك خطوة لتصور أن الأرض محوطة بدائرة وترتكز على جذور طويلة مثل الشجرة، وساد كذلك اعتقاد قديم بأن الأرض بساط مستدير يقوم على اثني عشر عموداً، ولكن على أي شيء تقوم هذه العمد؟ فيجيب قساوسة في أوروبا في القرون الوسطى بأنها تقوم على الضحايا البريئة من أهل الفضيلة والتقوى الذين لولا وجودهم هنالك لدكت الأرض وذهبت هباءً في الفضاء، وقد كان (اناكسيماندر) إلا غريقي في القرن السادس قبل الميلاد يرى أن الأرض كالأسطوانة وأن قطرها يساوي ثلاثة أميال ارتفاعها، وأنها سابحة في مركز القبو السماوي وأنه لم يسكن منها إلّا وجهها الأعلى، وتوجد أوروبا في النصف الشمالي وليبيا أو إفريقيا وآسيا الجنوبي، ثم جاء من بعده بقليل الفيلسوف أفلاطون وقال: إن الأرض مكعبة، لأنه كان يعتقد أن المكعب أكمل الأشكال الهندسية فيجب أن يكون موطناً لأفضل الكائنات وهو الإنسان، وأنه قبل أن يقول علماء الغرب بكروية الأرض سبقهم إلى ذلك من عهد بعيد علماء الشرق حيث تخيلوا أن الأرض كروية وتنتهي شمالاً وجنوباً بجبال عظيمة الارتفاع، ومنذ ١٥٠٠ سادت في الغرب نظرية تقول: إن الأرض بيضاوية وإنها سابحة في الأثير.

لم يروا، وأنى لهم أن يروا، والعلم قاصر، والجهل قاهر، والوحي عنهم به منقطع؟!.

عله لأن وحي الكتاب كان يشير إلى هذه الملحمة العلمية، ومهما كانوا هم مشركين ولكنما الاختلاط بالكتابيين يجعلهم يعرفون أمثال هذه الملاحم التي تهمهم علمياً مهما لا تهمهم عقائدياً، ثم وهذه تحريضة علمية للأجيال أن يروا رؤية عينية أو علمية ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فمثلها كمثل قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

ثم وكان لهم قبل وحيه أو اكتشافه علمياً أن يروه تأملاً وتعملاً للضرورة الملموسة لهم أن الأرض ليست مسطحة دون خلف كظهرها، لاختلاف الآفاق ليلاً ونهاراً!

وهناك آيات أخرى تؤشر إلى دوران الأرض وكرويتها نأتي على تفسيراتها بطياتها، وآيتنا هذه ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟﴾... هي الوحيدة بين رفاقها تدليلاً كالصريح على كروية الأرض وقد تزاملتها آية التكوير[٢].

وقال الإدريسي وهو أحد الجغرافيين من العرب في القرن الحادي عشر للميلاد: إن نصف هذه الأرض البيضاوية مغمور في الماء وذلك ليحل مشكلة النصف المجهول، وكان بطليموس في القرن الثاني للميلاد وهو من أشهر الفلكيين يرى أن الأرض مثل كرة مفرطحة من جانبيها كحبة القوطة، وجاء (ابيانوس) في ١٥٢٠ فقال: إنها تشبه القلب، وصادفت نظريته ميلاً في قلوب قساوسة الدين في أوروبا فأيدوه قائلين إنها قلب الله، وإن هذه

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٢) وهي ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ...﴾ [الزُّمَر: ٥] راجع (٣٩: ٥).

الكرة القلبية تشبه أرض المكتشف العظيم (كولمبوس) حيث تصورها مثل الكمثرى، فالنصف الكروي هو الشرقي والنصف المستطيل هو الغربي، والتمدد الذي أوجده فيه هو (العلم الجديد) الذي اكتشفه، وأما (دانت) فقد تصورها قبل ذلك بقرن في مثل هذا الشكل جاعلاً هذا التمدد لحجمه الذي صوره فكانت جبال المطهر تحت خط الاستواء بثلاثين درجة، بينما جعل (أورشليم) أو (ريون) في الجهة المقابلة ليحفظ التوازن.

وظهر في ١٨١٩ في (سنت لويز) بالولايات المتحدة القبطان (جون كليفز سيمس) بنظرية عجيبة تعرف باسمه أو بنظرية الكرات المتداخلة وهي أن الأرض أو أي كوكب يتكون من عدة من الكرات المتلابسة والمشتركة في مركز واحد وبين كل كرة والتي تليها فاصل مملوء بالهواء، وعند القطبين فتحة كبيرة في جميع هذه الكرات، ويرى أن الأرض تتركب من خمس طبقات أو كرات متداخلة وأن فيها فتحتين كبيرتين عند القطبين يبلغ قطر الشمالية أربعة آلاف ميل وقطر الجنوبية ستة آلاف ميل وأن سطحي كل كرة أو طبقة مسكونان فتوجد سكان في الأرض على السطوح المحدوية والسطوح المقعرة، وطلب إلى المجلس النيابي بالولايات المتحدة أن يجهزه بسفينتين ليسافر إلى أحد القطبين ويدخل من الفتحة الموجودة هنالك ليدخل إلى سكان السطح المقعر الذي نعيش فوقه، وطبع المارشال (جاردنر) في ١٩١٣ م كتاباً في الولايات المتحدة عنوانه: سياحة إلى داخل الأرض - ذهب فيه إلى أن الأرض مجوفة ويبلغ سمك طبقتها التي نعيش عليها ثمانمائة ميل وإنها مفتوحة عند القطبين ويوجد في داخلها شمس ويبلغ قطر كل فتحة قطبية ألفاً وأربعمائة ميل.

وقال (مورية) في كتابه (علم الفلك اليوم) إن الأرض على شكل هرم، وهو يرى أن نظريته تبين اختلاف أنصاف أقطارها وتحل كثيراً من النقط المعضلة في هذا الصدد التي لا يمكن أن تفسرها أية نظرية أخرى، وهذه

النظرية التي نشرها (تيوفيل موريه) العالم الطبيعي الفرنسي إن هي إلا شرح وتأييد لنظرية (لوثيان جرين) العالم الانكليزي التي كانت مثاراً لجدال كبير في سنة ١٨٧٥ وهو يذهب إلى أن الأرض هرمية الشكل، وأن البحار تشغل بطوناً في سطوحه الأربعة بينما أركان هذا الهرم عبارة عن القارات الخمس، وقد بعث (موريه) هذه النظرية الهرمية للوجود بعد رفضها في ذاك العهد ليحللها العلماء من جديد في نور ما استكشف من العلم الحديث، والجدال قائم الآن في كل مكان على قدم وساق.. (تفسير الجواهر ١٦: ١٣٧ - ١٤٠).

ويعد أن يروا ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، لهم بطبيعة الحال أن تأخذهم روعة من خسف الأرض أم سقوط السماء، حيث الأرض المعلقة في جو السماء غير مأمونة من أية حادثة هائلة، خسفاً في نفسها، أم سقوطاً لها في أعماق السماء، أم سقوط السماء كسفاً عليها لولا المُسكة الإلهية الرحيمة و﴿... إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ في نفسها أم عن مكانها ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾!

ولقد سبق على مدار الزمن هذه التجربة المرة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾...[1] ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾[3]؟! سبحان الخلاق العظيم.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الملك، الآية: ١٦.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

مسرح من مسارح النبيين الملكين داود وسليمان عليهما السلام بما آتاهما من فضل يخرق العادة الجارية في الكون هنا لداود ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ تخصه بفضل له خاص، فالفضل كله منه ويكفيه: ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ ولكن «منا» تصطفي له خاص الفضل، وعلّه هنا النبوة والمُلك وتأويب الجبال والطير معه وتليين الحديد، ويا له من فضل جامع عقيم النظير اللهم إلا للأخصين من السابقين وهم أهل بيت الرسالة المحمدية، ثم الأربعة الآخرون من أولي العزم الذين دارت عليهم الرحى، وقد تشهد لمثلث الفضل هذا: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ ... وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾...(1).

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٧٩، ٨٠.

فقد بلغ فضل الله لداود مبلغاً من التجرد والشفافية في تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه وبين الجبال والطير وحدة الحديد، فداود الأواب تجاوبه في أويته الجبال والطير، ويلان له الحديد، وهكذا الله يعبِّد الطريق للأوابين!

هنا «معه» في ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ لمحة لامعة أنها تؤوب في عالمها ولا تسمع أحداً من العالمين، ثم «معه» تجعله يسمع أوبة الجبال والطير.

والأوبة ضرب من الرجوع. وهنا المقصود صوت الأوبة وصيغتها، إضافة إلى حقيقتها، فواقع الأوبة لا محالة حاصل للكائنات كلها: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[(١)] ولكن داود المفضّل على من سواه فُقِّه تسبيحهم مع تسبيحه وعلى ضوئِه كما تشير «معه» وكما في آخر له ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. . .[(٢)] ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[(٣)] فهي معية المصاحبة المتابعة، وقد تعم علمه بتسبيحهم وأصالته فيه حيث كان يؤُمّ في محراب الأوبة ومصرحها جماعة الطيور والجبال في ترنيمة المرجَّع الرائع كما يؤُم سائر المؤمنين في زمنه!

الآئب هو الراجع وقد ينكث، ولكنما الأوّاب من التأويب الترجيع كثرة في عِدَّة الرجوع وعُدَّته، حيث يعيش الأوبة الرجعة إلى الله دون نكثة ولا نكسة.

ومن التأويب الترجيع ترجيع الصوت في التأويب وفيه تليين القلب وترجيعه، فإن للصوت الرائع الجميل موقعاً فائقاً في القارئ والمستمع، وكما عن النبي ﷺ: «تغنوا بالقرآن فإنه من لم يتغنّ بالقرآن فليس منا»!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٢) سورة ص، الآية: ١٧.
(٣) سورة ص، الآية: ١٩.

فلأن كلام الله جميل فليكن بصوت جميل كما صيته جميل ولفظه جميل ومعناه جميل، والله تعالى جميل يحب الجمال!

تذكر الروايات أن داود عليه السلام أوتي صوتاً جميلاً خارقة العادة في الجمال، كان يرتل به مزاميره وهي تسابيح دينية رائعة من زبوره في العهد العتيق».

فحينما كان ينطلق صوته في ترتيل المزامير تمجيداً لربه، كانت ترجِّع معه الجبال والطير، مردِّدة تلك الترانيم السارية السارّة[1] لحظات فائقة التصور لا يتذوقها إلَّا كل أواب حفيظ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2] ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾[3].

ثم و﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ خطاب تكوين وتسخير يضرب إلى عمق الكائن دون مكنة التخلف كما في أصل التسبيح، وكما في: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[4] وأضرابها من خطاب التسخير التكوين.

أترى ذلك الجبال ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ فما بال الطير وموقعه في تعريفها ونصبها، فعطفها إلى «جبال» يقتضي «وطيرُ» كما «جبالُ» قضية ضرورة الوفاق في العطف بين الرفاق أدبياً كما هو معنوياً؟

قد تكون «والطير» عطفاً بحساب المعنيِّ من محل المعطوف عليه، فـ«أوبي» تعني «وسخرناها» كما في آيتي التسخير، فـ«والطير» تعني ذلك

---

(١) في كمال الدين بإسناده إلى هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في حديث يذكر فيه قصة داود عليه السلام قال: إنه خرج يقرأ الزبور وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلّا أجابه.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

(٣) سورة ص، الآيتان: ١٨، ١٩.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

التسخير، فقد يفسر نصب الطير أمر الجبال أنه تسخير وليس أمر التشريع! كما و«يسجن» هناك تفسر هنا «أوبي» أنه التسبيح الترجيع!

هذا مسرح من مسارح تليين الجبال والطير في مصارح التسبيح، ثم إلى تليين الحديد:

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾؟ أتراه - فقط - تليينا لحده وصلابته بعد الحصول عليه من معدنه؟ وهذا أصعب منه وأحدّ! أم وتليين معدنه ومصدره، والمقام مقام الفضل الرباني لعبد رباني وأفضله ذلك الجمع الرائع المكين من التليين!

ولأن إلانة الحديد لا تحملها في القرآن كله إلا هذه اليتيمة المنقطعة النظير فلننظر فيها نظرة الناقد البصير.

يروى عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «أوحى الله إلى داود إنك نعم العبد لولا أنك تأكل من بيت المال ولا تعمل بيدك قال: فبكى داود عليه السلام أربعين صباحاً فأوحى الله عز وجل إلى الحديد أن لن لعبدي داود عليه السلام . .»[1].

«ألنا له» كما «يسجن معه - أوبي معه» تختص إلانة الحديد بداود! القوة خارقة أوتيها من فضل الله؟ وتعبيره الصحيح الفصيح «قومناه»! أم الإلانة لما يحتاجه من حديد لصنعة لبوس؟ وهذا هو ظاهر الإلانة، وقد تضمن الإلانة العلم كما تعني الإلانة الحدة: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾[2] فلولا ذلك التعليم لم تكن كثير فائدة في هذا التليين، فإنما هو كذريعة لصنعة لبوس، لا - فقط - نفس التليين.

---

(١) تفسير البرهان ٣: ٣٤٤ عن الكافي بإسناده عن أحمد بن أبي عبد الله عن شريف بن سابق عن الفضل بن أبي قرة عن أبي عبد الله عليه السلام أن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال: . . . فألان الله عز وجل له الحديد فكان يعمل كل يوم درعاً فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائة وستين درعاً فباعها بثلاثمائة وستين ألفاً واستغنى عن بيت المال.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٠.

وهنا أيضاً ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ تفسير لمدى ذلك التليين، فلا تعني إلانةُ الحديد - فقط - عملَ السابغات، إلّا أن تعني إلانة ذلك العمل بعد إلانة الحديد! إذاً فهنالك مثلث من تليين الحديد، صدوراً من معدنه، وتليينه عملياً ومن ثم تليينه لصنعة لبوس عليماً!

فلم يكن التليين - إذاً - بالتسخين، فإنه لكل من يسخنه وهو هنا «له» باختصاص، بل هو خارقة للعادة تليينا بلا تسخين ولا أية وسيلة مألوفة أخرى، فجو السياق وظلاله بكل تلميح وتصريح يعني هنا خارقة للعادة! من:

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ ولا كمجرد آية خارقة تدل على وحي الرسالة، بل و: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١﴾:

السابغات هي الدروع الواسعات، والسرد هو نسجها، وتقديره لها هو أن يعمل كلًّا على قدره السائغ للسابغ وقد يروى أنها كانت تعمل قبل داود صفائح الدرع صفيحة واحدة فكانت تصلب الجسم وتثقله فألهم الله داود أن يصنعها رقائق متداخلة متموجة لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم وأمر بتضييق تداخل هذه الرقائق لتكون محكمة لا تنفذ منها الرماح، وهو التقدير في السرد! هذا ولتكون السابغات سائغات لائقات، ومن ثم ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ في عمل الدروع واستعمالها في سبيل الله وأي عمل من أي عامل في فسيح الكون، كـ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من صنع ومن استعمال لمصنوع «خبير»!

وعلّ في «اعمل» بديل «اصنع» تلميح لما تلمحناه أنه ثالث ثلاثة من أضلاع ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ وكما في أخرى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾[1] إذاً فـ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ شكراً لما أنعمت ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾!.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٠.

فاللبوس مبالغة من اللباس، حيث السابغة الدرع تبالغ في الإحصان عن بأس الحرب، فقد كان ذلك خارقة إلهية تتخطى عائدة إثبات الرسالة وتحصيل المال للرسول، إلى ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾(١) عائدة ثالثة لصالحكم، حيث الحروب آنذاك كانت تتطلب صنعة سريعة للبوس السابغة.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾:

«و» فضلاً «لسليمان» كما فضلاً لداود، كلّا حسبه وبحسابه، وفقاً في سيرة الخارقة مهما اختلفت الصورة، فقد آتينا ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ كما ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾... فضلاً كفضل!.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ لا كما هي لسواه كعادة جارية المفعول في فاعلياتها، وإنما تسخيراً له يتخطى العادة: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾(٢)!

فلقد كانت له الريح - بما سخرها الله - مركبة فضائية ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ﴾ - ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾(٣) كل يوم مسيرة شهرين ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ من هذه المعمورة أم سواها بأجوائها!.

وترى أنها ريح كسائر الرياح، أم هي سائر الرياح دون اختصاص، كلّا! فالنص ﴿ٱلرِّيحَ﴾ دون «الرياح» فلتكن خاصة معروفة لديه، مجهولة لدى غيره، أم وإذا كانت معلومة لغيره فغير مسخرة إلّا له، وإنها كانت ريحاً عاصفة وكما في آية ثالثة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٠.
(٢) سورة ص، الآية: ٣٦.
(٣) سورة ص، الآية: ٣٦.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٨١.

ثم ﴿غُدُوُّهَا﴾ هو الغداة لحد الزوال أم هو أدنى، والرواح هو الوقت الذي يراح فيه الإنسان من نصف النهار إلى الغروب أو هو أدنى، فلم يك سليمان يغدو ويروح في يوم واحد دون مكثة في ﴿ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ فليكن الغدو ردحاً مما بين طلوع الشمس وزوالها، وكذلك الرواح ردحاً بين زوالها وغروبها، مهما كانت السفرة في يوم واحد، أم بمُكثه يوم أو أيام[١].

مركبة فضائية ما أغداها وأروحها، وأريحها في غدوها ورواحها، حيث ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[٢] إلى ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾[٣] أم سواها، مهما كانت هي الأصل في سفراته، ولذلك خصت بالذكر في آية الأنبياء.

وقد تكاثرت الروايات حول تسخير الريح لسليمان، تبدو ظلال الإسرائيليات المختلفات والمختلفات فيها واضحة، فالتغاضي عنها إلى بينات الآيات أحرى، وترك الخوض فيها أحجى! فإنما هي ريح عاصفة مسخرة لسليمان غدوها شهر ورواحها شهر...!.

﴿...وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ لا نجد القطر إلّا هنا عيناً سائلة وفي الكهف مفرغاً بحامية النار على زبر الحديد بين الصدفين (١٨: ٩٦) وهو الرصاص، و﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ في أصلها غير سائلة ولا تسمى عيناً إلّا معدناً، فبإسالتها بخارقة إلهية خرجت عن أصالتها الجامدة إلى عين سائلة يستثمرها سليمان كما يشاء في محاويجه ومحاويج شعبه دون سَغَب ولا تعب، وكما ألان الله الحديد لأبيه داود عليه السلام!

﴿...وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أهم - فقط - شياطين الجن:

---

(١) في تفسير القمي في آية الريح قال: كانت الريح تحمل كرسي سليمان فتسير به في الغداة مسيرة شهر وبالعشي مسيرة شهر.
(٢) سورة ص، الآية: ٣٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢١.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾[(١)]؟ ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ دون الشياطين، تعميم دون اختصاص! ثم ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[(٢)] قد تحيل الاختصاص، حيث الجن المؤمنون أحرى أن يكونوا من جنوده، وتجنيده الشياطين ليس إلا تذليلاً لهم وقضاء على شيطناتهم لردح الخدمة، و﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ﴾[(٣)] هي كالنص أنه كان من مؤمني الجن وأتقاهم فأقواهم على هذه الخارقة الإلهية!.

إذاً فـ ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ يعم قبيلي المؤمنين منهم والشياطين، وكما جنوده الإنس دون اختصاص.

و﴿يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تعني في سلطته وعلى رعايته، لا في حضرته فحسب، إذ كان شياطين الجن يغوصون له وهو بعيد عن حضرته مهما كان في سلطته.

﴿... يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾ تسخيراً لهم لأمره، حيث الجن لا يسخرون دون ذلك، إلا سخرية لمن يسخرهم دون ذلك! ومن خلفيات ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾:

﴿... وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وليس ﴿أَمْرِنَا﴾ إلا عملاً لسليمان بين يديه بإذن ربه، فقد كان الإذن - إذاً - إذن الأمر، لا - فقط - إذن السماح، حيث السماح لخدمة سليمان النبي حاصل بطبيعة الحال لكل بالغ مبلغ التكليف!

وترى أن ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هنا خاص بالأخرى؟ وهو كذلك فإنها هي

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٧.
(٣) سورة النمل، الآية: ٣٩.

دار الجزاء دون الاولى! ولم يأت السعير في القرآن فيما أتت (١٨) مرة إلّا للأخرى! فلا يختص - إذاً - بالأولى، وقد يعمها على هامشها دون تحتم فإن الآخرة هي دار الجزاء دون الأولى، اللهم إلّا لمن تخطى حدّ الطغوى، وقد تلمح ﴿نُذِقْهُ﴾ دون «ندخله» لشموله عذاب الأولى، فكل عذاب في الدنيا أو البرزخ يعبر عنه بذوق العذاب وليس هو العذاب! وقد يدل عليه ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾[1].

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾:

أعمال أربعة هنا تذكر كنماذج هامة مما يشاؤه سليمان من الجن، فـ﴿مَّحَـٰرِيبَ﴾ جمع محراب من أماكن العبادة الخاصة كالمعروف المتداول عندنا، و﴿وَتَمَـٰثِيلَ﴾ هي الصور المجسمة من شجر وسواها، وعموم اللفظ يشمل تماثيل ذوات الأرواح أياً كانوا، وكما النباتات وسواها، ولكنما المتعود طول التاريخ منها هي ذوات الأرواح[2] ولأن سليمان النبي كان

---

(١) سورة ص، الآية: ٣٨.

(٢) وسائل الشيعة ١٢ : ٢١٩ في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل. . فقال: والله ما هي تماثيل الرجال والنساء ولكنها تماثيل الشجر وشبهه والصحيح عن محمد بن مسلم قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن تماثيل الشجر والشمس والقمر فقال: لا بأس ما لم يكن شيئاً من الحيوان وعن الصادق عن آبائه عليهم السلام في حديث المناهي قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن التصاوير وقال: من صور صورة كلفه الله تعالى يوم القيامة أن ينفخ فيها وليس بنافخ. . ونهى أن ينقش شيء من الحيوان على الخاتم وعنه عليه السلام : ثلاثة يعذبون يوم القيامة من صور صورة من الحيوان يعذب حتى ينفخ فيها وليس بنافخ. . ورواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثله إلا «من الحيوان» وعن موسى بن جعفر عليه السلام عن التماثيل هل يصلح أن يلعب بها قال: لا وفي تحف العقول «وصنعة صنوف لتصاوير ما لم يكن فيه مثال الروحاني فحلال تعلمه وتعليمه». . . هذه ولكن التمثال لغوياً هو الصورة المصورة أو ما تصنعه وتصوره مشبهاً بخلق الله من ذوات الروح والصورة، ولو كان المعنى من «تماثيل» في الآية غير ذوات الأرواح لكان حق التعبير الصحيح والفصيح =

يشاءها من الجن فهو إذاً من المسموحات لا الممنوعات، وما دام لم يرد نص في القرآن لنسخه ليس الحديث لينسخه حيث القرآن لا ينسخ إلّا بالقرآن لا سواه، إذاً فعمل الصور المجسمة لا محظور فيه، بل وعلّه محبور حيث يشاؤه سليمان.

أجل إن التماثيل المعبودة، المعمولة لعكوف العبادة، هي محرمة بنص القرآن وضرورة الأديان: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[١].

وعلى غرارها التماثيل التي تصنع لأجل تخليد أصحابها بعد موتهم احتراماً زائداً عما يرام، فإنها مكروهة على أشراف الحرمة، ولكن التماثيل ككل تمثال ليست محرمة، ولأن أصل الحرمة في اتخاذها ليس إلّا شائبة العبادة أم آثبتها، فحكمها واحد عبر الشرائع دونما تناسخ فإنه لزام التوحيد، وسليمان كان من أكمل الموحدين فكيف يبغي محرماً أو مكروهاً في حظيرة التوحيد ويحضره ربه الكريم المجيد!

فحين تتخذ تماثيل من الطغاة عن حالتهم البئيسة التي قضت عليهم إنذاراً للأخلاف، أم تتخذ تماثيل من التقاة عن حالتهم العزيزة تبشيراً لهم، فما هي - إذاً - إلّا تماثيل التبشير والإنذار، دون عكوف لها كأصنام.

أم حين تتخذ تماثيل للعبة الأطفال، بلا عكوف ولا تبشير أو إنذار، فما هي محرمة محظورة، مهما لم تكن محبورة.

وهنا أحاديث تروى بحق تحريم عمل الصور المجسمة والتماثيل ذوات الأرواح خاصة نخصصها بموارد المحظور لظاهر كالنص من آية التماثيل[٢].

= «نقوش» ولم يكن من المتعود أن يعمل الصور المجسمة من غير ذوات الأرواح إلا حديثاً، فالآية ظاهرة كالنص في جواز عمل التماثيل لذوي الأرواح، وليس الحديث لينسخ القرآن أياً كان، فالأحرى ما فصلناه في المتن من تفصيل لراجح منه ومرجوح ومحرم والله أعلم.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٢.

(٢) مضت هذه الأحاديث.

ثم ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ هي الجفان العظيمة كالحياض حيث الجابية هي حوض يرد فيه الماء فهي وإن عظيمة للأطعمة، ومن أين تملأ؟ ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ضخمة في ثقلها وسعتها، راسية ثابتة في محلها لصعوبة حملها.

﴿... ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾:

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ لا - فقط - أن تقولوا شكراً، فالشكر في أصله من مقولة الأعمال، وليست الأقوال إلا حاكية عنها ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ عملاً، في الكثير من القلة المؤمنة الشاكرة قولاً، والشكور مبالغة الشاكر فلتكن بالغ الشكر. ثم وهنا ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ وليس «شكور» حيث التعريف يعني شكراً عملياً، فـ ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ هنا مبتدأ مؤخر لتعريفه.

﴿وَقَلِيلٌ﴾ خبر مقدم لتنكيره، إذاً فـ ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ عملاً ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ﴾.

أم أن ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ كمطلق الشكر وحتى قولاً ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ﴾ ثم من هذه القلة ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ كشكر مطلق يعم العمل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ﴾ فهم - إذاً - قلة من قلة فمهما كان الشكور قولياً ثلة أمام هذه القلة، ولكنهم قلة أمام ﴿عِبَادِىَ﴾ الثلة، فأين قلة من قلة وثلة من ثلة؟![1].

---

(١) الدر المنثور ٥: ٢٢٩ - قال داود عليه السلام: يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك مني؟ فأوحى الله إليه نعم الضفدع وأنزل الله تعالى على داود عليه السلام: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سَبَإ: ١٣] فقال داود عليه السلام: يا رب كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم علي ثم ترزقني على النعمة الشكر فالنعمة منك والشكر منك فكيف أطيق شكرك؟ قال: يا داود الآن عرفتني حق معرفتي وفيه أخرج ابن المنذر عن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يخطب الناس على المنبر وقرأ هذه الآية قال: ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود قيل: وما هن يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: العدل في الغضب والرضا والقصد في الفقر والغنى وذكر الله في السر والعلانية وفيه عن إبراهيم التيمي قال قال رجل عند عمر: اللهم اجعلني من القليل فقال عمر: ما هذا الدعاء الذي تدعو به؟ قال: إني سمعت الله يقول: وقليل من عبادي الشكور فأنا أدعو الله أن يجعلني من ذلك القليل فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر!

ثم ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ أياً كان تلمح لكثرته عِدة وعُدّة، ولحد يبلغ الشاكر شكراً بكل أبعاده في حياته! ومن ثم نرى ذلك العظيم العظيم، الكريم الكريم، القويم القويم، سليمان النبي الملك، الذي سخر له الإنس والجن وصُلب الكون ولكنه على عُظمه وملكه الذي لا ينبغي لأحد (٣٨: ٣٥):

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾:

وتلك من هيبة سليمان وهيمنته إن لم يجرؤ أحدٌ من جنوده من الجن والإنس أن يدنوه فيسألوه ما ذلك المكث الطائل، الذي تمضي فيه أوقات صلوات ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ فوقع الموت ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ سؤال خاطر أم أي خاطر سائل ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ تلك الصغيرة الهزيلة التي تأكل الأخشاب ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ التي كان متّكئاً عليها.

وترى كيف المنسأة - فقط - تجعله واقعاً قائماً كما هو، وليست مُسكتها إلّا جانبية وعلى شرط المسكة من صاحبها، حيث يمسكها سناداً فتمسكه عماداً؟.

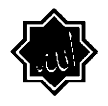
علّه لأنه كان جالساً على عرشه، متكئاً على منسأته، محفوفاً بما يسنده من جوانبه، فلما أكلت منسأته وارتخت - بطبيعة الحال - خر أمامه، إذ فقد سناده أمامه!

داية الأرض - هنا - هي الأرضة التي تتغذى بالأخشاب، وهي تلتهم سقوف المنازل الخشبية وأبوابها وقوائمها بشراهة وشراسة خطيفة، فلا تبقي عليها قائمة ولا تذر.

﴿...فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ إذاً فالجن لا هم أبناء الله حتى يُعبدوا حيث سُخروا لسليمان، ولا هم يعلمون الغيب حتى يستعملوه، قصة تقص عنهم ما خيِّل إلى أوليائهم.

وترى ذلك العمل بين يدي سليمان كان عذاباً مهيناً وهو خدمة تقدم للنبي الملك؟ أجل كان عذاباً مهيناً لشياطين الجن جزاءً بما كانوا يشيطنون، ذوقاً قليلاً من عذاب السعير، وأما مؤمنو الجن والإنس المستخدمين فلم يكونوا ليكلفوا لديه تلك الأعمال الشاقة المبرهة، إلا قدر المستطاع، فلم يكن العذاب المهين إلا لشياطينهم.

ثم ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ تلمح بطول مكوث سليمان ميتاً متكئاً على منسأته، فليست قضية سويعات، لا سيما وأن أرضة الأرض لا تسطع أن تأكل المنسأة ليوم واحد، إلّا أياماً طائلة، أم سنة كما يروى وإن كانت بعيدة[1].



(١) الدر المنثور ٥: ٢٣٠ - أخرج جماعة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: كان سليمان عليه السلام إذا صلى رأى شجرة ثابتة بين يديه فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا وكذا، فإن كانت لغرس غرست وإن كانت لدواء نبتت فصلى ذات يوم فإذا شجرة ثابتة بين يديه فقال لها: ما اسمك قالت: الخرنوب، قال: لأي شيء أنت؟ قال: لخراب هذا البيت فقال سليمان: اللهم اعم عن الجن موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فأخذ عصا فتوكأ عليها وقبضه الله وهو متكئ فمكث حيناً ميتاً والجن تعمل فأكلتها الأرضة فسقطت فعلموا عند ذلك بموته فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين أقول تبين الإنس إنما حصل بما رأوا الجن طول هذه المدة في العذاب المهين فلم يكونوا ليعلموا الغيب.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

آيات سبع تعرض سبأً في مسرحٍ من حياة الفَرَح والتَّرح، إعراضاً عن الرب الغفور وطيبة البلدة، فابتلاء بسيل العرم، عرامة بعرامة ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

و﴿لِسَبَإٍ﴾ اسم رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة..[1]

(١) الدر المنثور ٥: ٢٣١ - أخرج جماعة عن فروة بن مسيك المرادي قال أتيت رسول الله ﷺ... فقال رجل: يا رسول الله ﷺ وما سبأ أرض أو امرأة؟ - قال ﷺ: ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة فأما الذين=

فهم آباء قوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن بأرض خصبة وبلدة طيبة ما تزال إلى اليوم. منها بقية، وقد ارتقوا في سلم الحضارة ونضارة الحياة المادية. لحد لا قبل له، وقد تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي كانت تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً، فاختزنوا كميات هائلة من الماء وراء السد، سداً لحاجاتهم المرحة، وقد عرف باسم «سد مأرب».

و﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ﴾ قد تعنيان ذلك الخصب والوفرة جانبي ذلك السد، وهما آية من آيات النعمة الربانية كأنها خارقة العادة بين القرى المجاورة لها، أو منقطعة النظير!.

﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ حيث رزقكم إياه ﴿وَاشْكُرُوا لَهُۥ﴾ قالاً وحالاً وأعمالاً ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي - ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ في وفر النعم ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾. بوفر الغفر والكرم، على ما أنتم عليه من تقصير.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن ربهم وشكره حيث أخذتهم العزة بالإثم، وبدلوا نعمة الله كفراً ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ عَرماً بعزم! يجرف ويعرم في طريقه كل صغيرة وكبيرة، وكل حجارة صخرة صلبة، فحطّم سدهم وانساحت مياههم سيلاً على سيل فلم يعد الماء يخزن حيث جفت كما جفوا، واحترقت الجنتان كما أحرقوا، فتبدلت جناتهم ويلات، صحراء قاحلة تتناثر فيها الأشجار الخشنة البرية:

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾: فالجنات التي كانت تأتيهم بكل نعمة غزيرة أشكالاً وألواناً، أصبحت لا

= تشاءموا فلخم وجذم وغسان وعاملة وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار فقال رجل: يا رسول الله ﷺ وما أنمار؟ قال: الذين منهم خثعم وبجيلة.

تأتيهم إلّا خمطاً: شجر الأراك أم كل ذي شوك، وأثلاً يشبه الطرفاء، وشيئاً قليلاً من سدر، فليأكلوا شائكاً، وطرفاء لا ثمر لها، وسدراً قليلاً!.

فتلك إصابة لهم في مأكلهم ومن هنا إلى مسكنهم الطريف:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾:

«... قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم إلى بعض، وأنهار جارية وأموال ظاهرة فكفروا بأنعم الله عزّ وجلّ، وغيروا ما بأنفسهم من عافية الله، فغير الله ما بهم من نعمة والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فأرسل الله عليهم سيل العرم فغرق قراهم وخرب ديارهم وذهب بأموالهم وأبدلهم مكان جنتيهم...»[1].

﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ هي القرى الشامية، و﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ هي الباهرة في ممرهم، الزاهرة ببركاتها، قريبة المنازل، متقاربة المحطات، مقدرة السير، محدودة المسافات ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ تقديراً متناسباً متناسقاً لا يخرج المسافر من قرية إلا ويدخل في أخرى مثلها، فلا تختص أمنة السير فيها بالنهار، بل ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾!

وما ألطفها مسافات في تلكم السفرات السافرات، قراها الظاهرة هي لصق بعض، لا يخلد بخلد المسافر أنه ناءٍ عن منزله إلا نزهة ولذة.

ويبدو أنها كانت لهم نعمة سابغة لاحقة للسابقة، وكان الله أبدلهم إياها بجنتيهم امتحان الامتهان فكفروا ثانية:

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾:

(١) في الكافي بإسناده عن سدير قال سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن الآية...

فقد غلبت عليهم الشقوة ولم ينتفعوا من النذارة الأولى، فإنما دعوا الله دعوة حمقاء ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ كأنهم يرفضون النعمة بعد النقمة، أم يستاؤون من رحمة بعد رحمة، فما داؤهم وما دواؤهم إلّا إجابة الدعوة ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ في هذه الدعوة ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ قبل هذه الدعوة بما بغوا وطغوا، فاستجيبت دعوتهم البتراء الخواء إذ كانت بطراء حمقاء ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث عنهم في كل نادٍ كأمثولات لكل حمق في عمق كيف يدعى الرب لإزالة النعمة إلى نقمة؟ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ عن كل رباط وملصق فلم يبق لهم وصل إلّا إلى فصل، في أوطانهم وأسفارهم، حيث بطروا النعمة ولم يصبروا على المحنة.

لقد فرق سبأ ومزق أيادي سبأ في أنحاء الجزيرة مبدّدي الشمل، وعادوا أحاديث الهزء على الألسنة بعد أن كانوا أمة حضارية غالية المصدر، عالية المورد، ذات وجود في الحياة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صبراً في البأساء وشكراً في النعماء، بل وصبرا في النعماء والبأساء وشكراً في النعماء والبأساء!.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾:

«لقد» تأكيدان اثنان أن ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ في أبعاد بِعاد، حيث أراهم ظنه صادقَ اليقين، أم وجده صادقاً عليهم كأنهم لا يشكون في صدقه فيعاملونه عمل اليقين، بما صدّق قالته عند الله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1] وقالته الأخرى ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[2] حيث

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

المتبوع خير من التابع، ومن التابعين من هو أكفر من إبليس! فقد وقع العباد في مربع من فخ إبليس دون نجاة إلا بصادق الإيمان! وهم في «عليهم» كل العباد لمكان الاستثناء إذ لم يكن في سبأ فريق من المؤمنين، مهما كان المحور لذلك التصديق هم سبأ وأضرابهم فإنهم التجوالة العليا لرحلات الشيطان، ثم و«عليهم» تدلنا على أن مربع التصديق كان «عليهم». ومن ثم لم ينج المؤمنون كلهم ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم صادقو الإيمان، وأما البسطاء، وأما أتباع الشهوات، فهم سيقة الشيطان مهما كانوا مؤمنين: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1] فالقلة القليلة من المؤمنين مخلِصين ومخلَصين هم الذين لا يتبعون إبليس في أحلك الظروف وأهلكها، وليس ذلك التصديق الكاذب اللعين بسلطان له عليهم: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[2] وكما يصدقه هو إذ قضي الأمر: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

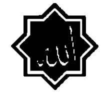
إنه لا سلطان له على أي إنس أو جان، لا حجةٌ تقبلها العقول، ولا قوة تسيِّر ذوي العقول، وإنما مكراً وخداعاً وكذباً، ولماذا الله جعل له سلطان المكر والخداع؟ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾....

و«نعلم» هذا كما في أشباهه هو من العَلْم العلامة السمة، لا العِلم المعرفة، فلكي يَسِم الله ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بسمة الإيمان، ويعم ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ بوصمة اللاإيمان، لم يكن الله ليصد عنهم سبيل الشيطان.

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٧٦.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

هذا! ولكي يقضى على فوضى الادعاءات الجوفاء، ويقف ويوقف كلَّ مدَّعٍ عند عمله في تجربة من سلطان الشيطان! ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ لا يفوت منه فائت ولا يفلت منه فالت، فليس اتباع الشيطان فلتة خارجة عن حيطة الحفيظ، فإن حريته في تصديق ظنه حفيظ على صدق المؤمنين وكذب الكافرين، حفيظ على كافة الموازين في كل تقوى وطغوى!

وإنما يختص من بين شَعب الإيمان واللاإيمان هنا الآخرة، لأن الإيمان بها هو الرادع الأصيل عن اتباع الشيطان، فرب مؤمن بالله وبرسله لا يؤمن بالآخرة لا يردعه ذلك الإيمان كما تردعه الآخرة!.



﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟...﴾ أمر تعجيز بصيغته، ناحية منحى أبلغ نهي وأكده، وهو بالنسبة للعاكفين على دروب الضلالة، المصرين فيها ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟...﴾ ما لكم نَفْس أو نَفَس، ولسوف تعلمون أنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من تحويل أو تحوير في ملك الله كآلهة، إذ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ في شيء منهما، ثم ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعاون الله في قطمير! فلا هم شركاء الله، ولا هم معاونوه! فالله ظهير لمن سواه على أية

حال، اللهم إلّا في ظلمهم، و﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾! ثم الشفاعة فيما تجوز ﴿وَلَا تَنفَعُ﴾ مهما حاولوها ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ بشروطها للشافعين والمشفع لهم.

وعلّ الشفاعة المنفية هنا هي ليوم الدنيا حيث هم ناكرون يوم الدين فضلاً عن شفاعته، ثم وهي في تكوين وتشريع هنا كما يدعونها ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[1] شفاعة التقريب إلى الله زلفى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[2] وليست إلا باذنه ولم يأذن لهم، وأما شفاعة التشريع فلا إذن فيها حتى لأفضل النبيين، وقد تشمل الشفاعة لما بعد الموت، حيث المتكلم عنها هنا هو الله دونهم.

ثم و﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ دون «فزعت قلوبهم» دليل زوال الفزع عن قلوبهم بعد واقعه، وإذا كان «هم» هنا هم الشافعون بإذنه ففيما - إذاً - الفزع حتى يفزّع؟.

علّهم لأنهم قبل إذنه تعالى فزعون حيث يترصدون أمره، فإن في انتظار الأمر فزع الدهشة لموقف المأمور ولمّا يؤمر، وفزع الخوف حيث ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾[3] والفزع هو التأثر والانقباض من الخوف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ حين يأذن لهم بشفاعة في تكوين حيث هم عمال رب العالمين، ثم يفعلون ما يؤمرون، فهنالك ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ لواقع الأمر وتطبيقه، وكما هم فيما بينهم يتساءلون مستبشرين ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾!

ذلك! ولا نحتمل إن «هم» هم المشركون، حيث لا يفزع عن قلوبهم

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٣) سورة النحل، الآية: ٥٠.

على أية حال، وهم فزعون في ضيق قلوبهم ويوم القيامة هم من المفضوحين.

فالشافعون بحق، الراصدون إذن ربهم، هم فزعون، فكيف إذاً لم يؤذن لهم أم لم يكونوا بحق؟، فأين - إذاً - ﴿هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وأين هم من يقربونا ﴿إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وليس لهم من الأمر شيءٌ؟

ثم وبوجه عام كان ملائكة الوحي عمالاً وغير عمال فزعين من انقطاع الوحي في الفترة بين المسيح عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم، ناظرين وحي الشرعة بما سبقت لهم بشارة بذلك الوحي الأصيل، ولم تكن لهم شفاعة وتدخّل فيها، فصبروا طويلاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ حين بزغ وحي القرآن على قلب نبي القرآن، فاستغرقوا فرحاً مستبشرين متسائلين بعضهم البعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾ وبعد ذلك الردح العظيم، فما وحي العمالة عندنا أمام وحي القرآن بشيءٍ ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ﴾ الذي لا حول عنه ولا تحويل ولا تجديل ولا تدجيل، حق ثابت لا حول عنه، ولا تحريف ولا نسخ ولا تبديل ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾!. أم أن ذلك هو طبيعة الوحي وماهيته، حيث يفزع قبل حصوله انتظاراً له، ويفزع حين حصوله قرعاً على أهله، ثم يزول الفزع بعد استقرار..[1].

---

(١) البرهان ٣: ٣٥١ القمي في رواية أبي الجارود في الآية «وذلك أن أهل السماوات لم يسمعوا وحياً فيما بين عيسى ابن مريم عليه السلام إلى أن بعث الله جبرائيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا فصفق أهل السماوات فلما فرغ من الوحي انحدر جبرائيل كلما مر بأهل السماوات فزع عن قلوبهم يقول: كشف عن قلوبهم، فقال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير».

وفي الدر المنثور ٥: ٢٣٦ - أخرج جماعة عن النّواس بن سمعان قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا أراد الله أن يوحي بأمر تكلم بالوحي فإذا تكلم بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله تعالى فإذا سمع بذلك أهل السماوات صعقوا وخروا سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبرائيل عليه السلام إلى أن بعث الله فيكلمه الله من وحيه بما أراد فيمضي به جبرائيل على=

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ دون أن يعلى عليه ويستكبر، فهو الله لا سواه، وهو الرب ليس إلا إياه، وهو الرزاق ذو القوة المتين دون شفاعة شفيع إلّا من أذن له، إذاً فهو هو الشفيع والشافعون عمال لتحقيق الشفاعة حيث الدار دار الأسباب:

﴿۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾:

«قل... قل.. قل..» ضربات كأنها مطارق تدفع بالحجة، وتوضح المحجة، في جولات تلو بعض حول قضية الشرك والتوحيد، جولات تطوف بالقلوب في مختلف مجالات الوجود، بمواقف مرهوبة ترجف فيها الأوصال، وتتغير الأحوال بغيار الأهوال، كل ذلك في إيقاعات قوية وأدبية تصدع بقاطع البرهان في قوة وسلطان!

﴿قُلۡ﴾ لمن يدعون من دون الله شفعاء وآلهة ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؟ روحياً أو مادياً ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ حيث يصدقون الله كإله الأصل وإنما الاختلاف في الشبكات، فلأنه رسول الله وهو لسان الناس عن فطرة وعقلية أصيلة فليكن هو المجيب ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾.

ثم وفي نطاق الخلاف بينك وبينهم في أصول وفروع عقائدية وطقوس دينية فمجاملة في الحوار بإظهار الحق اليقين بمسرح الشك، ولكي تجذبهم من الشك إلى اليقين دون مفاجأة بصراح القول الحق: «نحن على هدى وأنتم في ضلال مبين» بل ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

لا تخلوا من بيننا هدى وضلال مبين، وعلى الشاك في ضلاله وهداه أن

= الملائكة عليهم السلام كلما مرّ بسماء سماء سأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبرائيل؟ فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير فيقولون كلهم مثل ما قال جبرائيل عليه السلام فينتهي جبرائيل بالوحي حيث أمره الله من السماء والأرض.

يحاول الخروج عن ضلال الشك إلى هدى اليقين! وإنها غاية النصفة والاعتدال في أدب الجدال أن ينبري رسول الحق بلا تحتم لضلالهم ولا هداه ليثير فيهم التفكير في هدوء دون إذلال لهم في طرح القول: إنهم هم في ضلال، حيث الجدل بذلك الأسلوب المهذب الموحي الشهي أقرب إلى لمس القلوب المقلوبة، لو أن لها منفذاً إلى النور!

ومن ثم إلى حلقة ثانية للحوار أعمق أدبياً وأعرق في اجتثاث جذور التعنت والاستكبار:

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾:

حيث يسايرهم في تهمة الإجرام أنه ومن معه كأنهم المجرمون، فلستم أنتم - إذاً - مسؤولون، وإنما المجرمون هم أنفسهم مسؤولون، ثم لما يأتي دورهم في نسبة الإجرام لا يفصح عنه بما أفصح لنفسه، وإنما ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إجراماً وسواه، فـ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2].

وبهذه اللمسة اللامعة يخطئهم في خرافة الطائر، ولكي يفكر كل في نفسه لنفسه، دون محاولة لتخطئة الآخرين، ومن حال الخاطئين تلطيخ المصلحين ليجعلوهم كما هم فيستريحوا منهم!.

وإلى حلقة ثالثة لو أننا عيينا عن أن نفتح بيننا بالحق:

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾:

فذلك الجمع ليوم الجمع ضرورة لا محيد عنها، ولأقل تقدير فتحاً بيننا بالحق، حيث العلم المحيط والعدالة والحكمة تقتضي ذلك الفضل الحكيم

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣٨.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

من ﴿ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾!: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾(١).

إن الإقرار بوجود الله العلي القدير، الفتاح العليم، لزامه تقرير يوم للفتح بين المتخالفين في توحيد الله والإشراك به، فإذا لم يفتح هنا فلا بد من فتح في الأخرى وهي هي يوم الحساب! فليس الفتاح العليم ليترك الأمور مختلطة إلّا إلى حين، ثم وهو لا يجمع بين المحقين والمبطلين إلّا ريثما يقوم الحق بدعوته ويبذل طاقته ويجرب تجربته ثم يمضي أمره ويفصل فصله ويفتح فتحه ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾!

﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾:

﴿أَرُونِىَ﴾ هؤلاء الشركاء الملحقين المقحمين، اللذين هما مادة الخلاف - الأصيلة - بيننا، لكي نقدم فتحاً هنا بيننا قبل الأخرى، ﴿أَرُونِىَ﴾ من ربوبياتهم مثقال ذرة، بل هم المربوبون كسائر الخلق أجمعين ﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ - ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في ربوبيته دون حاجة إلى شركاء مقحمين!

فعزته تعالى وحكمته هما حجتان قاطعتان كل شركة في ألوهيته، دامغتان كل شريك له، ولو أن عزته وحكمته غير كافية فبأحرى شركاؤه الفروع هم أذل وأوهى! ﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾!

﴿أَرُونِىَ﴾ إياهم رأي البصر والبصيرة، ليرى هل فيهم من ميزات الربوبية شيءٌ، فأصنامهم ميتة، وطواغيهم طاغية من حزب الشيطان، وكرماؤهم كالملائكة والنبيين هم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾(٢) فأين الربوبية في سواه؟ ﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾!

(١) سورة السجدة، الآيتان: ٢٨، ٢٩. (٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

وفي ﴿أَرُونِيَ﴾ لمحات من استنكارات واستخفافات: أرونيهم ما هم؟ من هم أين مكانهم ومكانتهم؟ وكيف استحقوا ذلك الإلحاق، وإذا هم آلهة كما الله فكيف ما ألحقهم هو بنفسه، أم ما لحقوا هم أنفسهم إليه، حتى كنتم أنتم عبدتهم تلحقونهم بالله؟ ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾!

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

آية منقطعة النظير بحق البشير النذير، عن رسالته الكافة للناس، دلالة صارمة على أن رسالته خاتمة الرسالات حيث تكف الناس كل الناس عما يجب كفهم عنه من مختلف المحظورات والمحذورات.

فذلك الرسول هو كافة للناس مبالغة بالغة في الكف والكفاف، مهما كانت الرسالات السابقة كفاً دون كفاف، فإنما كانت رسالات تحضيرية تعبِّد الطريق لهذه الكافة للناس.

والكافة من الكفِّ العضو حيث يكف، ومن الكف مصدراً، وهما المعنيان مبالغة فيهما هنا، فهو كف فيه الكفاية ليكف كل الناس عن كل المحاظير، فقد تشمل الدعوة كل الناس ولكنها لا تكفهم، وقد تكفهم كلهم ولكنها لا تشملهم، وهذه الدعوة الكافة تشملهم كلهم[1] في كف واحدة

---

(١) الدر المنثور ٥: ٢٣٧ - أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي بعثت إلى الناس كافة إلى كل أبيض وأحمر... وفي تفسير البرهان ٣: ٣٥١ القمي بإسناده إلى حفص الكناسي قال سمعت عبد الله بن بكر الدجاني قال: قال لي الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أخبرني عن رسول الله ﷺ كان أرسل عامة للناس؟ أليس قد قال الله في محكم كتابه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] لأهل المشرق والمغرب وأهل السماء والأرض من الجن والإنس هل بلغ رسالته إليهم كلهم؟ قلت: لا أدري قال يا بن بكير أن رسول الله ﷺ لم يخرج من المدينة فكيف أبلغ أهل المشرق والمغرب؟ قلت: لا أدري، قال: إن الله تعالى أمر جبرائيل فاقتلع الأرض بريشة من جناحه ونصبها لرسول الله ﷺ فكانت بين يديه مثل راحة في كفه ينظر إلى أهل المشرق والمغرب =

وتكفهم، فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ دخولاً للكل وكفاً عن خطوات الشيطان بوحدة جامعة!.

إنه ﴿كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ ككل «ولو كان لربك شريك لأتتك رسله» وإذا لشريكه أو شركائه رسل فأرونيهم، فإذا لا رسل لمن ألحقتم به شركاء فأين الربوبية؟.

إنه ﴿كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ في رسالته المبشرة المنذرة، وحين يحصل الكفُّ للناس كل الناس، عن كافة المخطورات طول الزمان وعرض المكان فليكف عن إرسال رسول بعده، فماذا بعد الكافة إلّا تحصيلاً لحاصل أم تضييعاً؟ فهذه الآيات من آيات رسالته العالمية، الخاتمية، فلا يرسل بعده من رسول، كما لم يرسل معه، والذين أتوا قبله كانوا رسلاً لتعبيد الطريق لرسالته السامية الخالدة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ رسالته وكافته وبشارته ونذارته، أو ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الرباط العريق بين رسالته الوحيدة والربوبية الوحيدة. كما ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إن الرسالة الكافة لا تسمح لرسالة أخرى معها أو بعدها عن الله الواحد فضلاً عمن ﴿أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ﴾!.

و﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إنه وهو رسول ليس له من الأمر شيء إلّا ﴿بَشِيرٗا

= ويخاطب كل قوم بألسنتهم ويدعوهم إلى الله والى نبوته بنفسه فما بقيت قرية ولا مدينة إلا ودعاهم النبي بنفسه.

أقول: «مثل راحة في كفه» استفادة لطيفة من ﴿كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ ولكن الكافة لا تستلزم الدعوة بنفسه، فإن لزم فهل دعاهم بعد موته؟ أيضاً - بنفسه، ولو أنه دعى كلاً بلغته كانت فيها الكفاية عن الكتب التي بعث إلى الملوك والرؤساء، وكفاهم حجة قبل أن يسمعوا إلى قرآنه ويروا سائر برهانه، وأظن تتمة الحديث من مقحمات الوضاعين!. ثم المروي عن النبي ﷺ تعارضه الآيات الدالة على عمومية الرسالة لأولي العزم ورواياتها، إلّا أن تعني الكافية في طول الزمن إلى يوم القيامة مع المشاركة في عرض المكان لردح من الزمن.

﴿وَنَذِيرًا﴾ فهم يتطلبون إليه آيات إلهية خارقة العادة كأنه مخول فيها، أم موكل عليها، كما ويقترحون عليه علم الساعة:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٩)﴾:

ترى وما هي الرباط بين حق الوعد والعلم بمتاه؟ وحتى لو أخبرهم بمتاه وهم ناكروه في أصله فما هي - إذاً - الفائدة، إلا نكراناً على نكران؟.

أترى أحدهم حين يُسأل متى تموت وهو لا يدريه، هل له أو لك نكران موته وكلٌّ يعلم موتَه؟

أم حين يسأل متى ولدت وهو لا يدري؟ هل يحصل هنا شك في أنه ولد لوقت مّا؟

ذلك السؤال، المتعنت الجاهل مكرور مدوَّر على ألسنة الناكرين ليوم الدين، معتبرين جهله ﷺ بمتاه ويجهِّل أصله في مُداه، ولا رباط عقيدياً وعلمياً بين مُداه ومتاه؟!.

سؤال ساقط ممن ينكر يوم الدين أم يقر، وليس إلا تعنتاً وزوراً وغروراً من سائل ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[1] ثم الجواب الحاسم المكبت:

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)﴾:

إن وعد الله واقع لا ريب فيه، علمتموه أم لم تعلموا متاه ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ موتاً، أو هلاكاً، أم جمعاً ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[2] - ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً﴾ لرغبة عنه ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ عنه ساعة لرغبة فيه، فليس وعد الميعاد فوضى جزاف، يؤخر لرغبة، أو يقدم لأخرى، فكل شيءٍ مسيّر ومصيّر بقدر، وكل أمر منه متصل بالآخر بحكمة مستورة لدى العزيز الحكيم.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ١٢. (٢) سورة الشورى، الآية: ٧.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ
وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ
ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ
﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ
بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ
ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ
أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن
نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ
أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ
أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ
جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ
ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ
ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ
يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ
أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ
بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ﴾ . . . :

قولة جاهلة قاحلة من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في استحالة الإيمان بالقرآن وما بين يديه من كتاب! فحتى لو تأكدوا - فعلاً - من بطلانه لكانت الاستحالة باطلة، حيث الحال لا تحكم على الاستقبال، فرب حال ترى أنها من المحال لقصور في العلم أو القدرة، ثم يتحول في الاستقبال من راجحة الأحوال.

أجل في الضروريات العقلية الثابتة لدى كل عاقل قد يصح القول الصامد «لن - أو - حتماً» مستحيلاً أم واجباً، وأما غير الضروريات البدائية، فضلاً عما تدل بنفسها على حقها كما القرآن، فكيف يصح القول ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ اللّهم إلّا أن يخبروا بمدى لؤمهم وعنادهم للحق، دون قصور في القرآن، ولكنهم على عنادهم قد يتحولون إلى حالة أخرى!

فـ«لن» في مثل القرآن ليست لتَصْدُق أو تصدِّق على أية حال، وهم يرفضون بها حاضر الإيمان ومستقبله بالقرآن، عناداً.

فالقرآن بنفسه شاهد صدق يفرض على من يتدبره الإيمان به، ويرجح لمن لم يتدبر، وأما إحالة الإيمان فليست إلّا من إغلاق باب العقل والفطرة لحدٍّ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1]!

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا هم المشركون وأضرابهم من غير الكتابيين مهما كانوا موحدين، و﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ صيغة دائبة في سائر القرآن عن سائر كتابات السماء، إلّا فيما تقرن بقرينة تدل على الحياة الأخرى ﴿...ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾...[2] فإنها الحياة الأخرى بعد مستقبل الأولى، ولكن ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تخصه بضميرها المفرد ولا تخصه الأخرى، إضافة إلى قرن ﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ - ﴿بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ فما بين يديه قرآن غير هذا من التوراة والإنجيل، مهما كان إطلاق القرآن منصرفاً إلى هذا القرآن!

ولما وصل الحوار إلى هذه الحال من التعنُّت النكراء، فلا تفيد بعدئذ مواصلة الحوار، من هنا يستعرض حوار أهل النار، كجواب لهم عما هنا:

﴿...وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾:

ترى كيف ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾... و«لو» تحيل مدخولها؟ علّها الرؤية يوم الدنيا، فـ«لو» تلوي للترجي: يا ليت ترى في الحال حوارهم البائس في الاستقبال؟ وكما في ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾...[3] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[4] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾[5] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[6].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٠.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.
(٦) سورة الانفال، الآية: ٥٠.

ثم لمّا يحضر واقع المسرح للأخرى كأنه الحال ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾[١] ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[٢] ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[٣].

. . . ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في العقائد الرئيسية كالذين ذكروا ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ زجاً في سجنه وقفة الحائرين الذعرين نظرة الحكم من رب العالمين ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ الظالم المستضعف إلى الظالم المستكبر وعكساً، حيث يلوم بعضهم بعضاً، ويؤنب بعضهم بعضاً، إلقاء لتبعة ما هم فيه على بعض، و﴿ٱلْقَوْلَ﴾ هو ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ مقصرين لا قاصرين للذين استكبروا «مقصرين لولا أنتم لكنا مؤمنين»! وليست التبعة إلّا عليكم، إذ كنا نحن قاصرين، ولو خلينا وأنفسنا لكنا مؤمنين.

قولة جاهرة اليوم وقد سقطت القيم الزائفة وواجهوا واقع العذاب، وهم قبل اليوم لم يكن يخلد بخلدهم أن يقولوها، حيث التخاذل، والضعف القاصد، والاستسلام المصلحي، وبيع الحرية والكرامة بالأركس الأدنى، كانت تحول دون هذه القولة الجاهرة، وهنا الجواب الحاسم من الذين استكبروا.

﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾:

والهدى تحل محلها من قلوب صافية ضافية، فليست لتُصد بعد إذ جاءت ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ قبل أن نصدكم، فقد أجرمتم ثمرة الحياة تغاضياً عن فِطركم وعقولكم، وتحكيماً لحاضر شهواتكم، ثم نحن واصلنا في

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٩.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٧.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

إضلالكم: ظلمات بعضها فوق بعض، فنحن وإياكم صادون عن الهدى على سواء، فإن كنا نحن مجرمين مستكبرين، فقد كنتم أنتم مجرمون مستضعفون، وكل إناء بما فيه يرشح!

ثم يرجع المستضعفون بما يخفف عنهم في زعمهم عذابهم، ويثقل على المستكبرين:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾....:

لو أننا بقينا على جرمنا دون مكر وأمر منكم لخف الوطء عنا وكنا أقل منكم عذاباً ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ من ناحية ونحن ضعاف العقول، و﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾... من أخرى وأنتم أقوياء، ولكن الذي جاءته الهدى على بينة كيف يمكر، أم الذي يؤمن بها كيف يكفر حين يؤمر؟ والكفر والإيمان من الأمور القلبية لا إكراه فيها...

هناك يدرك الفريقان من الظالمين أن ليس الحوار ليثمر تخفيفاً عن عذاب أم تأجيلاً، فلكلٍّ جريمته وإثمه ما هو ظالم قدره، ثم على المستكبرين تبعة زائدة لإضلال الآخرين، والمستضعفون عليهم وزرهم باتباعهم مقصرين، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين، كما لا يعفي المستكبرين أن هؤلاء كانوا مجرمين.

فهنالك تُختم الحوار برؤية العذاب وحيث لا تفيد الحوار:

﴿... وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ كلٌّ من المستضعفين والمستكبرين ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهي في الحق تلكم الأغلال التي غلواً بها أنفسهم، غل الاستضعاف وغل الاستكبار، وأين غل من غل؟ وأين عذاب من عذاب؟ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ غلًّا بغل:

و﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١]!

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

فلأن ماهية الرسالات الإلهية وطبيعتها هي الحفاظ على العدل بين الناس، والقضاء على تطاولات المستكبرين والطغاة والمترفين في اللذات والحيونات، لذلك كانت تعارض منذ بزوغها من قبل المترفين فلم تكن - إذاً - خلاف ما يزعم - بجانب الرأسمالية وتخديراً للمستضعفين[٢] فـ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ دون تأمل وتحليل، وتغاضياً عن كل دليل، هي كلمة المترفين على مر الزمن الرسالية، معادة مكرورة في كل قرية، حيث الترف يغلظ القلوب ويفقدها كل حساسية عقلية ولمسة فطرية، لحد يحسبونهم هم الموضوع الرئيسي والمحور الأساسي في الحياة، وأن أموالهم وأولادهم هي مانعتهم من العذاب في الأخرى كما تمنعهم في الأولى!:

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

ولو كان هنالك عذاب فإنما هو للمستضعفين فلنا الترف في كل طَرَف من أطراف الحياة: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[٣].

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) الدر المنثور ٥: ٢٣٨ - أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي حاتم عن ابن زيد قال كان رجلان شريكين خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته وأتى صاحبه فقال له دلني عليه وكان يقرأ الكتب فأتى النبي ﷺ فقال: إلى م تدعو قال ﷺ: إلى كذا وكذا قال: أشهد أنك رسول الله قال ما علمك بذلك قال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت هذه الآيات.. فأرسل إليه النبي ﷺ أن الله قد أنزل تصديق ما قلت.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤١.

وي! كأنما الأموال والأولاد هي التي تقربهم إلى الله زلفى فلا يعذبون، وليست هي من حسن أعمالهم، ولا أنها منهم حتى ولو كانت حسنة لهم:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

إنهم يحسبونهم أن بأيديهم بسط الرزق وقدره، وهم يرون كثيراً ممن يسعى مجداً فلا يجد سعة إلّا قدراً، وآخرين لا يسعون كثيراً - أم - ولا قليلاً ولهم بسطٌ في الرزق، وهذا لا ينافي الضابطة المطردة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] فإنما بسط الرزق وقدره في أكثرية ساحقة خارجان عن مدى السعي والبطالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حيث يزعمون بسطه بما هم يبسطون وقدره بما هم يقدِّرون ويقدرون! فمسألة بسط الرزق وقدره هي من أهم ما تحيك في صدور كثيرة، فحين تتفتح الدنيا بزخارفها على المبطلين، ويحرم بجنبهم الآخرون، يخيَّل إلى الجهال أن الله ليس ليغدق على أحد إلّا وله عنده زلفى، ولا يغلق على أحد إلّا البعيدين عنها، وذلك حين ما تختل الموازين والقيم، وتختلط القيم الروحية والمادية فتخلف فوضويات من الظنون الرديئة، ولكن:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

فـــ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[2].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

فإنما تقربكم إلى الله زلفى، ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الإيمان وعمل الصالحات، فالأموال والأولاد التي تستخدم لمرضاة الله هي خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ عملاً مضاعفاً فأصل الإيمان وعمل الصالحات عمل، والأموال والأولاد التي تستعملهم في صالحات عمل ثانٍ[1] فما بقيت صالحة خيرة فلك منها ثواب، وكما على الذين يعملون طالحات، ويستعملون أموالهم وأولادهم في طالحات، أولئك لهم ضعف العذاب، فإنما الجزاء خيراً وشراً على قياس العمل ضخامة ووخامة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ مستعملين أموالهم وأولادهم في سعيهم الفاسد الكاسد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وكما كانوا في بواعث العذاب محضرين، حضوراً بحضور، بل هو هو نفس الحضور فـ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في سبيل الله أموالاً وأولاداً، وأعمالاً وأقوالاً وأحوالاً، ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾: إبدالاً بالحسنى وهو خير الرازقين في الأولى وفي الأخرى، وليس بسط الرزق لأهل الطغوى إلّا امتحان الامتهان ﴿... إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3]!.

---

(١) القمي ذكر رجل عند أبي عبد الله عليه السلام الأغنياء ووقع فيهم فقال عليه السلام: اسكت فإن الغني إذا كان وصولاً لرحمه باراً بإخوانه أضعف الله له الأجر ضعفين لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ ... إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ...﴾ [سبإ: ٣٧].

(٢) سورة الطور، الآية: ١٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾:

خطأٌ في خطأ لمن كانوا يزعمونهم يعبدون الملائكة، ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ﴾ ويحسبونهم ملائكة حيث أروهم أنفسهم ملائكة ولكي يُعبدوا، وليس الملائكة ليروا أنفسهم للموحدين، فضلاً عن المشركين الذين يبغونهم أن يكونوا لهم عابدين. أم ﴿كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ﴾ حيث أمروهم أن يعبدونا، فالمعبود الأصل لهم هم الجن دوننا، إذ لم تكن هناك صلة بيننا وبينهم حتى يعبدونا دون وسيط.

وعلى أية حال ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أن يُعبد مِن دونك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ تلي كل أمورنا، وتعلم ما نخفي وما نعلن، فتعلم أننا ما كنا نرضى هذه العبادة بوسيط ودون وسيط، فقد كانت عبادتهم الحمقاء هباءً على هباء ونحن - كما تعلم - منها براء! فإنها عبادة فاضية فوضاء.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿لَا يَمْلِكُ﴾ نفي استغراق في ذلك اليوم، فالنفع والضر مسلوبان لكل أحد عن كل أحد عابداً ومعبوداً إلّا الله ثم ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ذوق العذاب فـ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]! وهنا تختم الجولة في قضية المبدأ والمعاد، وإلى جولة لما بين المبدأ والمعاد:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾:

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

آيات بينات هي في دعواهم إفك مفترى وسحر مبين، مقابلة الحق المبين برواسب غامضة من آثار مضت وتقاليد غيرت دون قوام متماسك على أي أساس!

فآباؤنا هم الأصلاء في هذا المسرح وسواه، و﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وكفاه كذباً، فـ«ما هذا إلا كذب مفترى» على الله إذ لا يرضى أن نترك آباءنا -.

ومن ثم في مواجهة عامة لآيات الله البينات ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فثالوث القولة الفاتكة «ما هذا - ما هذا - إن هذا» تتبنى أصالة تقاليد الآباء لا لشيء إلّا أنهم آباء! أوَ لم يكن الآباء الموحدون الإبراهيميون هم من آبائهم؟ فليشكوا على أقل تقدير في دعوة التوحيد فيتحروا ويتخذوا الأحرى في عقولهم!.

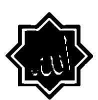
وليتهم أوتوا من قبل كتباً يدرسونها أم أرسل إليهم من قبلك من نذير، حتى يرتكنوا في هذه السلبيات على ما أوتوا! ولكن:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾:

فلقد عاشوا فترة انقطاع الوحي والرسالة، فلا كتب يتعاهدون ولا رسل، فإن يكذبون هؤلاء فقد ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهم أولاء ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هؤلاء الغابرين من علم ومال وقوة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ي عليهم على قوتهم من إهلاك وتدمير، فما أنتم بشيء تذكرون وجاههم!

وقد كانت قريش تعرف بعض هذه المصارع الغابرة، وهنا التهديد بتلك الغابرة، ولكي تنتبه الأجيال الحاضرة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟

كذلك ﴿وَمَا بَلَغُوا۟﴾ ما أرسلنا من نذير من قبلك - ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ الحاضرين في مسرح الرسالة المحمدية ﷺ فإنه أوتى ما أتوا وزيادات خالدات[١].



(١) البرهان ٣: ٣٥٣ - القمي في الآية قال: كذب الذين من قبلهم رسلهم وما بلغ ما آتينا رسلهم معشار ما آتينا محمداً وآل محمد ﷺ.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿إِنَّمَآ﴾ دليل الحصر ﴿أَعِظُكُم﴾ بموعظة «واحدة» واحدة تتمثل في قومة واحدة متضمنة الأصول الثلاثة، تحلّلاً عن أسر الآصار التقليدية للآباء القدامى وآثارها البئيسة التي تجعلكم كأنكم لا شيء وهم أولاء كل شيء. كما وهم كانوا يقتفون آثار آبائهم فتسلسلاً للّاشيء! فإلى قومة صارمة تحلّلكم عن الكونية الجوفاء والنفسية الفارغة الخواء، وتجعلكم تفكرون وتديرون أموركم بأنفسكم، خروجاً عن الحياة الهامشية كالماشية!

«قل» للناكرين أولاً وللمصدقين، فإن التصديق بحاجة إلى تقدّم على ضوء القيام الدائب والتفكير ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[(١)] !

﴿إِنَّمَآ﴾ ليس إلّا كلمة واحدة ونصيحة واحدة، تضم كافة الكلمات، وتحلق على كافة الوحدات والكثرات.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ قياماً فطرياً - عقلياً - فكرياً - علمياً - فردياً - جماعياً، قيامة عن نومتكم وموتتكم المأسورة المحصورة في التقاليد الجاهلة العمياء، بعيداً عن الأهواء والمصلحيات والملابسات الأرضية، وعن المواقف والدوافع والعواطف التقليدية، التي تتشجر في القلب فتشجره وتفجره، بعيداً عن التيارات السائدة في البيئة الجاهلة القاحلة.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ في الله وإلى الله بما منحكم الله من فطرة سليمة وعقلية عليمة، وكل موهبة إلهية حكيمة! ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[(٢)] فإن الحياة الإنسانية وعلى ضوء شرعة الله هي حياة القيام لله!.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾: اثنين اثنين متعاونين - و - فرداً فرداً، فما ضم الثاني في ذلك القيام إلا ضماً لقيام إلى قيام. ولكي يكمل السير إلى الله بازدواجية القيام، فإذا لم يحصل الانضمام، أم أضرَّ بالقيام فـ ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ متحللين عن كافة موانع القيام، عن ثنويات وثانويات التقاليد الجاهلة العمياء!.

فـ ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ هي فريضة لكل فرد فرد، قومة في قرارات النفوس، وقومة عن نومة الفطر والعقول في كافة الحقول، فليس ﴿مَثْنَىٰ﴾ إلا ليراجع أحدهما الآخر فيأخذ كلٌّ ما عند الآخر، فتصبح أخذة رابية شورى، ثم

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

تعاوناً في تطبيق، دون تأثر بعقلية الجماهير الخاطئة، أم الأكثرية التي تتملى منها العيون الظاهرة، فإذا أضرتكم «مثنى» فقوموا - إذاً - «فرادى».

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ فإنه في الأصل قيام فكري على ضوء العقل والفطرة، والفكر حركة من المبادئ ومن مبادئ إلى المراد فـ ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ في ذلك القيام، إنما تتبنى آيات أنفسية وأخرى آفاقية، مستخدمين لها للوصول إلى الحق المرام. فطالما يرمى «صاحبكم» بالجنون، والرامون كثيرون مترفون، فلا تغرنكم هذه الكثرة المتراكبة، بل:

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾: الذي بصاحبكم من جنة تُدَّعى، فما هي؟ وما هي آثارها وتبعاتها؟ وقد صاحبكم ردحاً بعيداً دون جنة ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

أفلا تكفي تلك المصاحبة منذ الولادة حتى الأربعين إن ليست به جنة؟ وأنتم تعتبرونه في هذه الفترة أعقل العقلاء؟ ثم إذا ما دعاكم إلى ما تقبله الفِطَر والفِكر أصبح ذا جنة!.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ ليس بصاحبكم من جنة، ذاتية أم خارجية، فلئن تغاضيتم عن أنه أعقل العقلاء، فلأقل تقدير ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ يصدر عن عقل ويرد إلى عقل فتفكروا...

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ عذاب بين يديكم إذ يستقبلكم ويأتيكم، وكل آت قريب حاضر، والحائطة في النذارة عقلية حائطة، وحتى عن نذارة مجنون، فكيف بعاقل فضلاً عن أعقل العقلاء!.

وكيف بمن يملك من بينات آيات الله ما يبين أنه رسول من الله، وما أوتي الرسل قبله معشار ما أوتيه!

(١) سورة يونس، الآية: ١٦.

«أيها الناس أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ الله ورسوله أعلم! إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم فبعثوا رجلاً يتراءى لهم فبينما هو كذلك أبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه أيها الناس أتيتم! أيها الناس أتيتم! أيها الناس أتيتم!»[(١)].

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾:

لقد سبق أنه ﷺ سألكم المودة في قرباه بصيغة الأجر ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[(٢)] فخيِّل إلى بعض أنه يسأل عليه من أجر، وهنا يوضح أنه ﴿لَكُمْ﴾ حيث المودة في قربى الرسول تجركم من أبوابهم إلى مدينة علمه، ثم إلى الله ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[(٣)] فكانوا هم السبيل إليك والمسلك إلى رضوانك.

فلست أسألكم أنتم من أجر، مهما كان صيغة الأجر فـ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[(٤)].

خذوا أنتم الأجر الذي سألتكم إياه، واجعلوه زاداً لتعرُّفٍ أكثر إلى المبدأ والمعاد، وصاحبكم الذي هو بين المبدأ والمعاد، نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾! ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ

---

(١) مسند أحمد بن حنبل حدثنا أبو نعيم بشير بن المهاجر، حدثني عبد الله بن بريرة عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات أيها الناس...

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٧.

(٤) راجع آية الشورى في سؤال الأجر تجد تفصيل البحث في قول مفصل.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[1] فليس الباطل يقذف الحق، ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ والحق يحمل الغيوب والباطل لا يملك حتى الشهود، فـ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[2]؟

وكذلك ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ في قلوب أهليه وهم الذين يتحرون عنه وهم به مؤمنون!

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾:

لقد جاء حق تلو حق منذ بزوغ الرسالات، ولكن الحق كل الحق إنما جاء جديداً صارماً عتيداً مهيمناً على سائر الحق، خالداً على مر الزمن بمر الحق!

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾؟ إظهاراً لأمر بدائي بديع لم يسبق؟ كلا «ما يبدئ»: وليس ليبدئ!.

﴿وَمَا يُعِيدُ﴾؟ من غابر الباطل الدفين ليدحض به الحق ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾: ليس بمعيد شيئاً![3].

فحين لم يجيء كل الحق ما كان الباطل يبدئ شيئاً أو يعيد، فكيف إذا ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ (كله). فـ ما ﴿يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؟! ثم ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ في الأولى ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ في الأخرى، فإنه زاهق في الأولى وفي الأخرى!

أتقولون بعد أنني ضللت وأنتم المهتدون؟

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾:

أترى حين يصح ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ فأين تذهب تبعة أتباع الضال وهو ظاهر بمظهر داعية الهدى؟

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٨. (٢) سورة سبأ، الآية: ٤٩.

(٣) فـ «ما» هنا استفهامية ونافية، تعنيهما مع بعض وتلو بعض وما أفصحه وأبلغه!

﴿عَلَىٰ نَفْسِى﴾ هنا لها واجهتان اثنتان: إن رأس الزاوية في الضلال هو الضال مهما ضل به غيره، ومن ثم حين يتجرد الضال عن الدعوة إلى ما هو فيه مسايرة في الحوار، فهو هو المختص بضلالة، ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ ويا له أدباً بارعاً في الاعتراف بضلاله لولا هدي الوحي من ربه.

فلو كانت بي جنة فمن نفسي وعليها، وإن اهتديت دون زلة ولا ضلالة ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ إنه ﴿سَمِيعٌ﴾ دعوة الداعين ﴿قَرِيبٌ﴾ إليهم، وقد تعني ضلال التوحيد دون ضلال في سائر جنبات الرسالة أن لو كنت ضالاً في دعوة التوحيد رغم بيناته فلا ضير لكم أن تعبدوا إلهاً واحداً.

وإن اهتديت فهنا الضير كل الضير في تكذيبي فإنه تكذيب لربي! فلا عليكم - إذاً - إن ضللت، ولكم إن اهتديت فلان آثار الهدى في باهرة فعليكم - إذاً - اتباعي!

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: ليتك ترى الآن ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ هؤلاء المشركون بأثلاث الأفزاع: فزع الرجعة والموت و﴿ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[1] وهو المحور وهو الآخر!؟.

ثم ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ تشملها كلها، وحتى البعيد في قياسهم البعيد البعيد، هو في تلك الأخذة الشاملة قريب: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[2].

وكيف لا يكون قريباً وربك الآخذ منهم قريب قريب، وعلمه قريب وقدرته قريبة وما ذلك من الله ببعيد غريب!

وحين الرجعة عند قيام القائم بالحق يؤخذ المشركون أحياءً وأمواتاً من

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة ق، الآية: ٤١.

مكان قريب، فكما حيهم في هذه الأخذة قريب، كذلك ميتهم وما ذلك على الله بعزيز(١).

وأنه لا فوت في هذه الأخذة القريبة الغريبة ولات حين مناص، إذ فات زمن الخلاص!.

(١) في تفسير القمي في الآية حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي خالد الكابلي قال قال أبو جعفر عليه السلام: والله لكأني أنظر إلى القائم عليه السلام وقد أسند ظهره إلى الحجر ثم ينشد الله حقه ثم يقول: يا أيها الناس من يحاجني في الله فأنا أولى بالله، أيها الناس من يحاجني بآدم فأنا أولى بآدم، أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى بنوح أيها الناس من يحاجني بإبراهيم فأنا أولى بإبراهيم أيها الناس من يحاجني بعيسى فأنا أولى بعيسى، أيها الناس من يحاجني بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فأنا أولى بمحمد، أيها الناس من يحاجني بكتاب الله فأنا أولى بكتاب الله - ثم ينتهي إلى المقام فيصلي ركعتين وينشد الله حقه، ثم قال أبو جعفر عليه السلام: هو والله المضطر في كتاب الله في قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] - فيكون أوّل من يبايعه جبرائيل ثم الثلاث مائة والثلاثة عشر، فمن كان ابتلي بالمسير وافى، ومن لم يبتل بالمسير فقد عن فراشه وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام هم المفقودون عن فرشهم وذلك قول الله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨] - قال: الخيرات الولاية، وقال في موضع آخر: ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة - وهم أصحاب القائم عليه السلام يجمعون إليه في ساعة واحدة - فإذا جاء إلى البيداء يخرج إليه جيش السفياني فيأمر الله عزّ وجلّ الأرض فيأخذ بأقدامهم وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [سبا: ٥١-٥٢] - يعني بالقائم من آل محمد عليهم السلام - ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ. . .﴾ [سَبَإ: ٥٢] ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سَبَإ: ٥٤] يعني أن لا يعذبوا ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ [سَبَإ: ٥٤] يعني من كان قبلهم من المكذبين هلكوا ﴿مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ [سَبَإ: ٥٤].

والروايات مستفيضة من طرقنا وطرق إخواننا كما في الدر المنثور بطرق عدة عن ابن عباس وابن مسعود وحذيفة وأبي هريرة وعمر وبن شعيب وام سلمة وصفية وعائشة وحفصة ونفيرة امرأة القعقاع وسعيد بن جبير عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن ألفاظه ما أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني عن أم سلمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يبايع الرجل من أمتي بين الركن والمقام كعدة أهل بدر فيأتيه عصب العراق وأبدال الشام فيأتيهم جيش من الشام حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم ثم يسير إليه رجل من قريش أخواله كلب فيهزمهم الله». . .

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝﴾:

هم في الأخرى ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إلينا، ثم لا تناوش لهم ولا تناول للأولى، وقد بعدوا بهذه الأخذة القريبة عنهما، فـ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هو دار الجزاء، لاستحالة النقلة إلى دار العمل!.

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝﴾:

أنى لهم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ... وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ و﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾... ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾؟! حال ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ من قبل ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ قذف الإبطال والاستنكار ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هو الأولى عن الأخرى، وهو بُعد العلم فيها عنها، والآخرة غيب عن الدنيا، وهم غيَّب عنها فكيف ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؟!.

إنهم يقولون ما لا يعلمون ولا يتحققون، كالرامي غرضاً وبينه وبينه مسافات متباعدة، فلا يكون سهمه أبداً إلا قاصراً عن الغرض عادلاً عن السدد.

أنى لهم ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝﴾:

وعلّ هنا ﴿مِّن قَبْلُ﴾ يصدق الشمول ليوم الموت والرجعة، فإن فيهما (من قبل ومن بعد) وأما الآخرة فهو يوم الجمع ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾[1] ثم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ في موقف القيامة علّه «قبل» رُتبيٌّ، أم أن الحيلولة هي في موقف الحساب والعقاب وله من قبل ومن بعد ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[2]!

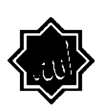
وعلى أية حال فالمحور الرئيسي هنا هو الآخرة، والأوليان تلحقانها من باب الجري كما استفاضت به الرواية.

---

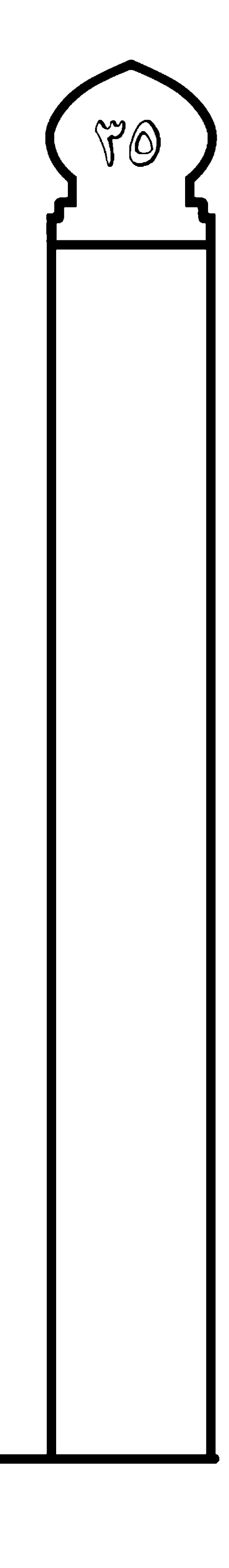
(١) سورة النمل، الآية: ٨٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٨.

و﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ هنا تعم شهوة الضلالة التي كانوا يعيشونها، فحيل بينهم وبينها، والهدى التي هنا يرجونها فـ«إنهم طلبوا الهدى من حيث لا ينال وقد كان لهم مبذولاً من حيث ينال»(١) وهما في الأولى، كما ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ألّا يعذبوا في الأخرى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾!

إلا وكل ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ عنهم منفية، وكل ما يكرهون لهم مقضية، فهم عائشون هناك الحيلولة بينهم وما يشتهون، كما عاشوا هنا وما يشتهون، جزاءً بما كانوا يعملون ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾ يريب الضعفاء كأنهم على بينة من شكهم فهم بذلك الشك المريب يتشككون!.



(١) تفسير البرهان ٣: ٣٥٥ - القمي بسند عن أبي حمزة قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سَبَإ: ٥٢] قال: إنهم..



سُورَةِ فَاطِرٍ



مكيّة وآياتها خمس وأربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

سورة تتسمى باسم من أسماء الله «الفاطر» فإنها كسائر السور من «الفاطر» وهنا تبتدأ بـ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ثم واسم لها آخر «سورة الملائكة» قضية البداية بها بعد الفاطر، فهي اسم لها بعد الفاطر، كما وأنهم بعد الفاطر.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾:

هنا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مبرهناً بالربوبية المطلقة رحمانية: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعبيراً عن الكون كله، ورحيمية: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾.... ونجد الرحمتين مع ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في خمسة أخرى بغيار يسير في صيغة التعبير[1].

ولأن الفطر هو الشق، إذاً فالسماوات والأرض مشتقتان عن مادة مخلوقة قبلهما، المعبر عنها في هود بـ«الماء» وكما فصلت فيها وفي آيات من فصّلت والأنبياء[2].

﴿... جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾... وتذكر الملائكة بمختلف صيغها (٨٨) في القرآن كله، مما يدلنا على مدى أهميتهم في رسالاتهم الروحية وسواها في ميزان الله.

وقد وصفهم أمير المؤمنين وقائد الغر المحجلين عليه السلام بقوله: «خلقتهم وأسكنتهم سماواتك، ليس فيهم فترة، ولا عندهم غفلة، ولا فيهم معصية، اعلم خلقك بك، وأخوف خلقك منك، وأقرب خلقك إليك، وأعملهم بطاعتك، لا يغشّيهم نوم العيون، ولا سهو القلوب، ولا فترة الأبدان، لم

---

(١) ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١] ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ...﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦] ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا...﴾ [الشورى: ١١].

(٢) الآيات ٩ - ١٢ من فصلت و٢٩ من الأنبياء.

يسكنوا الأصلاب، ولم تتضمنهم الأرحام، ولم تخلقهم من ماءٍ مهين، أنشأتهم إنشاءً فأسكنتهم سماواتك، وأكرمتهم بجوارك، وائتمنتهم على وحيك، وجنّبتهم الآفات، ووقيتهم البليات، وطهّرتهم من الذنوب، ولولا قوتك لم يقووا، ولولا تثبيتك لم يثبتوا، ولولا رحمتك لم يطيعوا، ولولا أنت لم يكونوا.

أما إنهم على مكاناتهم منك، وطاعتهم إياك، ومنزلتهم عندك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا ما خفي عنهم لاحتقروا أعمالهم، ولأزرأوا على أنفسهم، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، سبحانك خالقاً ومعبوداً ما أحسن بلائك عند خلقك!»[١].

وهنا «لو عاينوا» إحالة لمعاينتهم هذه، وتلميحة أنه عليه السلام عاين ما لن يعاينوه، وعلم ما لم يعلموه!.

﴿جَاعِلِ﴾ بالنسبة للملائكة بعد «فاطر» لسائر الكون، تغاضٍ عن لمحةٍ لخلقهم كيف هو وممّ هو؟ فإنما جعل الرسالة الملائكية، وقد يلمح لأنهم إنما أنشئوا إنشاء من المادة الأم أماهيه، دون تطور بتطوير، وكما أشار إليه الإمام عليه السلام: ثم و﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾... بيان لكيف هم بعد خلقهم؟ أن لهم أجنحة هي على الأكثر ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ وقد يقل فيهم ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ خلقاً لأجنحة لهم زائدة على ﴿وَرُبَٰعَۚ﴾ أم لسائر الخلق، وكما ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[٢]: نظرية التوسعة.

فلا وقفة في أصل الخلق وطوره وكوره، مشيّة مطلقة واسعة شاسعة، في أصل الخلق وفرعه!.. ولأن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ جمع محلّى باللّام، مما يفيد استغراق العام، فهم - إذاً - كلهم دونما استثناء، من ملائكة الوحي إلى

(١) تفسير البرهان عن القمي وقال أمير المؤمنين (٣: ٣٥٧).
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

النبيين، والعمال في سائر التكوين، من رسل الإماتة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[(١)] والكرام الكاتبين والمصورين في الأرحام والمهلكين: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾[(٢)] وسائر عمال رب العالمين.

والأجنحة جمع الجناح آلة الطيران أياً كان، ريشاً وسواه كأجنحة الطائرات فلا تختص بريش وزغب، بل هي كما تناسب كيانهم، إن نورانيين أماهيه فأجنحة نورانية أماهيه؟.

وعلى أية حال فهم - على كونهم ملائكة - صنوف في أجنحتهم ووظائفهم ودرجاتهم وكما يقول سيد الساجدين وزين العابدين»[(٣)]: ولا نجد

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣١.

(٣) في الصحيفة السجادية وكان من دعائه على حملة العرش وكل ملك مقرب: اللهم وحملة عرشك الذين لا يفترون من تسبيحك، ولا يسأمون من تقديسك، ولا يستحسرون عن عبادتك، ولا يؤثرون التقصير على الجدِّ في أمرك، ولا يغفلون عن الوله إليك، وإسرافيل صاحب الصور الشاخص، الذي ينتظر منك الإذن وحلول الأمر، فينبّه بالنفخة صرعى رهائن القبور، وميكائيل ذو الجاه عندك والمكان الرفيع من طاعتك، وجبريل الأمين على وحيك، المطاع في سماواتك، المكين لديك، المقرب عندك، والروح الذي هو على ملائكة الحجب والروح الذي هو من أمرك - اللهم فصل عليهم وعلى الملائكة الذين من دونهم من سكان سماواتك، واهل الامانة على رسالاتك، والذين لا يدخلهم سأمة من دؤوب، ولا إعياء من لغوب ولا فتور، ولا تشغلهم عن تسبيحك الشهوات، ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات، الخشع الأبصار فلا يرومون النظر إليك، النواكس الأذقان الذين قد طالت رغبتهم فيما لديك. المستهترون بذكر آلائك، والمتواضعون دون عظمتك وجلال كبريائك، والذين يقولون إذا نظروا إلى جهنم تزفر على أهل معصيتك: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك! - فصل عليهم وعلى الروحانيين من ملائكتك، وأهل الزلفة عندك، وحمّال الغيب إلى رسلك، والمؤتمنين على وحيك، وقبائل الملائكة الذين اختصصتهم لنفسك، وأغنيتهم عن الطعام والشراب بتقديسك، وأسكنتهم بطون سماواتك، والذين هم على أرجائها إذ أنزل الأمر بتمام وعدك - وخزّان المطر وزواجر السحاب، والذي بصوت زجرة يسمع زجل الرعود، وإذا سبحت به حفيفة السحاب التمعت صواعق البروق، ومشيّعي الثلج والبرد،=

في القرآن مذكوراً باسمه إلّا جبريل وميكال أم والروح إن كان من الملائكة، اللّهم إلّا بشغله كالكرام الكاتبين: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾[1] مقاماً في كيانه ومقاماً في عمله.

ومهما يكن من شيء في كونهم فليسوا إلّا انبثاقاً لطيفاً من المادة الأم كسائر المواد، مهما كانوا من ألطفها، كما تدل على ذلك آيات خلق الكون ككل.

ومهما يكن من أمرهم، فهم بأجنحتهم عمال أمر الله، دون استقلال لهم بجنب الله، أو استغلال من أمر الله، بل هم أداة لتحقيق أمر الله، لا لحاجة له إليها، بل لأن الكون مسرح الأسباب، وهو تعالى مسبب الأسباب.

إنهم - بأمر الله - يجمعون كافة الخطوط بخيوطها في نظم بارع ونضد رائع، في قبضها وبسطها، وشدها وإرخائها، اللهم إلّا ما لكائن فيه اختيار، ولكنه - أياً كان - ليس اختيار تفويض كما لا إجبار.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾:

إن الله تعالى - بملائكته العمال - هو الفاتح لرحمة، وهو الممسك لها

= والهابطين مع قطر المطر إذا نزل، والقوام على خزائن الرياح، والموكلين بالجبال فلا تزول، والذين عرفتهم مثاقيل المياه، وكيل ما يحويه لواعج الأمطار وعوالجها، ورسلك من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه من ينزل من البلاء، ومحبوب الرخاء - والسفرة الكرام البررة، والحفظة الكرام الكاتبين، وملك الموت وأعوانه، ومنكر ونكير، ومبشر وبشير، ورؤمان فتان القبور، والطائفين بالبيت المعمور، ومالك والخزنة، ورضوان وسدنة الجنان، والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والذين يقولون: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، والزبانية الذين إذا قيل لهم: خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه - ابتدروا سراعاً ولم ينظروه، ومن ألهمنا ذكره ولم نعلم مكانه منك، وبأي أمر وكلته، وسكان الهواء والأرض والماء، ومن منهم على الخلق - فصل عليهم يوم تأتي كل نفس معها سائق وشهيد، وصلّ عليهم صلاة تزيدهم كرامة على كرامتهم وطهارة على طهارتهم. . .

(١) سورة الصافات، الآية: ١٦٤.

لا سواه، فلا تجعلوا لله الأبدال الأمثال! وليست خزائن رحمته إلّا ملكه في ملكه: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾[1] ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾[2] إذاً فلا فاتح لها إلّا هو، ولا ممسك لها بعد فتحها أم قبله إلّا هو!

و﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ تستغرق كل رحمة مادية وروحية، تدفقاً على من يشاء، أو إغاظة عمن يشاء، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في فتحها وإمساكها، إذ لا ممسك لها ولا مرسل ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ إرسالاً وإمساكاً ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيهما، فتحاً بحكمة وإمساكاً بحكمة دونما فوضى جزاف!

هنالك تنقطع عن شبهة كل حول وكل قوة إلّا بالله، حيث تغلق كل الأبواب إلّا باب الله، فلا تدق من الأبواب إلّا باب الله.

فكل نعمة يمسكها الله تنقلب نقمة، وكل نقمة تحفها رحمة الله تنقلب نعمة، فقد تنام على شوك برحمة الله فإذا هو مهاد، أو تنام على حرير وقد أمسكت عنك رحمته فإذا هو شوك القتاد!

ترى يوسف في غياهب السجن هو في رحمة الله حيث يبتعد هناك عن سخط الله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾[3] وهناك العزيز وامرأته في نعمة البلاط وهما في نقمة الله، وكما ظهرت لهما بعد ردح من الزمن. هنالك رحمات وألطاف خفية إلهية لا يدركها إلّا أهلوها، خليطة بأشواكٍ، ظاهرة بمظهر الهلاك، ولكنها باطنها فيها الرحمة وظاهرها من قبلها العذاب!

ليست هنالك - وفي دار المحنة وتناسل الذرية - رحمة خالصة دون

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة ص، الآية: ٩.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

تعب وشغب، فحين تعيش مع الله، راضياً بمرضاة الله، ملتزماً طاعة الله، فلا عليك أن يضيق سائر الرزق، وتخشن سائر الحياة، ويشوك المضجع، فإنه حياة الرحمة والراحة، حيث تعيش أصل الرحمة.

وحين يُعكس الأمر حيث تفقد الزلفى إلى الله، فكل رحمة سواه نقمة وزحمة، إذ ليست فيها طمأنينة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[١]!

من الخليقة من يعيش الرحمتين: ظاهرة وباطنة، ومنهم من يُحرمهما فواويلاه! ومنهم من يعيش الروحية ويحرم الظاهرية، ومنهم عكسها، وقد يفضل الثالثة على الأولى حيث الأجر على قدر المشقة ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٢] وكما نرى السابقين الأقربين من عباد الله محرومين - في الأكثر - عن النعم الظاهرية، وقليلٌ من هم، المجموعة لهم ظاهرها إلى باطنها ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾!

وإذ لا رحمة إلّا من الله فتحاً وإمساكاً، فمن ذا نرجو إلّا الله؟ ومن ذا نخاف إلّا الله، «ومن خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»!

ثم ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ كما ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ تعني من دون الله، وحين أن الرحمات كلها هي من الله وإرسالاً وإمساكاً، فبأحرى أن تكون رحمة الهداية بشرعة سواها، منحصرة في الله، منحسرة عمن سوى الله! فما يفتح من هدى فلا ممسك لها إلّا هو، وما يمسك فلا مرسل له إلا هو، وقد أرسل رحمة الشرعة الأخيرة دون إمساك فهي باقية حتى القيامة الكبرى ويا لها من آية وحيدة ترسم للحياة صورة جديدة يسيرة مديدة، لو استقرت في

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) سورة النجم، الآية: ٥٣.

قلب الإنسان لصمد للأحداث كالطود الوطيد وتضاءلت أمامه الأشخاص حيث تبيد، اللهم إلّا من يهدوننا إلى الله زلفى بإذنه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾!

وهكذا تصنع آية من القرآن العظيم من يتعاملون مع الحقيقة التي يمثلها، دون إخلاد إلى جمال الألفاظ - فقط - أم كمال المعاني فحسب، طالما يتذرعون هذه وتلك إلى تمثيل القرآن في واقع الحياة بكل جمال وكمال!

وهذه الآية - ومعها سائر القرآن - هي بنفسها تكفي رحمة لا تبقي على رحمة حيث تسكب في القلب رحيقها بحقيقتها المجردة، فها هي نموذج من رحمة الله لا ممسك لها، إلّا عمن اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، إذاً فهو فيهم وليس فيهم، يموتون عطاشاً وهم يعيشون شاطئ بحره، وخضم قعره، و«رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه»! ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ويا ليتنا نذكر نعمة الله المتواصلة، ورحمته المتأصلة غير المتعاضلة دون غفوة عنها ولا غفلة بوضمة عين ونبضة قلب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾:

﴿ٱلنَّاسُ﴾ هنا كل الناس من ناس ونسناس حسب مختلف الدرجات والدركات ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾ لا بلفظة لسان، بل بالأعمال والجنان ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ومنها أنه منحنا بخطابه الكريم، وقرآنه العظيم، وفطرنا على توحيده، ورزقنا من آيات آفاقية وأنفسية رخيّة ندية، نتذكر بها نعمة الله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾؟ فإن معرفة الخالق بالوحدانية أعظم نعمات الله ورحماته!

فـ﴿هَلْ﴾ سؤال من قرارات النفوس: عن فطرة ساذجة وعقلية ناضجة غير مارجة ولا مازجة، فهنا الجواب: كلا يا الله!

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ و﴿مِنْ﴾ هنا لها موقعها المكين، والقول إنها

زائدة قولة زائدة مايدة، حيث تجتث هنا كون أي خالق إلّا الله، حتى مَن قد يسمى خالقاً في كلام الله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾[1] فإن «إذني» يخرجه عن حق الخالقية وحاقها، فإنما هو خلق «بإذني» وليس دونه خلق حتى كهيئة الطير دون روح!

ومن شؤون الخالق أن يرزق الخليقة، فـ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾... وإذ ليس غيره خالق، ولا غيره رازق ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ صرفاً إلى غير الخالق الرازق وهو مخلوق مثلكم مرزوق؟!.

﴿... يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ رزقاً للأرواح والأجساد، فمن سماوات الوحي ترزق أرواحكم، ومن الأرض وسماء الأرض ترزق أبدانكم!

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خالقاً ورازقاً ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون كذباً وخداعاً، إلى من لا يملك خلقاً وهو يُخلق، ومَن لا يملك رزقاً وهو يُرزَق؟! «سبحانه وتعالى عما يشركون»!

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤)﴾:

لا تأسف على تكذيبهم، فقد كذبوا رفاقك من قبل، وما أنت إلّا رسول: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[2] ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[3]!

ثم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ تصديقاً وتكذيباً وجزاء وفاقاً، دونك والذين من قبلك!

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ ليوم الحساب، والجزاء الوفاق ﴿حَقٌّۖ﴾ ثابت لا حول عنه ولا تبديل، إلا عجزاً أو نسياناً، أم ظلماً وعدواناً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(١)!

وذلك الوعد الحق لا بد لكم أن تعيشوا ذكراه في حياة النسيان، وحذار حذار ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ عن الوعد الحق ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ في توحيده ووعده الحق ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الذي يعيش غروراً وتلبيساً، والشيطان هو رأس زاوية الغرور بذريعة الحياة الدنيا ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ والنفس الأمارة بالسوء ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ فحذار حذار من ثالوث الغَرور، الحائر محور الحياة الدنيا، فإنها هي دار الغُرور ومجالة الغَرور: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٢) و﴿. . . مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٣) و﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾(٤). ويا له من ثالوث منحوس يثلث ذكره في الذكر الحكيم (٣١: ٣٣ و٥٧: ١٤) وإنها لمسة وجدانية صادقة حين يستحضر الإنسان صورة المعركة الصاخبة الدائبة بينه وبين عدوه الشيطان:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾:

فحين ذكراه يتحفز بكل قواه للدفاع عن نفسه ونفيسه، دفعاً عن كل غواية وإغراء، مستيقظاً مداخل الشيطان إلى نفسه، متوجساً من كل حادثة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.
(٣) الحديد، الآية: ٢٠.
(٤) سورة الملك، الآية: ٢٠.

وهاجسة ليعرضها على حجة الله، فعلّها خدعة مستسرة من عدوه القديم. استعداداً دائباً لخوض هذه المعركة المصيرية ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١]!

أمن العقل أن يُتخذ العدو صديقاً، اغتراراً متواصلاً متأصلاً بغروره، وقد غر من قبل أبوينا الأولين ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[٢]! ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ كما أعلن منذ البداية، ووعد مواصلة العداء حتى النهاية: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣] إذا ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ مبدئياً لا طارئاً قد يصادق بعد ما يعادي ﴿إِنَّمَا﴾ ليس إلّا ﴿يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ﴾ وهم كل من ينغر بغروره ﴿لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

فهنالك حزبان: حزب الله وحزب الشيطان، وبينهما عوان مذبذب هو أيضاً من حزب الشيطان، حيث الذبذبة دعوته وكيانه، ماهيته وبيانه، اللّهم إلا من يعيش حياة الإيمان فهو من حزب الرحمن مهما نال منه الشيطان إذ لا يخلو منه إنس ولا جان، إلّا المخلصين من عباد الله فليس له عليهم من سلطان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٤]:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾:

قاعدة مطردة عادلة صارمة للذين كفروا وماتوا كافرين، والذين آمنوا وماتوا مؤمنين، إلّا أن العذاب الشديد لا يربو شد الكفر، أو قد ينقص، ومغفرة وأجر كبير يربوان شدّ الإيمان، قضية العدل هناك والفضل هنا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٥]!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤.
(٤) سورة الرحمن، الآية: ١٣.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾:

أترى من ذا الذي يزين سوء العمل ليُرى حسناً وهو إضلال؟ أم لا يزين فهو هدى؟ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ ... وَيَهۡدِي﴾ ...! وذلك التزيين إضلال هو في الأصل من الشيطان حين يرى له ظرفاً قابلاً من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ واضرابهم: ﴿... وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾[١].

ثم الله لا يهديهم في هذه المعركة لأنهم هم السبب فيها مستبصرين، فيذرهم في غيِّهم يتيهون جزاءً بما كانوا يعملون.

إذاً فللتزيين هنا نسبتان، نسبة إلى الشيطان تعاملاً مع الذين كفروا، ونسبة إلى الرحمن حيث لا يحول دونه وإياهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[٢].

فلكل من الخيرات والشرور نسبة إلى الله عدلاً أو فضلاً، مهما تنسب إلى فاعليها خيراً أو شراً ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

ولعمر الله أن ذلك مفتاح الشر كله أن يزيِّن للإنسان سوء عمله فيراه حسناً، معجباً بنفسه وكل صادر منه ووارد له، فلأنه واثق من عمله فلا يفتش عنه ولا عن مصدره ومورده، فهو من الأخسرين أعمالاً ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾[٣].

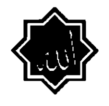
وأنه باب فسيح للشر كله، ونافذة السوء كله، ومفتاح الضلالة كلها، نموذج الضال الهالك، البائر المائر، السائر الصائر إلى شر مصير ﴿جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[٤].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.
(٢) سورة النمل، الآية: ٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ٨.

ورغم أن من كمال الإنسان التدرج إلى كمال وأكمل، وليس ذلك إلّا أن يعيش نقداً بكل يقظة في أموره، فالذي يرى كل أعماله حسنة، ليس ليخلد إلى خلده نقص وخطأ، فهو مكبٌّ على وجهه، مخلد إلى نفسه، واقف لحدّه السيّىء البئيس، وهو يراه الحسن النفيس!

فيا ويلاه حيث يهبط الإنسان إلى ذلك الدرك المهين والضلال المبين، وذلك بما قدمت يداه وأن الله ليس بظلام للعبيد!.



﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾

جولات متتابعة في مسارح من الكون هي مصارح تعرض للبصائر بالأبصار، تدليلاً لتوحيد المبدأ، وتوطيد المعاد.

ففي مشهد الحياة النابضة بعد الموت، الناهضة المتواترة المتقاطرة على ذوات الميتات الأرضية حجة. :

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1] - ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

هنا ﴿أَرْسَلَ﴾ ماضياً، ضاربة إلى أعماق الماضي منذ خلقت الأرض والسماء وعمِّرتا، وقبل خلق الإنسان فهو الآن أحرى، وفي الروم والأعراف «يرسل» تدليلاً لاستمرار ما مضى ما هما عامرتان، فذلك إرسال في مثلث الزمان!.

ثم الرياح منها مغيرةٌ آية العذاب كريح صرصر في أيام نحسات سبباً لموتات نحسات، ومنها مثيرة تثير السحاب ﴿إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ و﴿لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾[3] لحياة وحياة!

فالرياح المغيرة ترسل إلى بلد حي للإغارة والموت، والمثيرة ﴿إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ لإثارة الحياة، فـ«إلى» هنا تهدف صالح البلد كما تلمح له «البلد» في الأعراف.

والسحاب هو المسحوب من أبخرة المياه الأرضية، تسحب إلى جو السماء، ثم الرياح الساخنة تثيرها، ثم الباردة تقلها سحاباً ثقالاً حيث تثقلها

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الروم، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

وتكثفها، ثم بالتيارات الجوية في مختلف طبقاتها تساق لبلد ميت إليه ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾! دليل واقعي مكرور أمام الأعين غير منكور، فكيف ينكر هؤلاء حياة النشور؟!

فكما الله يعلم ميت البلاد فيحييها، كذلك يعلم ميت العباد فيحييهم وأحرى ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ فالعلم هو العلم والقدرة هي القدرة وإذا كان إحياءُ البلاد هنا فضلاً يجوز تركه، فإحياء العباد عدل لا يجوز تركه ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾!.

هذا! وإلى نقلة من حياة الجسم إلى حياة الروح وهي أنبل وأحرى[1]:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾:

الحياة الدنيا بزهراتها وشهواتها هي حياة الغرور المَمَر الهزة، والحياة العليا الزاهرة هي حياة المقر العزة، فخذوا من ممركم لمقركم، ومن هزتكم لعزتكم!

فالعزة بحق المعني من الكلمة هي لله جميعاً، إلّا من يعتز بالله فعزيز بالله على قدره: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

و﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ في أعماق الزمان والمكان أياً كان وأيان، فإن «كان» تستأصل كل آصلة وحاصلة ومستقبلة، فإرادة العزة أينما حصلت طول

---

(١) الدر المنثور بسند عن أبي رزين العقيلي قال قلت: يا رسول الله ﷺ كيف يحيي الله الموتى؟ قال: أما مررت بأرض مجدبة ثم مررت بها مخصبة تهتز خضراء؟ قال: بلى قال: كذلك يحيي الله الموتى وكذلك النشور والقمي في ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فَاطِر: ٩] حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٨.

الزمان وعرض المكان ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ فلتطلب منه العزة لا سواه، فالعقيدة الوثنية المتحللة عن التوحيد، المهلهلة، ليست لتحصل على أية عزة.

وإرادة العزة قد تعني إرادتها لنفس العزيز ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ إذ يعز من اعتز به! وأخرى تحرِّيها لمَن يُعبد عزيزاً ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ فله العبودية والطاعة جميعاً! وأما إرادة العزة الإلهية أن تحصل للعبد كما هي لله فمستحيلة ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ لا تعطى لسواه!.

فـإن ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ لا سـواه ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ لا سواه، فالعزة جميعاً هي لله لا سواه! والكلم اسم جنس جمعيٌّ يذكَّر مرة ويؤنث أخرى، وهكذا يكون كل جمع لا يختلف عن واحده إلّا بالتاء. ولأن الله تعالى ليس له مكان علٍ فلا يعني صعود الكلم الطيب إليه أمّا هو، صعوداً من سفال إلى علٍ في المكان، فإنما هي المكانة العالية له على كل من سواه وفي ذاته المقدسة، فكل شيء لديه سفل وهو - فقط - العال. إذاً فصعود الكلم الطيب إليه هو صعود في المكانة سماع القبول، إنه يبلغ رضاه على مداه وينال زلفاه دون ضياع ولا إهمال ولا ذرة مثقال.

صعوداً إليه يوم الدنيا هكذا، مهما يملك فيه سواه ما يملكه، وصعوداً إليه في الأخرى إذ لا يملك الحكم فيه إلّا الله! فعبثاً يحاولون من يعبدون إلّا الله في كلماتهم وأعمالهم ونواياهم، زَعم أنها واصلة إلى معبوديهم لأنهم لديهم فإنهم: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1]! إذا فـ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ دون سواه، فعلينا ألّا ندعو إلّا إياه ولا نرجو إلّا إياه:

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

هنا كلم ونية ومعرفة وتصديق وعمل وتعامل مع الواقع، هي لزام بعض البعض في تبنّي الطيب، فما هو - إذاً - الكلم الطيب؟ الطيب هو ما يستطاب في ميزان الحق، فالكلم المستطاب لله، وهو طبعاً مستطاب لقائليه وسامعيه الطيبين، إنه في مثلث من الطيب وهو كماله وتمامه، مهما كان رأس الزاوية - وهو تمام الزوايا - هو الله. ولا يستطاب الكلم في الحق تماماً، إلّا بنية صادقة، ومعرفة فائقة، وتصديق لائق وعمل مصدِّق، وتعامل مع الواقع، وآخر المطاف في طيب الكلم هو العمل وفقه.

صحيح أن الكلم الطيب دون العمل تخطى منازله إلا العمل، ولكن الذي يرفعه هو العمل الصالح: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ وفاعل الرفع للكلم الطيب هو العمل الصالح، ومهما كان حق الفاعل هو الله، فلا يرفعه الله إلا بالعمل الصالح.

فالكلم ما لم يزود بزاده هو خبيث مهما اختلفت دركات خبثه حسب الدرجات، فإن العمل الصالح هو الذي يرفعه فالعمل الطالح يضعه[(١)] والحالة العوان، لا إليه ولا إلى ضده عوان بين رفعه ووضعه. وكلما زاد صلاح العمل زاد الكلم ارتفاعاً، كما كلما زاد طيب الكلم زاد صلوحاً للارتفاع: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾...[(٢)].

ومن طبع الكلمة الطيبة أن ترتفع ثابتة دون زوال، حتى يتلوها العمل الصالح فارتفاعاً فوق ارتفاع: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[(٣)].

---

(١) في تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن لكل قول مصداقاً من عمل يصدّقه أو يكذّبه فإذا قال ابن آدم وصدق قوله بعمله رفع قوله بعمله إلى الله وإذا قال وخالف عمله قوله رد قوله على عمله الخبيث وهوى به إلى النار.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١١. (٣) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

وكلما كان الكلم الطيب أسعد، فهو بطبيعة الحال أصعد ثم أرفع، فالكلم الطيب الذي يطيب الجماهير المحتشدة، دون اختصاص بمكلِّمه، صعودها وارتفاعها هما بميزانية آثارها قضية الجزاء الوفاق وعند الله مزيد.

ورأس الزاوية في ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ هو ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] ثم يتلوها ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ ومن ثم تتمة الولاية التوحيدية وهي الزاوية الثالثة ولاية علي عليه السلام والأئمة من ولده الطاهرين عليهم السلام[2].

فالكلم الطيب هو «الولاية» بصورة مطلقة، الشاملة لهذه الثلاث، وكل كلم طيب يتبنى التوحيد كأصل، ومن ثم المعاد وهو لزام التوحيد، كما النبوة، ثم الولاية الرسالية المتمثلة فيمن يحملونها كما هي. إذاً فالكلمة الطيبة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هي الكلم، حيث تجمع في حقها وحاقها كل الكلم الطيب.

فـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ فها هي في الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، عزة الحَظوة المعنوية، وعزة الزلفى إلى مبدأ العزة ومنشئها.

---

(١) تفسير البرهان ٣: ٣٥٨ - الطبرسي في الاحتجاج عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد سأله ابن الكوا قال: يا أمير المؤمنين كم بين موضع قدمك إلى عرش ربك؟ قال: ثكلتك أمك يا بن الكوا اسأل متعلماً ولا تسأل متعنتاً، من موضع قدمي إلى عرش ربي أن يقول قائل مخلصاً ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصّافات: ٣٥]! قال: يا أمير المؤمنين عليه السلام فما ثواب من قال: لا اله إلا الله؟ قال: من قال: لا إله إلّا الله مخلصاً طمست ذنوبه كما يطمس الحرف الأسود من الرق الأبيض، فإذا قال ثانية: لا إله إلّا الله مخلصاً خرق أبواب السماوات وصفوف الملائكة حتى تقول الملائكة بعضها لبعض: اخشعوا لعظمة الله، فإذا قال ثالثة مخلصاً لم تنته دون العرش فيقول الجليل اسكني وعزتي وجلالي لأغفرن لقائلك بما كان فيه ثم تلا هذه الآية ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: ١٠] يعني إذا كان عمله خالصاً ارتفع قوله وكلامه.

(٢) المصدر عن الكافي بسند عن الإمام الرضا عليه السلام في الآية قال: الكلم الطيب هو قول المؤمن لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله وخليفته حقاً وخلفاؤه خلفاء الله والعمل الصالح يرفعه فهو دليله وعمله واعتقاده الذي في قلبه بأن الكلام صحيح كما قلته بلساني.

والعرش بمكانه ومكانته هو مصعد الكلم الطيب كما هو مصعد الملائكة: «ولولا إقرارهن له بالربوبية وإذعانهن له بالطواعية لما جعلهن موضعاً لعرشه ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه»[١].

فليست العزة عناداً جامحاً على الحق، جانحاً غارقاً في أنانية الشهوات، ضارباً في كل عتو وتجبر واستكبار، فإنها تنازلات عن صراط الإنسانية إلى حمأة الحيوانية النكراء!

إنما العزة هي الاتصال بمعدن العزة غير المحدودة، بالتقرب إليه والزلفى لديه، في سلب مطلق «لا إله» سلباً لكل عبادة وخشوع وخنوع آفاقية وأنفسية، ثم إيجاب مطلق «إلا الله» فلا يعبد إلّا إياه، ولا يطيع إلا إياه، هنالك ترتفع الجباه صامدة في سجودها لله، متعالية عن الخنوع لغير الله!.

هذه هي العزة وهؤلاء هم الأعزة! لكن:

﴿... وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾:

هنا ﴿يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وهناك «يعملون السيئات» دون مكر، وهنالك حسنات هي - بطبيعة الحال - خالية عن كل مكر، حيث المرائي في حسنات ليست حسناته حسنات.

﴿يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ابتغاء العزة منها وهي - في الحق - من أسباب الذلة، و﴿يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إراءة للضعفاء والمستضعفين أنها هي أسباب العزة، ذلك المكر الماكر يجعل من سيئاتهم عقبات متعديات أن يضل بها من لا يعقلون، ويغتر بها من لا يشعرون وهنالك الطامة الكبرى!

لفاعل السيئات غفران أم عذاب غير شديد، ولكن ماكر السيئات له

(١) في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام وضمير الجمع في إقرارهن راجع إلى السماوات.

عذاب شديد ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ بائر غير سائر إلّا ردحاً من زمن الامتحان ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(١)!

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ هل تعني خلق الإنسان الأوّل وزوجه فإننا خلقنا بخلقهما و﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ تعني خلق سائر الإنسان إلا أبوينا الأولين؟ وقد يبعده ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ حيث الزوجة ابتدأت منذ الأولين المخلوقين من تراب! أو تعني ﴿خَلَقَكُم﴾ كل الخلق أولاً وأخيراً ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلّا الأولين، ولكن ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ توخر الزواج عن الخلق من نطفة، فتخرج الزواج الأوّل!

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ بعد ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ تختص الزواج بغير الأولين كما النطفة، ولكنهما لا تخصصان ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بالأولين، حيث النطفة أيضاً مخلوقة من تراب، مهما اختلف تراب عن تراب، وتؤيده آيات خلق الإنسان - ككل - من تراب أو طين(٢):

﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ عنصر ميت في أصله، حيٌ في نسله منذ النطفة حتى الجنين حيث تتم الحياة الإنسانية، فمن أين أتت هذه الحياة وكيف وأنى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾(٣)!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

(٢) ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]؟ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ...﴾ [غافر: ٦٧] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ...﴾ [الحج: ٥].

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

فالنقلة من حياة إلى حياة أرقى هي قريبة، ولكنها من موت إلى حياة بعيدة غريبة، إلا أننا نعيشها على مر الزمن، ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾(١)!

ثم هذه النطفة في صورتها الوحيدة، وهيدة لانقسامها إلى ذكر وأنثى ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ - سبحان الخلاق العظيم! ومن ثم حمل الأزواج بكمه وكيفه ليس إلّا بعلمه ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ والنص في إطلاقه العام يتخطى أنثى الناس إلى كل أنثى، و«من» هنا تأكيد مستغرق للنفي وهو العام المستغرق لكل أنثى:

من حيوان البر والبحر والجو، ومن الزواحف والحشرات ما تلد وما تبيض، فالبيضة حمل من نوع خاص إذ لا يتم نموه داخل الجسم، بل ينزل بيضة ثم يتابع نموه خارج جسم الأم بحضانتها أم حضانة صناعية أما هيه؟ حتى يصبح جنيناً كاملاً ثم قفساً ومتابعة لسائر نموه الحيوي! فكل حمل وكل وضع هو بعلمه كما هو بقدرته ثم:

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾... وهو اللوح المحفوظ، دون كتاب المحو والإثبات، حيث الآية تنحو منحى العلم الثابت، أن يعمر معمر عمره حتى الأجل المحتوم، أو ينقص من عمره لأجل معلق، و«عمره» هو المحتوم لا يزيد عليه وقد ينقص.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد، العسير العسير هو ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ وأنتم تعيشونه طول الحياة وعرضها، فبأحرى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الرجع في الأخرى ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ بل هو أهون عليه.

(١) سورة ق، الآية: ١٥.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾:

كما البحران مختلفان في الصورة، متفقان في سيرة الرحمة النافعة المترعرعة اليافعة، فهما معنيان لوحدة الفائدة، كذلك الموت والحياة، ففي كلٍّ عائدة، مهما كانت بعد الموت زائدة خلاف ما يزعم من صورته.

فالبحر العذب: المستطاب، الفرات: الذي يروِّي العطشى بساهل انحداره في الحلوق، وبارد طبعه وعذوبته، والبحر الملح: غير المستطاب للشراب، الأجاج الحارق الحلوق لملوحته المرة، هما على حالتهما المتضادة - مع بعض - من نعم الله حيث يلتقيان بتسخير المنان في خدمة الإنسان: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

والبحران قد يعنيان - ضمن ما يعنيان - مثل المؤمن والكافر، حيث العناية في بقاء الكافر رغم كفره قد تكون لما يخرج منه المؤمن ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[٢] و﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ إذ يخرج الله الأحياء من الأموات كما أخرج الأموات من الأحياء!

إرادة التنويع في خلق الماء بواقعها ظاهرة، ووراءها حكمة ظاهرة في العذب الفرات، باطنة في الملح الأجاج، فمهما كان العذب الفرات سائغاً شرابه، ولكن الملح الأجاج سائغ فائق لحمه وحليه، وإن كان ﴿وَمِن كُلٍّ

(١) سورة النحل، الآية: ١٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ٣١.

﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وأين حلية من حلية ولحم من لحم؟

و﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو الأسماك المحللة دون لحوم البحر كلها حتى الكلاب والخنازير، فإنها حرمت بالسنة القطعية، و﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ هي اللؤلؤ والمرجان: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾[1] [2].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ - ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾[3] والمواخر هي المشاق حيث الفلك تشق البحر وكأنها أصبحت «فيه مواخر فيه» حيث الأمواج الهائجة تجعل الفلك في خِضِمِّها وهي غائبة غارقة فيها، وكل ذلك ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾:

﴿يُولِجُ﴾ إيلاجاً واقعياً حيث يلج من أفق الليل في أفق النهار شتوياً، وعكسه صيفياً، وآخر في المنظر حيث يلتقيان فجراً ومغرباً، ففي مشهد ولوج الليل في النهار وعكسه وكأنما هناك عراك بين عسكر الليل والنهار، والفتح والفلح لعسكر الليل أحياناً ولعسكر النهار أخرى.

---

(١) سورة الرحمن، الآيات: ١٩-٢٢.

(٢) راجع تفسير «الرحمن» في الفرقان ج ٢٧ : ٢٨، تجد فيه تفصيل خروجهما من البحرين باختلاف الكم والكيف، وإن البحرين يشتركان في وجود اللؤلؤ والمرجان فيهما كما ويصدقه العلم الباحث عنه الكاشف له.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٤.

وفي الولوجين منظراً وواقعاً آية لكروية الأرض، وإلّا فليكن ليلاً كله أو نهاراً كله!

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ إدارة لهما وسيراً كما سخر لإدارة الكون قَدَر ما قدَّر.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ دون من تدعون ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ وهو أثر على رأس النواة، مثلاً للصغر.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾:

لا سماع لدعاء ممن لا سمع له كالأوثان، والذي يسمع كالطواغيت ليس ليسمع إجابة، ولو سمع ليس بإمكانه إجابة، ثم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ «و» هنا «لا ينبئك» بهذه الحقيقة المرة ﴿مِثْلُ﴾ القرآن ونبيه ﴿خَبِيرٍ﴾ بواقع الأمور وعواقبها.



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦)﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾:

تعريف الخبر ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ هنا يعني كونه معروفاً فلا يخبر به إلّا للتنبيه، ومن ثم القصر كأنهم هم الفقراء لا سواهم كما الله ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ يحصر الغنى في الله. بيان ناصح ناصع لكيان الناس وهم في أحسن تقويم - إذاً - فما هو كيان من دونه في سائر التقويم؟ فهو حجة قارعة لفقر الكون كله، وليس إلا إلى الله الغني الحميد، تقريراً لكلمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ نفياً لأي غنى عن سائر الكون، ثم إثباتاً لكل غني لخالق الكون!

وترى لماذا الحصر ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ كأن سواكم من الخلق أغنياء، أم ليسوا بفقراء إلى الله؟ علّه لما كان المشركون يزعمونهم أغنياء في أنفسهم بآلهتهم، والله هو الفقير إليهم إذ يدعوهم إلى عبادته: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾...[1] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[2]!

لذلك يرد عليهم بمعاكسة ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[3]! فأنتم محصورون في الفقر لا أن الفقر محصور فيكم.

ثم ذلك الفقر الفاقر ضارب إلى الأعماق لحد كأن ليس كيان الإنسان إلّا فقراً: ﴿ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا أن هناك إنسان أم أياً كان له الفقر إلى الله، بل هو بذاته الفقر إلى الله بذاته الغني، دون إمكانية التحول من ذاتية الفقر إلى ذاتية الغنى وبأحرى المعاكسة، فإنما ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾!

والفقر والغنى وصفان للكائن، فلا يقال للمعدوم المطلق فقير، وآية الفقر تقرر أصل الفقر للإنسان، وتعلقه في فقره بالله وإلى الله، فالفقير الذات وفي الأفعال والصفات بحاجة ضرورية إلى غني في كافة الجهات والحيثيات، فلولا أن هناك كائناً غني الذات، لما كان للفقير كون، أم لو لم يكن حميداً لم يكن للفقير ما يكفيه به ويغنيه، ولولا أنه حميد لم يقرر مصير الحساب يوم الحساب، فهو غني حميد في غناه في النشأتين. إذاً ففي فقر الكائنات من حيث الذات دليل لا مرد له على وجود كائن غني الذات، وإلا

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

فأين وجودات الممكنات، حيث الافتقار في أصل الذات وحاقها دليل الحدوث، فمن ذا الذي أحدثها إلّا أزلي الذات وغنيها؟.

وتجد في آية الذاريات (٤٩) أعمق البراهين للفقر الذاتي في الكائنات كلها، حيث الزوجية هي كيان كل كائن سوى الله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾[١] [٢]!.

ومهما كان في الكون غنى نسبية لكائن أمام الآخر، فهما في الفقر إلى الله سواء، كما وهما في أصل الفقر سواء، فأنت الغني في المال بحاجة إلى فقير العمال كما الفقير المال بحاجة إليك في المال، فلكلٍّ فقر من جهة وغنى نسبية من أخرى، وهما في غناهما فقيران إلى الله الذي أغناهما!

أنت ساكن فقير صغير من سكان هذه الأرض، وهي تابعة صغيرة من توابع الشمس، وهي نجم صغير من مليارات الشموس والنجوم في مليارات المجرات والجزائر السماوية، أفأنت الغني والله فقير؟!

أتزعم أن في بعث الرسل إليك، وتواترهم في دعوتك بكتابات السماء، إن في تلك الدعاية الفخمة المتواصلة، والداعية الفخمة الدائبة، حاجة من الله إليك، فحين تستجيب الداعية فللّهِ فيها حظوة وعزة، وحين تردها فعلى الله هزّه وذلة؟

لا! يا أيتها الحشرة الصغيرة الهزيلة، بل ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

غنيٌّ إذ يدرّ عليكم رحمة دون ضِنَّة، حميد إذ لا يحملكم على إنفاقه، ما يعود بنفعه إليه، فالكل عائد إليك في تقواك، وما يد عليك في طغواك.

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) راجع الفرقان لتفسير الآية بقول فصل كأعمق البراهين لإثبات وجود الله.

أنت الفقير أن يهديك الله إليه ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ إذ لا يذرك في ضلالك، ولا يهدرك في كلالك.

سبحانك يا رب، فأنا الفقير في غناي إليك فكيف لا أكون فقيراً في فقري إليك! أنا الفقر كله، أنا اللاشيء كله، وأنت الغنى كلها، وأنت مشيّئ الأشياء كلها، لا لحاجة منك إليها فهي المحتاجة إليك:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾[١] ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾[٢] ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾[٣] ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾!

أفتزعمون أنكم أنتم - فقط - الخلق العزيز، والله لا يسطع أن يخلق بعدكم عزيزاً، فإن ذهبتم أو أذهبكم فلا بديل عنكم؟ كلا أيها الأغفال، وقد أذهب قبلكم قروناً مضت، قبل آدم الأوّل حيث انقرضوا ثم استخلفكم من بعدهم.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾[٤] ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾:

﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ نفس ﴿أُخْرَىٰ ۚ﴾ فإن ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ١٩، ٢٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٣.
(٤) تجد البحث الفصل حول آية الوازرة في النجم فراجع الفرقان ج ٢٦ - ٢٧.

رَهِينَةٌ﴾[(١)] ضابطة لا تستثنى لفردية التبعات ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾... لا سواه.

«لا تزر..» حتى إذا وعدت، ولا يسمح لها بالوفاء حتى إذا أرادت ﴿وَإِن تَدْعُ﴾ نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ مثقلة أخرى أم أية نفس أخرى ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ لتحملها عنها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ﴾ من ثقله ﴿شَىْءٌ﴾.

فلا أن نفساً وازرة تزر وزر أخرى، ولا أنها إذا دعيت إلى حملها يحمل منه شيء حتى ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ضابطة صارمة في «لا تزر» فردية التبعة، وعدت أم سئلت وأصرت!

حيث القرابات هناك ليست لتنفع شيئاً، فإنه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾[(٢)] وإنه ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾[(٣)] فلا ينفعهم هناك أي وصل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[(٤)].

فالنفس المثقلة من أعباء الذنوب والأوزار تستغيث ولا تغاث، طلباً في تلك الحالة البئيسة ممن يشاطرها في حِملها، فلا تهم كل نفس إلّا نفسها، ولا تعنيها إلّا أمرها بإمرها ولا تعين أحداً كما لا تعان مهما عنت، وعانت من حملها، ولو كانت أولى الناس بأمرها وأقربهم التياطاً به وارتباطاً برفاقه، وانتياطاً بنسبه! قافلة غافلة تمضي هناك حتى تقف أما الوزان والميزان، اللهم إلّا أهل التقوى فلهم هنالك الشفاعة الكبرى، وليست هي حملاً لوزر، بل سماحاً عنه بمؤهلاته المسرودة في الذكر الحكيم.

(١) سورة المدثر، الآية: ٣٨.
(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٤-٣٧.
(٣) سورة الصافات، الآية: ٢١.
(٤) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

أنت يا رسول الهدى لست منذراً لمن لا يخشون ربهم بالغيب وهم معاندون، إذ لا يؤثر فيهم إنذارك مهما كان إنذارك واجباً فيه اعذارك ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ مؤثراً فائقاً ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يخشونه بالغيب عن المشاهد، ويخشونه وهو غيب عن المشاهد، وخشية بغيب قلوبهم، الظاهرة الزاهرة في المشاهد! ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ...﴾ كأظهر المظاهر من ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ فـ: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾...[1] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لأهل التقوى والطغوى «وهو أحكم الحاكمين».

ثم الكفر والإيمان لا يستويان في أي ميزان كما الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات:

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾:

وحين ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ عن بصره ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ فبأحرى لا يستوي الأعمى في قلبه عن البصير!

وحين لا يستوي ظلمات الجو والنور فبأحرى ظلمات القلب ونوره، وكذلك الظل والحرور والأحياء والأموات ومثلث «لا» بين الثلاث الأخرى هي تأكيدات النفي بأولية قطعية، فالظلمات لا تستوي في أقسامها ولا النور في أقسامه، فهل تستوي الظلمات والنور، والظل لا يستوي في أقسامه ولا الحرور فهل يستوي الظل والحرور، والأحياء لا تستوي في أقسامها ولا الأموات، فهل تستوي الأحياء والأموات.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

ولماذا تركت «لا» بين الأعمى والبصير؟ لأن الأعمين على سواء إنهم لا يبصرون مهما البصيرون ليسوا على سواء!

فالبصير يبصر الحق المقبل إليه فيَقبل، ومن في الظلمات لا يبصُر الحق فلا يُقبل، والميت لا يسمع صوت الحق فيقبل!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ حقه بحقه دونما فوضى جزاف ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ من قبور الشهوات والحيونات وسائر الإنيات!

لست أنت مسمعاً وهادياً من أحببت: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1].

إن الإيمان بصر وبصيرة وظل ونور وحياة، والكفر عمى وظلمات وحرور وموت، فهل يستويان؟ بصر يرى الحقيقة ناصعة صادقة دون أية هزازة ولا خلخلة، وظل عن حرور الشهوات، ورياضة للنفس ورياحة للقلب، وظل عن هاجرة الشك وحاضرة التيه في الظلام، وحياة في المشاعر والقلوب دون خمود ولا ركود ولا جمود، فهل يستويان مثلاً الحمد لله رب العالمين؟.

لست أنت يا رسول الهدى مسمعاً وهادياً لمن في قبور الظلمات والعمايات والميتات:

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ وهذا قصر دون حصر بالنسبة لمن في القبور، ثم هو للعالمين بشير ونذير، حيث البشارة لا تأتي إلّا بعد النذارة لمن يتأثر بالإنذار وبينهما عموم مطلق[2]، ثم ولست - فقط - أنت النذير:.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٨١.

(٢) فكل من يبشر فقد أنذر قبلها، وليس كل من ينذر يبشر بعدها حيث البشارة تخص المؤمنين.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾:

وتراها في هذه النذارة العامة لكل أمة، تتنافى وسلبها ككل عن كل قرية: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾[١]؟..

كلّا فإن ﴿كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ هي أعم من كل أمة، فرب أمة تسكن في قرى عِدّة، والنذير مبعوث في أمها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾[٢] وكلما كانت الرسالة أعم وأتم، فالأم التي يبعث فيها رسولها أهم وأطم! وكما أم القرى مكة المكرمة هي أهم عاصمة من عواصم الرسالات الإلهية.

فلا تخلو أمة من العالمين من الجنة والناس أجمعين وسائر المكلفين، لا تخلو من نذير، إما بشخصه العائش فيهم، أم بدعوته الواصلة إليهم بمن حمّلوا رسالاتهم، فإن حملوها وبلّغوها فحجة بالغة، وإن قصروا في حملها أم لم يبلغوها فتقصير من الحملة عن الرسل دون المرسلين، وقصور للمستضعفين.

وهل أن «نذير هو كل منذر عن الله، برسالة أو سواها؟ وليس في نذارةٍ دون رسالة حجة بالغة إلا تبيناً ومناصرة لحجة الرسالة كما ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ...﴾[٣] والظاهر من ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ هو نذارة الرسالة بالوحي، دون النذير الوسيط! ولم يأت النذير في سائر القرآن إلّا للرسل، بل وقد يسلب عن سائر النذر: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[٤] وقد كان في الفترة الرسالية بين المسيح عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم نذرٌ من غير الرسل!.

---

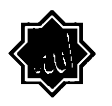
(١) سورة الفرقان، الآية: ٥١.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٩.
(٣) سورة يس، الآية: ٢٠.
(٤) سورة السجدة، الآية: ٣.

ثم و﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ دون كل شخص، تنفي ضرورة النذارة الواصلة إلى كل أحد، إلّا حاصلة فيهم كاملة، واصلة إلى أشخاص وغير واصلة!

ومن جهة أخرى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ توسيع لساحة الرسالات طول المكان وعرض الزمان، فما أنت بدعاً من الرسل! ليطمئن خاطره الشريف وينبه مكذبيه أنه نذير من النذر الأولى.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾:

تسلية لخاطر النبي الأقدس أن التكذيب من قبل المكذبين سائد في تاريخ الرسالات، وكذلك أخذ ربك للمكذبين، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[1] ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[2]!



(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾

تعديد لعديد من النعم البارزة لكل عين ناظرة وبصيرة حاضرة من سماوية وأرضية، قراءة يراعة في كتابي التكوين والتدوين، ابتداءً بكتاب التكوين، ثم ما يصدقه من كتاب التدوين، لتعم القراءة كل كتاب نازل من العزيز الحكيم:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧﴾:

﴿أَنزَلَ﴾ بمضيها تضرب إلى أعماق الماضي حين كانت الأرض محترقة عطشانة فروّاها ربها من ماء السماء، وكما تشمل مستقبل الإنزال، حيث الغني الحميد ليس ليقطع رحمة شاملة تحتاجها الأحياء في عالم الحياة.

ثم ﴿أَنزَلَ﴾ مفرداً لفردية الذات والنعمة المنزلة، وأما ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ فهي لمحة إلى جمعية الصفات في إخراج مختلف الثمرات، فالإخراج قاصد دون فوضى، فالماء الواحد والأرض الواحدة لا يخرجان - لولا مختلف التصميم - إلا ثمرة واحدة كما المكائن الخاصة!

ومن ﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ ثمرة واحدة في ألوان، كما الكثرة في ألوان، ألوان الطعوم والأشكال وألوان الألوان: سبحان العزيز المنان!

وليست الثمرات - فقط - ألوان، بل ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ أيضاً مختلف الألوان: ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ في بياضها واحمرارها ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

والجدد هي الطرائق والشعاب، بيضاً وحمراً وغرابيب سود: حالكة شديدة السواد.

فما تراه من مختلف الألوان في الثمرة تراه في الصخرة، مما يزيدك

تدليلاً على إرادة قاصدة، وإنها لفتة راصدة تهز القلوب، وتوقظ حاسة الذوق وخاصته في نظرة ناضرة تجريدية إلى جمال الكون، فإلى جمال المكون حيث يبرز كونه الوحيد من مصارح في مسارح صفاته.

ثم نتخطى الثمرات والجبال إلى مختلف الناس والدواب والأنعام:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾:

اختلاف سائد في كمِّ الكائنات وكيفها في مختلف ألوانها. ولئن قلت: إن ذلك الاختلاف هو قضية اختلاف العناصر وخصوصيات التأليف، تجد الإجابة في المادة الأمِّ الساذجة المركبة - فقط - من زوجين اثنين، فلا بد - إذاً - من تصميم قاصد في كل فصل ووصل، متفرع عن هذا الأصل: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[١].

﴿وَمِنَ ... كَذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرناه من مختلف الألوان، وفي ذلك المسرح الجميل، باختلاف الألوان، من ألوان الذرات والجزيئات والعناصر وسائر المخلَّفات المخلِّفات هذه الاختلافات.

في ذلك المسرح ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فالعلم بالله عبر آيات الله هو سبب الخشية، والجهل بالله نتيجة الغفلة والتجاهل عن آيات الله، هو سبب الغفوة الباغية.

ليس الجهل بالأسباب الكونية هو الموجب للاعتقاد بسبب غائب كما يهرفه الماديون، وإنما العلم بالأسباب هو الذي يدلنا إلى سبب الأسباب![٢].

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٤٩، ٥٠.
(٢) راجع كتابنا «حوار بين الإلهيين والماديين» ص ٢٠: ٣٠ - العلم والعلماء في فكرة الإله.

لذلك نرى القرآن يحرض العالمين إلى توسع العلم والتعقل في الكون، ولكي ﴿يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

فالقصد من ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ هنا هم العلماء بالله، الذين يستخدمون فلسفاتهم العقلية وكشوفهم العلمية لمعرفة الله، فكلما زادوا معرفة بالله زادوا خشية من الله، انقلاباً في قلوبهم إلى الله، وانقلاباً عما يصرفهم عن الله!.

أترى «إنما» حين تحصر خشية الله في «العلماء» فما ذنب الجهال إذ لم يؤتوا من العلم ما يخشون به الله؟ العلم هنا ليس ليعني - فقط - علم الصلاحات في بحوث فلسفية أم تجريبية أمّا هيه، مهما تُساعد على المعرفة إن حفظت فيها أمانة التدليل على وجود خالق المدلول والدليل.

بل هو علم الإيمان مهما كان صاحبه أمياً لم يدرس أية صلاحات، كما القرآن يربط الخشية أحياناً بالإيمان: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] وأخرى بعمل الإيمان: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[2].

لذلك ترى أن الآيات هنا وهناك هي الآفاقية والأنفسية لكل ذي بصر وبصيرة، لا تكلف دراسات عقلية أو علمية، مهما كانت تساعد قضية المعرفة مع الحفاظ على الأمانة.

فرب عالم قتله جهله، علماً بالصلاحات وتجاهلاً عن التبصر بها في المعرفيات والعلم هنا هو الحجاب الأكبر!..

ورب جاهل أحياه علمه، حيث يستخدم كافة الوسائل بمختلف الأساليب لمزيد المعرفة الإلهية، والعلم هنا يزيل الحجاب الأكبر!.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٣.
(٢) سورة النور، الآية: ٥٢.

فيا ويلاه من جهل على جهل، ظلمات بعضها فوق بعض، ويا علياه من علم على علم نور على نور؟.

﴿... كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ ﴿عَزِيزٌ﴾ يخشى ﴿غَفُورٌ﴾ لمن لا يخشى مغبة أن يخشى!.

والخشية - وهي خوف يشوبه تعظيم عن علم بما يُخشى منه - لزامها العلم قدرها، وهي حالة في القلب تجعل الخاشي خاشعاً لربه خاضعاً، في رقابة دائبة على أقواله وأفعاله وأحواله قدر معرفته بربه. يخشاه لعدله تعالى على ظلمه هو وعظمُه تعالى.

فمن لا يخشى الله ليس من العلماء مهما كان أعلمهم في الصلاحات، حتى الإلهية عقلية وعلمية، ومن يخشى الله فهو من العلماء مهما كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فميزانية العلم هي حسب ميزانية الخشية في ميزان الله! وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «العلم علمان علم في القلب فذاك العلم النافع وعلم على اللسان فتلك حجة الله على خلقه»[1] حيث يحتج به على عالمه وعلى من يسمعه من عالمه!

أما علمتم أن لله عباداً أسكنتهم خشيته من غير عي ولا بكم، إنهم لهم الفصحاء النطقاء النبلاء العلماء بأيام الله غير أنهم إذا ذكروا عظمة الله طاشت عقولهم من ذلك، وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استقاموا من ذلك سارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية، فأين أنتم منهم؟...»[2].

(١) الدر المنثور ٥: ١٥٠ - أخرج ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ: ...

(٢) الدر المنثور ٥: ١٥٠ - أخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن وهب بن منبه قال: أقبلت مع عكرمة أقود ابن عباس بعدما ذهب بصره حتى دخل المسجد الحرام فإذا قوم يمترون في حلقة لهم عند باب بني شيبة فقال: أمل بي إلى حلقة المراء فانطلقت به حتى أتاهم فسلم=

وقد سئل رسول الله ﷺ عن العالم والعابد فقال: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثم تلا هذه الآية[١] فليتزود المؤمن على ضوء فطرته وعقله وشرعته بسائر العلم، تذرعاً إلى معرفة أكثر بالله.

أجل «وما العلم بالله والعمل إلا إلفان مؤتلفان فمن عرف الله خافه وحثه الخوف على العمل بطاعة الله. وإن أرباب العلم وأتباعهم الذين عرفوا الله فعملوا له ورغبوا إليه...»[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾:

هؤلاء هم من العلماء بالله الذين يخشون الله، دون الجهال الأغفال الذين لا يتلون كتاب الله، مهما أقاموا الصلاة وأنفقوا، ودون من لا يصلون ولا ينفقون مهما تلوا كتاب الله، فإنما هو الإيمان وعمل الصالحات عن علم الكتاب تفصيلاً باجتهاد، أم إجمالاً بتقليد عن اجتهاد.

والتلاوة في حق المعني منها هي المتابعة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾[٣] فهي أعم من متابعة القراءة والاستماع، فالتدبر، فالتصديق

= عليهم فأرادوه على الجلوس فأبى عليهم وقال انتسبوا إليّ أعرفكم فانتسبوا إليه فقال: «أما علمتم»... أقول لعله رواية عن رسول الله لم يذكر أنها عنه ﷺ.

(١) المصدر أخرج عبد بن حميد عن مكحول قال سئل رسول الله ﷺ... ثم قال: إن الله وملائكته وأهل السماء وأهل الأرض والنون في البحر ليصلون على معلمي الخير.
وفي المجمع في الآية روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: يعني بالعلماء من صدق قوله فعله ومن ثم يصدق فعله قوله فليس بعالم، وفي الحديث: أعلمكم بالله أخوفكم لله.

(٢) تفسير البرهان عن الكافي بسند عن أبي حمزة الثمالي عن زين العابدين عليه السلام قال:... قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فَاطِر: ٢٨].

(٣) سورة الشمس، الآيتان: ١، ٢.

والإيمان، فالتطبيق بعمل الإيمان، إذا فـ ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ...﴾ هي من خلفيات التلاوة حقها، أفردت بالذكر لأنها هي القاعدة الأصيلة التي تتبناها التلاوة، وإلا فرب تال القرآن والقرآن يلعنه!

ثم الإنفاق هو الإفناء ألا يطالبوا به تجارة تبور، فيطلبوا به جزاءً أو شكوراً، فإنما ﴿تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ إفناءٌ في ظاهر الحال وإبقاءٌ بزيادة في باطن الحال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾.

و﴿مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ يعم كافة الأرزاق ولا سيما الروحية، من علم وأخلاق أما هيه: ﴿سِرًّا﴾ عن الناس ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ فإن لكلٍّ مجالاً يناسبه: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾(١).

﴿فَنِعِمَّا هِىَ ۖ﴾ في نفسه حيث يقتدى به فهو - إذاً - من شعائر الله ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾... ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ أنفسكم ابتغاء عن رئاء وسمعة.

﴿... إِن تُبْدُواْ ... فَنِعِمَّا هِىَ ۖ﴾ في نفسه حيث يقتدى به فهو - إذاً - من شعائر الله ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾... ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ أنفسكم ابتعاداً عن رئاء وسمعة.

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ لهولاء الأكارم، أي لمم طارىء في سبيل الله.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾:

﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كله، ثابتاً ما بقي الدهر دون نسخ ولا تحريف، مهما كان ما بين يديه حقاً لردح من الزمن، ولكنه بطل أولاً بتحريف ومن ثم بنسخ،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

فهو الترجمة الصحيحة النهائية لحقيقة الكون، والصحيفة المقروة من كتاب الكون وهو الصفحة الصامتة!

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا . . . مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من وحي، دون خليطه بغير وحي، فـ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ إنهم بحاجة إلى حق لا ينسخ ولا يحرف، وإنهم حرفوا كتابات السماء من قبل، لذلك أوحى إليك ﴿الْحَقُّ﴾ كله هدى للناس.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾:

﴿الْكِتَابَ﴾ هنا هو القرآن لسابق ذكره ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ فـ﴿ثُمَّ﴾ بعد ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ﴿أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾. . . .

فمن هو الوارث للكتاب القرآن بعد من أوحي إليه؟ أهم كل المسلمين وكما في بني إسرائيل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤)﴾[1] وقد تشمل الوارث الشاك!: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[2] كما يشمل حملة وحي الكتاب الآخرين: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[3].

وهنا ﴿أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ دون من هو في شك مريب، ولا المتوسطين في الإيمان، بل المصطفين، فميراث الكتاب هنا ميراث خاص لمن يحمله كما حمّله من أنزل عليه، وهناك عام يعم كل من

(١) سورة غافر، الآيتان: ٥٣، ٥٤.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١٤.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

حمّله!. صحيح إن ﴿عِبَادِنَا﴾ هنا يعم كافة المسلمين من أهل الجنة كما تشهد التالية: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾...(١) مقابلة لهم باهأ النار: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾....

ولكن وارث الكتاب هنا ليس ﴿عِبَادِنَا﴾ ليعم المسلمين، بل ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إذاً فهم المصطفون من المسلمين منذ إيراثه إلى يوم الدين، لا كلهم.

ولأن الاصطفاء في مصطلح القرآن ليس إلّا للمعصومين، أنبياء وسواهم من المخلصين(٢) فـ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ لا تعني إلا المعصومين بعد الرسول ﷺ من أمته، أورثوا القرآن ليحملوه كما حمله من أوحي إليه كميراث خاص.

ثم التقسيم الثلاثي لـ﴿عِبَادِنَا﴾ إلى ظالم ومقتصد وسابق بالخيرات،... دليل قاصد قاطع لا مرد له إن ليسوا داخلين في ذلك الإيراث، إلّا أن يسوّى بين «ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات» في أنهم من ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾(٣) وتلك إذاً تسوية ضيزى!

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٢) فآيات الاصطفاء بين نبي مصطفى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]. أم وملك مصطفى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].
ومعصوم غير نبي ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ...﴾ [آل عِمرَان: ٤٢] وملك عادل مصطفى ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٧] أم دين مصطفى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البَقَرَة: ١٣٢].
فأقل المصطفين في قرينة خاصة هم أعدل العدول!

(٣) الدر المنثور ٥: ٢٥١ - أخرج الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة وفيه أخرج الطبراني والبيهقي في=

فحتى ولو عمت ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ غير المعصوم، ليست لتعم المأثوم في تلك المقابلة الثلاثية الواضحة.

ثم من هذا الذي اصطفي عليه ﴿ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ وليس للظالم صفاء حتى يفضل في صفائه على سائر الأصفياء وسواهم!.

هنا الله تعالى يقتسم عباده إلى هؤلاء الثلاثة ليوضح من هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ وعلى من اصطفاهم؟

فالمسلمون بين ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات والظالم لغيره هو خارج من ﴿عِبَادِنَاۖ﴾ والمصطفى بينهم - بطبيعة الحال - ليس إلّا السابق بالخيرات، فهم مفضلون على أصحاب اليمين المقتصدين، فضلاً عن الظالمين: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾(١).

إذاً فورثة القرآن بعد نبي القرآن هم المصطفون السابقون المقربون، دون أصحاب اليمين المقتصدين، فضلاً عن الظالمين المسلمين وإن لم يكونوا من أصحاب المشأمة والداخلين في الجحيم!

ذلك المثلث البارع الرائع من مواصفات ورثة القرآن لا نجده في سائر القرآن اللّهم إلّا لنبي القرآن ثم من أورثوا القرآن من بعده.

وهنا قيد ﴿ظَالِمٞ﴾ بـ ﴿لِّنَفۡسِهِۦ﴾ لإخراج الظالمين من المسلمين

= البعث عن أسامة بن زيد في الآية قال قال رسول الله ﷺ: كلهم من هذه الأمة وكلهم في الجنة.

أقول: صحيح أن كلهم من هذه الأمة كما تلمحناه من الآيات، وكلهم من أهل الجنة على شروط الأهلية، ولكن كيف يكون هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة؟ تنزيلاً للمصطفين إلى منزلة الظالمين وترفيعاً للظالمين إلى منزلة المصطفين؟.

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧-١١.

لغيرهم، فالمعتدون منهم الطغاة على الإسلام والمسلمين ليسوا من أهل الجنة والسلام.

و﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ لا ظالم لنفسه كأصل في حياته، ولا سابق بالخيرات، بل هم عوان بين ذلك، فهم المعتدلون من أمة الإسلام عدولاً وسواهم فـ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ هم غير العدول الذين قد تنالهم الشفاعة وهم مصيرهم إلى الجنة، من أصحاب الكبائر الصالحة للشفاعة، فأما أمثال يزيد ومعاوية الطاغية وأضرابهم من طغاة هذه الأمة، فخارجون عن هذا التقسيم، داخلون مع الذين كفروا في الجحيم، فـ«الظالم يحوم حوم نفسه، والمقتصد يحوم حوم قلبه، والسابق بالخيرات يحوم حوم ربه»[(١)].

فورثة القرآن العظيم علماً وعملاً وتطبيقاً هم المصطفون السابقون المقربون، فوق المقتصدين العدول فضلاً عن الظالمين! ومن ذا الذي يدعي ذلك الاصطفاء العاصم، المعصوم أهله من كل رين وشين! أهم الخلفاء الثلاثة، المعترف بكثير أخطائهم وخلافاتهم وتخلفاتهم بين أتباعهم؟

أم هم الأئمة الأربعة ومن يحذو محذاهم، المختلفين - في أقل تقدير - في تفهم الكتاب والسنة، والمتخلفين أحياناً عن نص الكتاب والسنة.

أم هم الأئمة الاثنا عشر الذين لم يختلفوا فيما بينهم، ولم يتخلفوا قيد

---

(١) في معاني الأخبار مسنداً عن الصادق عليه السلام قال: . . وفي الدر المنثور ٥: ٢٥١ - أخرج جماعة عن أبي الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ. . .﴾ [فَاطِر: ٣٢] فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلقاهم الله برحمته فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. . .﴾ [فَاطِر: ٣٤].

أقول وقد تظافر مثله في نفس المصدر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو المستفاد من الآية كما بيناه.

وفيه عن ابن مردويه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فَاطِر: ٣٢] قال: الكافر وهو خلاف ظاهر الآية كما بيناه.

شعرة عن الكتاب والسنة، وهم الثقل الأصغر بعد الكتاب - الأكبر؟! وهنا نجد تجاوباً فيهم بين الكتاب والسنة القدسية المحمدية ﷺ [(١)].

وهنا ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يخص ﴿سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ إذا تكوينياً وشرعياً لسبقهم سائر الخيِّرين في الخيرات وهو العصمة القمة المتعالية، دون ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ حيث الظلم غير مأذون في تشريع ولا تكوين، وكذلك ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ فإن الله لا يقتصر من عباده بالاقتصاد في معرفته وطاعته!

فإذنه تعالى للسابق بالخيرات هو إرادة التطهير وكما في آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(٢)].

هنا «بإذنه» وكما في الدعوة الرسالية: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[(٣)] ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[(٤)] كما و﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[(٥)].

---

(١) في تفسير البرهان ٣: ٣٦٣ عن ابن بابويه القمي بسند عن الريان بن الصلت قال: حضر الرضا عليه السلام مجلس المأمون بمرو وقد اجتمع إليه في مجلسه جماعة من أهل العراق وخراسان فقال المأمون أخبرني عن معنى هذه الآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ...﴾ [فَاطِر: ٣٢]؟ فقال العلماء: أراد الله عز وجل الأمة، فقال المأمون: ما تقول يا أبا الحسن عليه السلام فقال الرضا عليه السلام: لا أقول كما قالوا ولكن أقول: أراد العترة الطاهرة، فقال المأمون: وكيف أراد العترة الطاهرة؟ فقال له الرضا عليه السلام: لو أراد الأمة لكانت بأجمعها في الجنة لقول الله تبارك وتعالى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فَاطِر: ٣٢] ثم جمعهم كلهم في الجنة فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا...﴾ [الرّعد: ٢٣] فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم، فقال المأمون: من العترة الطاهرة؟ فقال الرضا عليه السلام: الذين وصفهم في كتابه فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزَاب: ٣٣] وهم الذين قال رسول الله ﷺ: إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض انظروا كيف تخلفوني فيهما، أيها الناس لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣. (٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٥) سورة يونس، الآية: ٣.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾[(١)].

فهنالك للمصطفين السابقين إذن يخصهم، تكويناً في عصمة وتشريعاً في ولاية شرعية، لا يعم سواهم فكما ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[(٢)] كذلك ورثة الكتاب طاعتهم مفروضة على من سواهم: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[(٣)] الذين وُلّوا وراثة الكتاب بعد وحيه إلى الرسول، فولوا أزمَّة أمور المسلمين كما وُلّي!

ولأن ﴿سَابِقٌۢ﴾ مطلق غير محدد، فسبقهم - إذاً - مطلق غير محدد، فهم السابقون على كافة المصطفين على مر الزمن في الاصطفاءات، اللهم إلّا من أوحي إليه القرآن!.

ولأن «الخيرات» جمعاً محلّى باللام تعم كافة الخيرات عِدّة وعُدّة، فهي الخيرات المعرفية والعقائدية والعملية. أما هيه، المعنية من ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ المسبوقة بـ«إنما» الحاصرة فيهم قمة العصمة الإلهية.

وليس السبق هنا زمنياً - إذ ليس له فضل على اللّاحق الأفضل، بل هو سبق في الرتبة، كما الرسول في كونه ﴿أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[(٤)] مهما سبق في علم الله وتقديره سبقهم هذا!.

فهؤلاء الأكارم الذين أورثوا الكتاب بعد الرسول ﷺ سبقوا بعده كافة السابقين في ميادين الخيرات ومسارحها، فلذلك يفضَّلون على سائر النبيين في سابق الخيرات طول الزمان وعرض المكان!.

ترى ولماذا يتقدم في هذا العرض العريض ظالم لنفسه على مقتصد وهما

---

(١) سورة الحج، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٨١.

على سابق بالخيرات، والأخير متقدم في ناصية الآية ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾. . . ؟

إنه بيان لطرف الاصطفاء، تقديماً للاكثر أفراداً ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ حيث تربو سيئاته لنفسه على حسناته ثم ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ قد تتعادل سيئاته وحسناته، ثم ﴿سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ المصطفين من بينهم إذ ليست لهم سيئات!

و﴿ذَٰلِكَ﴾ الوحي للرسول، ثم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإيراث لأهل بيت الرسول ﷺ ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إذ لا يساوى ولا يسامى في تاريخ الوحي والرسالات والوراثات.

فحصالة البحث عن آية الوراثة إن ﴿عِبَادِنَا﴾ هنا هم أصحاب الجنة من المسلمين في درجاتهم الثلاث أدناها ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ دون من يظلم دين الله ويظلم عباد الله، فهم هنا غير موعودين بالجنة، مهما دخلوها بعد حسابات وعقابات أم لم يدخلوها، كما ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ يلمح بمدى ظلم الظالم لنفسه، وخروج الظالم لغيره، حيث العفو عنه ظلم بغيره. !

فليس ﴿عِبَادِنَا﴾ هنا كافة المكلفين، ولا كل المسلمين، وإنما المسلمون الذين مصيرهم إلى الجنة.

والمقتصد هو المعتدل المتعادل في حياته، لا ظالم لنفسه حيث يتبنى حياة العدل مهما ابتلي بلمم، والسابق بالخيرات هم الرعيل الأعلى من المقربين المعصومين من أمة محمد ﷺ وهم الأئمة الاثنا عشر سلام الله عليهم أجمعين.

فهم ورثة الكتاب روحياً في ولاية مطلقة شرعية، وآخرهم القائم منهم يرث الكتاب زمنياً وروحياً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[1]!

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ١٠٥-١٠٧.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾:

علّ حق الفاعل في ﴿يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ﴾ هم الوارثون للكتاب المصطفون، فإنهم سابق الكلام ومحوره وإنهم ﴿سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾!

ثم المقتصد الحزين بما قصر أو قصّر: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ ثم ﴿ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

فـ ﴿وَقَالُوا﴾ - إلى - ﴿شَكُورٌ﴾ لا تناسب ساحة السابقين بالخيرات فلا ذنب لهم حتى يغفر، ولا حزن حتى يذهب فإنهم من أفضل من ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١)!

ثم ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾... يناسب الطوائف الثلاث أجمع، حيث الجنة - فقط - هي من فضل الله كما النار هي من عدل الله.

ويحلّون من التحلية: التزيين، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ أعجمية من دستواره وهي زينة الأيدي، واللؤلؤ معروف كما الحرير و﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ هي دار الخلود التي لا حول عنها ولا خروج، والنصب: التعب في جوها، واللغوب هي التعب في طلب الحاجة فيها، خلاف الحياة الدنيا التي هي تعب على تعب، ولغب على نصب.

ويا له من مشهد حنون، فالجو كله يسر وراحة، حتى الجو الموسيقي لجرس الألفاظ كله هادئ ناعم رتيب حتى الحَزَن بدل الحُزن، فضلاً عن ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾... وإلى صفحة أخرى من مسرح الحساب:

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٢.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا هم الخالدون المؤبدون في النار إذ لا ﴿يُخَفَّفُ عَنْهُم﴾ والخروج عن النار من التخفيف فأين الظالمون لغيرهم مسلمين أم كفاراً غير مؤبّدين؟ لا نجد لهم هنا ذكراً ولا هناك قضية التفصيل في موارده وهنا موقع الإجمال!

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ تحصر حظهم فيها، فلا خروج لهم عنها، إذاً فهم أصول الكفر متبوعين واتباعاً كما يلمح له «كل كفور»: غليظ الكفر وحضيضه، دون المزيج الكفر بإيمان، فإن له نصيباً من الرحمة.

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ في النار، دون أصل الموت ولو مع النار، فإن قضية العدل نهاية العذاب كنهاية الاستحقاق، وأنهى النهاية للعذاب أن يموت المؤبدون مع النار، فلا نار - إذاً - ولا أهل نار!: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾(١) في النار - وطبعاً - ما دامت النار.

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ تخفيفاً في زمن العذاب أن يموتوا قبل تمامة أم يخرجوا، أم تخفيفاً في قدره وهم في النار، أن يتعودوا العذاب، فإنه أشكال متلاحقة فلا تعوُّد فيه يخفف به، و﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ بالغ في الكفر نهايته، فهو بالغ في العذاب نهايته جزاءً وفاقاً.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ بصوت غليظ مختلط الأصداء، متناوح من شتى الدركات ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وترى أن

(١) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

﴿صَـٰلِحًا﴾ لا يصلح تصريحاً لـ ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾؟ أجل! فلكي يزيحوا كل شبهة عن أمرهم يفسرون ﴿صَـٰلِحًا﴾ بـ ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ لكي لا يفسر صالحهم هذا بما كانوا يرونه صالحاً ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1]!

لا! وإنما صالحاً في الحق، يختلف عن كل صالح في زعمنا وكل طالح في واقعنا فنصبح من الصالحين حقاً!

﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[2] وهنا الجواب الحاسم يحمل تنديداً صارماً صارخاً بالمصطرخين في الجحيم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾...؟

وهنا الواو تقتضي معطوفاً عليه محذوفاً مثل «ألم نذكركم بكل حجة صارحة وبينة صارخة» ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾...؟ فقاطع العذر ليس إلا أمران اثنان: ﴿نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ فإن جاء النذير ولم يفسح مجالاً للتفكير كمن عاش حين النذارة ساعات أو أياماً لا تكفي للتذكير، فقد أعذر.

أم عاش حياة الذكر ولم يأته نذير فقد أعذر فضلاً عمن فقد النذير وفسحة التذكير فهو أعذر وأعذرا!.

وعلى هذا الأساس فكلما كانت النذارة أقوى وفرصة التذكر أكثر وأندى، فالعذاب أوفر وأشجى، وكلما كان قاطع العذر أضعف فالعذاب أخف أم يعفى عنه كما في ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ... لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[3].

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩٨.

فمن عاش جو الغفلة والتغافل، بمظاهر الشهوات وجواذب النزوات يخفف عنه حسب خفة الحجة، ومن عاش جو الذكرى بمديد العمر ولم يتذكر فلا يخفف عنه العذاب.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ المكلف العاقل كـ«من تذكر» من المؤمنين ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ زيادة للتذكير ﴿فَذُوقُوا﴾ عذاب السعير «فما للظالمين بحق الله وخلقه من نصير»[1].

هناك «عبادنا» في أقسامهم الثلاثة، وهنا ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنا وبعبادتنا لحد «الكفور» وبينهما عوان لم يذكروا، وإنهما صورتان متقابلتان، فهناك مسرح لكل عناية وتبجيل، وهنا كل نكاية وتخجيل، وكل ذلك بعلم الملك الجليل:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)﴾:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[2] علم شامل دقيق لطيف، يحيط بكتابي التكوين والتدوين وما في الصدور وتحتاجه الصدور، وبذلك العلم الشامل يجري كل الأمور.



(١) تفسير البرهان ٣: ٣٦٦ - ابن بابويه عن أبيه عن سعد بن عبد الله عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي بإسناده رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم...﴾ [فَاطِر: ٣٧] توبيخ لابن ثماني عشرة سنة أقول وعلّه أوّل توبيخ قارع حيث مضت عليه سنون ثلاث، وليس هذا القدر كضابطة، فقد لا يوجد ظرف الذكرى في ثلاثين وقد يوجد في يوم واحد، وهذا الحديث ناظر إلى الحالة الأكثرية في جو الذكرى.

وفيه بسند له عن أبي بصير قال قال الصادق عليه السلام: «إن العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة وإذا بلغ أربعين سنة أوحى الله إلى ملكيه أني قد عمرت عبدي عمراً فغلظا وشددا وتحفظا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره».

(٢) سورة غافر، الآية: ١٩.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ :

هذه أشمل آية في خلافة الأرض للإنسان، تعم خلافة هذا النسل بأجمعه عمن سلفه وانقرض، حيث تعني «كم» هذا النسل كله، خطاباً على وجه القضية الحقيقية، دون الخارجية الخاصة بالموجودين زمن الخطاب، وكما تلمحناه من آية الخلافة الأولى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١].

كما وتعني - فما تعنيه - خلافة كل قرن من هذا النسل قروناً مضت، وهنا تخص الخطاب ما سوى القرن الأول البادي لهذا النسل - وهو داخل في الخطاب الأول.

وكما للخلافة الأولى دلالة من آية البقرة كنص، وأخرى من هذه كمطلق ظاهر وفي الأنعام ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[٢] كذلك للثانية آيات عدة[٣].

ثم وهامة هذه الخلافات هي الأخيرة، المحلقة على كافة بني الإنسان طول الزمان وعرض المكان، زمن القائم المهدي من آل محمد ﷺ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[٤]!

وإنها خلافة عامة إسلامية سليمة تختلف عن كافة الخلافات، حيث تطبق شرعة الله على أرض الله، اللّهم عجل فرجه وسهل مخرجه واجعلنا من أنصاره وأعوانه.

وإن في تتابع الأجيال تلو بعض، بانتهاء جيل وابتداء آخر، وانتهاء دولة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.
(٣) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ [يونس: ٧٣] ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧٤].
(٤) سورة النمل، الآية: ٦٢.

وقيام أخرى، بانطفاء شعلة واتقاد أخرى، إن في ذلك لآية لمن ألقى السمع وهو شهيد، إن لكل بداية نهاية، فليستعد عاقل لكي يخلِّد نفسه بعد النهاية، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]!

ومن شأن السائح في هذه الرحلة المتعاقبة المتخالفة أن يحسن ثواءه القليل ويترك وراءه الذكر الجميل. وإن عجلة القرون المتتابعة سارعة متصارعة، دون أن يحمل أهلوها إلّا التبعية الفردية ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ في أولاه وعقباه ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ مهما يزيدهم عند أنفسهم في الشهوات خبطاً.

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ عن ذلك المقت الناتج عن ذلك الكفر!

إن مقت ربهم في نفسه خسارة عليهم، فلأنهم ليسوا - هنا - ليشعروا مدى خساره، فليثنَّ بصراح الخسار.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾:

﴿... أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ فضلاً عن شركٍ في السماء، فكيف - إذاً - هم آلهة وليس لهم شركٌ في خلق لا في الأرض ولا في السماء، فإنهم ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[2]!

ألهم شرك؟ فأروني ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ﴾ أولاء المشركين ﴿كِتَابًا﴾ فيه سماح

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٣.

للإشراك ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ﴾ فأروني؟ كلا! فلا واقع للشرك لا ملموساً برؤية، ولا وارداً برواية من كتاب وحي ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا﴾ فيما يشركون ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ إذ لا يملكون حجة فيما يعدون ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾!

وإذ ليس هنالك كتاب من الله يسمح بذلك الإشراك، ولا كتاب من الشركاء لرسلهم، فيه دعوة إليهم، فهذه ألوهة فاضحة فاضية، وليست إلا غروراً!

كلّا! ليس هنا أو هناك شرك ولا من قطمير في سماء أم في أرض، بل:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾:

هذه! ولا ثانية لها إلا في الحج: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وإمساك السماوات والأرض أن تزولا، يعم زوال الفناء، وزوال السماوات وقوعاً على الأرض، وزوال الأرض سقوطاً إلى عمق السماء، وزوال كلٍّ وقوعاً لأكنافها بعضاً إلى بعض أما ذا من زوال؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ لا سواه ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ عن كل زوال عن حالتهما العامرة ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ ألا يمسكهما الله وكفى ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ مسكة بعد الوقوع أم اشرافه، فهو الممسك لهما وهو المزيل، كما هو الخالق لهما دون أي بديل.

وصحيح أن ذلك الإمساك في كافة جنباته ليس إلّا بقدرته الخلاقة،

(١) سورة الحج، الآية: ٦٥.

ولكنه عالم الأسباب، يتطلب منه سبباً في ذلك الإمساك، وعلّه عمد لا ترونها: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾[1] إذاً فثُمَّ عَمَد ولكن لا ترونها، من عمد القوة الجاذبية أمّاهيه؟

إنه ليست السماوات والأرض - وهما الكون كله - كبناء يبنى فيبقى متماسكاً ما له مُسكة في أجزائه، إذ لا مسكة ذاتياً في أجزاء الكون، لا في كونه ولا كيانه، إذ ليس إلّا فقراً إلى الله، فبمجرد تركه تعالى إمساكاً لِكائن في أية جهة، فهو زائل من تلك الجهة دونما حاجة إلى إزالة.

فكما لا يملك أي كائن قبل تكونه شيئاً من كونه وكيانه، فهو الآن - بعد خلقه - كما كان، دون أية غنى واستقلالية عن خالقه ولا قيد شعرة في آن من الأوان! سبحان الملك المنان!.

فالإمساك عن الزوال هو عبارة أخرى عن الإيجاد بعد الإيجاد، استمرارية للكائن بعد تكوينه الأوّل، كوناً أو كياناً، فما كان إمساكه للكون فالكون كائن، فإذا زال زال، زوالاً على قدر زوال!.

فنظرة ناظرة إلى ناضرة السماوات والأرض، أنهما لا تقومان - في ظاهر الحال - بعمد، ولا تشدان بأمراس، جديرة بأن تفتح البصيرة على اليد الخفية الحفية، القاهرة القادرة، التي تمسكها عن أي زوال!

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢﴾:

يُروى أنه يبلغ قريشاً قبل جيئة هذا الرسول ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم رسلهم فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾!

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.

وهذا الوجه قد يقرّب لسابق ذكر المشركين، وقد يبعّد لأن قريشاً كانوا قوماً ليست لهم سابقة الإنذار حتى يستقبلوا منذراً برحابة صدر، وقسماً بالله وهم مشركون!

إذاً فهم أهل الكتاب: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] وبطبيعة الحال كفر الكتابي - ولا سيما في زيادة النفور - إنه أضل وأنكى.

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ هو مدى الطاقة والمشقة منها أن بالغوا وغلظوا في مختلف أيمانهم ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ من النذر وقد ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ فهم له منتظرون ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ﴾ لسابق الأنس بوحي الكتاب، وسابغ البشارات بهذا النذير ﴿. . . أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ ولماذا إحداهم؟ لا «كل الأمم» لأنهم أنفسهم الأمم الكتابية، والمشركون هم إحدى الأمم، إذاً فهم المشركون، دون اليهود والنصارى، إذ ليسوا هم بإحدى الأمم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ وتباعداً وهروباً، ولماذا ذلك النفور بعد جهد الأيمان وذلك الاستفتاح؟.

وقد تعني ﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾ كليهما، مهما كان أهل الكتاب أصّلاء في ذلك المكر السيّىء والمشركون فروعهم!.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

وإنه لقبيح ما أقبحه، ومكر سيّئ ما أمكره، إنهم بعد ما استفتحوا على المشركين وأقسموا بالله جهد أيمانهم: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ فإنه مادة أصيلة

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

لضلال المشركين، أن لو كان خيراً لسبقونا إليه لسابق الوحي الكتابي لهم، وسابغ إيمانهم!

ولم يكن ذلك النفور الزائد إلّا ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كيف يأتيهم نبيٌّ إسماعيلي ويهدم صرح النبوة الإسرائيلية، ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ فالسيئ قد يسيءُ دون مكر فيجتنبه المتحري عن الحق، ولكنه إذا مكر فواويلاه للبعيدين عن الحق، حيث يتخذون ذلك المكر حجة على الحق، فهو - إذاً - المكر السيّء من ماكر سيّئ، وهل يحيق المكر السيّىء بغير أهله، من الله أو الرسول أو المؤمنين اليَقِظين؟ كلّا!

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾: ماكراً وممكوراً، فمن لا يَمكر ولا يُمكر لا يحيق به المكر السيّىء، فإن المؤمن هو الكيس الفطن، لا يحار ولا يغار مهما كان المكر محيراً مغيراً![1].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ انتظاراً، بعد ذلك المكر السيّىء ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من مكذبي النبيين، سنة الله في إهلاكهم واستئصالهم؟ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أن يجريها في الغابرين، ويستثنيها عن الحاضرين، فلا قرابة ولا نسبة لهم إلى ربهم يفقدها الأولون!

فالنواميس الإلهية والسنن الربانية مطردة ماضية، مستقبلة وحاضرة وماضية، دون تبديل بغيرها، ولا تحويل لها إلى غير أهلها فـ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾! ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

لقد سن الله سنة تكوينية لكل من الحُسن والسوء، والحَسَن والسيِّىء في النشأتين، كضابطة سارية المفعول ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ إلى غيرها،

---

(١) الدر المنثور عن النبي ﷺ قال: إياكم والمكر السيّىء فإنه لا يحيق المكر السيّىء إلا بأهله ولهم من الله طالب.

(٢) سورة غافر، الآية: ٨٥.

ثواباً إلى عقاب أم عقاباً إلى ثواب ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ من أهلها إلى غير أهلها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1]!.

إن القرآن يقرر هذه الحقيقة حقها جهاراً وتكراراً لكي لا ينظروا إلى الأحداث فرادى أم هي فوضى، عائشين الصُّدف والفوضويات، وإنما هناك سنن ثابتة مطردة و﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2]!

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾:

وإذا لم يذكروا بما جاءهم من نذير فكذبوهم بكل نفير ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في تاريخها الجغرافي وجغرافيا التاريخي ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ بصراً وبصيرة أحوال الماضين ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في تكذيبهم رسلهم «و» قد كانوا ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ في أموال وأولاد ومادية الأحوال ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ حتى ولو كانوا - هم - أقوى من الذين من قبلهم وهم أضعف منهم ﴿...مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ كيف يعاملهم «قديراً» بما ينتقم منهم.

فالأرض بأكنافها الواقعية والتاريخية كتاب مفتوح... لكل سائر فيها، وهي من الآيات الآفاقية القريبة إلينا فلماذا التغافل عنها؟ ثم وأرض القرآن أصدق عرض لتأريخ الغابرين[3] تجاوباً رائعاً بين أرضي التدوين والتكوين في ذلك العرض المتين!

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.
(٣) تفسير البرهان ٣: ٣٦٧ - القمي عن الكليني بسند عن أبي الربيع الشامي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿قُلْ سِيرُوا۟...﴾ [الأنعام: ١١] فقال: عنى بذلك انظروا في القرآن فاعلموا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم وما أخبركم.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1].

﴿وَلَوْ﴾ عرض لواقع استحقاق عذاب الظالمين ومداه، ﴿يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا - بظلمهم﴾ مؤاخذ العقاب، لا - فقط - العقاب، فإنه مِلْءُ الكتاب، فلو جعل الله دار العمل هي دار الجزاء ﴿مَا تَرَكَ﴾....

وترى هؤلاء الظالمون يؤاخذون فما بال غير الظالمين من الناس وما بال سائر الدواب على ظهر الأرض؟!

إنه بالنسبة لغير الظالمين فتنة غير عذاب، ولهم عذاب فوق عذاب: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[2].

ثم هو بالنسبة للدواب على ظهرها لا فتنة لها ولا عذاب، وإنما عذاب للظالمين حيث يفقدون منافع لهم منها كما يفقدون أنفسهم، حيث الأرض بما فيها مخلوق لهم: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[3].

ففي آيتي الفاطر والبقرة تَجاوبٌ لطيف حفيف، عرضاً للأرض بما فيها لاستثمار إنسان الأرض كما يرضاه الله ويصلح حيوية إنسانية تضم سائر مصالح الإنسان دنيوية وأخروية.

ثم وآية الفاطر والنحل تتجاوبان في ضخامة الظلم والطغيان للإنسان، أن لو يؤاخذهم الله بظلمهم وما كسبوا لما ترك على ظهرها من دابة، فإنه

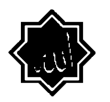
(١) سورة النحل، الآية: ٦١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

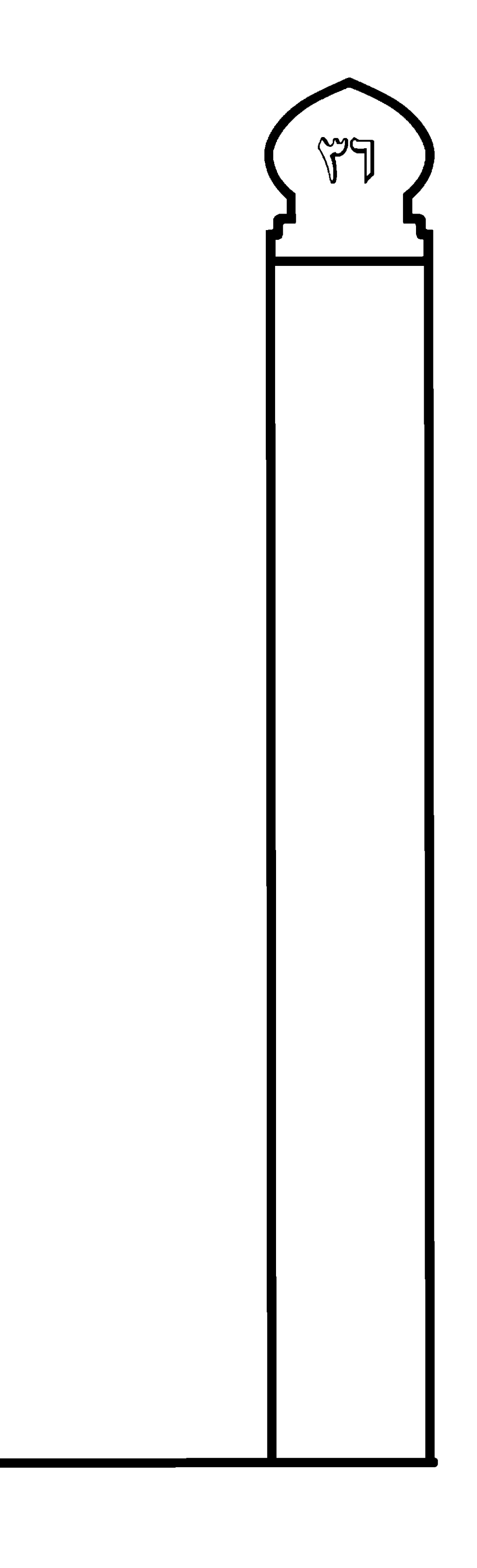
عذاب شديد يعم الأرض ويطمُّها، ويقلِّبها ظهر بطن، وذلك هو طبيعة العذاب والدار واحدة، ولكن أرض الجنة والنار متباعدتان!

ولكنه ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ حيث الدنيا دار عمل ولا جزاء، وأنَّ في استئصال غير الظالمين وسائر الدواب ظلماً وما الله يريد ظلماً للعباد!

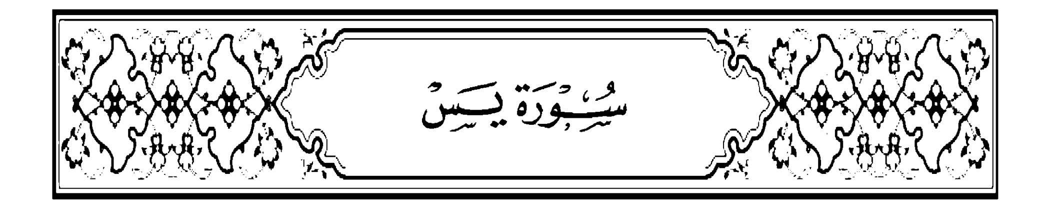
لذلك تراه يبدأ بـ ﴿وَلَوْ﴾ تأشيراً بشيراً بالامتناع، ثم نذيراً بمستقبل العذاب ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو القيامة الكبرى ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ الظالم منهم والمظلوم، ثم يُجزون بما كانوا يعملون!

وهذا هو الإيقاع الأخير، البشير النذير، في هذه السورة بنهاية الحياة والحياة النهاية، وكما بدأ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾... حيث يحملون رسالات السماء تذكيراً لسكنة الأرض، وبين المبدأ والختام تلك المسارح المصارح من حوار وحجاج، وسير في الآفاق والأنفس ولكي يعرفوا المبدأ والختام.





سُورَة يسٓ



مكية وآياتها ثلاث وثمانون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ (١) وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٤) تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ (٦) لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ (٨) وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ (٩) وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ (١٢)﴾

سورة تُبتنى من تفاصيل الأصول الثلاثة ما تميِّزها في حقولها عن سائر السور التي تحويها، مبتدئة بدعامتي هذه الرسالة السامية: القرآن ونبيِّ القرآن، ثم المبدأ، ومن ثم المعاد، حيث الأوليان تعرِّفان الرسالة وتبينان أصلي المبدأ والمعاد.

ولأن هذه الأصول هي القرآن كله، وهي قلب القرآن وريحانته، إذاً

فياسين هي القرآن كله[١] وهي قلب القرآن[٢] وريحانته[٣] بل هي قلب القلب[٤] حيث القرآن قلب الكتب كلها!

وإنها ذات الفواصل القصيرة، والإيقاعات السريعة اليسيرة، ملتحمة بملاحم عميقة الإيحاء من براهين بارعة في مختلف الحقول، تدق على الفِطَر والحواس والعقول دقّات متوالية متعالية، تعمل على مضاعفات آثارها في أعماق الضمائر والألباب.

﴿يسٓ ①﴾:

هي من الحروف المقطعة - وعلى حدِّ تعبير الأمير عليه السلام: «من مفاتيح كنوز القرآن» المغيَّبة عن غير أهل بيت القرآن، ولكنها من بينها قد تلمح إلى معناها، وتلمح فيها مغزاها، فـ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تلمح لذكر سابق عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولم يسبق إلّا «يس» إذاً فهي نداءٌ للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بيائها، وتسمية له صلى الله عليه وآله وسلم بحرفٍ من صفة الرسالة، السابقة عليها، المعبِّدة الطريق إليها، كـ«السامع الوحي»[٥] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ واقع موقع البرهان على سماع الوحي النبوءة وبث الوحي الرسالة، وإن كانت في صيغة الحلف.

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٢٥٦ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لكل شيء قلب وقلب القرآن يس ومن قرأ يس فكأنما قرأ القرآن عشر مرات، وفي ثواب الأعمال بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام مثله إلا في ذيله.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تفسير البرهان ٤ : ٣ في مجالس الشيخ بإسناده قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: علموا أولادكم يس فإنها ريحانة القرآن.

(٤) الدر المنثور عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن لكل شيء قلباً وقلب القلب يس.

(٥) البرهان ٤ : ٣ - ابن بابويه بسند متصل عن سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه السلام قال له يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما معنى قول الله عز وجل : يس؟ قال: اسم من أسماء النبي ومعناه أيها السامع الوحي، أقول واحتمال أنه «يا إنسان» عن ابن عباس، أم «يا رجل» عن الحسن وأبي العالية، أم «يا محمد» عن سعيد بن جبير ومحمد بن ضغنة أم «يا سيد» لا دليل عليه ولا سيما الذي ليس فيه «سين» حتى تكون إشارة إليه.

فكما أن «ن» اسم من أسمائه وعلها اختصار عن نبوته، كذلك «س» عن سماعه الوحي[١] وقد تفترقان أن الأولى مقسم بها والثانية منادى، مهما تشتركان في إشارة النبوءة وسماع الوحي! فهو بكيانه ككل، بقلبه وسمعه سماعٌ واستذاعة للوحي ومن ثم إذاعة له، وهما في أفضل مراتبهما وأكملهما.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾:

هي في صورة الحلْف وسيرة البرهان، وكما هي السنة الدائبة في أحلاف القرآن، فالقرآن بحكمته البارعة أدبياً بأعلى قمم الفصاحة والبلاغة، ومعنوياً بأرقى درجات اللباقة، يكفي شاهد صدق على رسالة من جاء به: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

دليل واحد حكيم بين مدلولين اثنين، بين سين رمزاً إلى سماع الوحي النبوءة و﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في تصريحة الرسالة على صراطٍ مستقيم، فحكمة القرآن في بيانه وتبيانه قد سدَّت دونه ثغرات واحتمالات أنه من عند غير الله، فمهما بلغ الكلام من غير الله إلى مطلق الحكمة، ليس ليبلغ إلى حكمة مطلقة دون أية هفوة وثغرة، حيث الكمال القمة اللَّانهائية هي التي تقتضي الحكمة القمة، فكل درجة من حكمة الكلام دليل على نفس الدرجة من حكمة المتكلم حتى تبلغ إلى الدرجة القمة التي لا تدانيها حكمة، فهي - إذاً - من حكمة الله لا سواه، حكمة ملأت قلب الرسول نبوءَة: ﴿يسٓ﴾ ثم تخطَّته إلى العالمين رسالة في أعلى درجاتها: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾.

فالقرآن حكيم لا مدخل فيه بأية شعرة في مثلث الزمان من أي إنس

---

(١) نور الثقلين ٤: ٣٧٤ ج ١٠ في كتاب الخصال عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشرة أسماء خمسة في القرآن وخمسة ليست في القرآن فأما التي في القرآن فمحمد وأحمد وعبد الله ويس، أقول ومنها في القرآن ﴿طه﴾ [طه: ١] كأنها ساقطة من قلم الناسخ.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

وجان، وفي أي حقل من حقوله المتمازجة على مختلف أبعادها، حيث تحلّق على كل العلوم في كل أبعاد الزمان، لا عِوجَ فيه ولا ريب يعتريه، فلا انفصام لعروته نورٌ لا تطفأ مصابيحه وسراج لا يخبؤ توقّدُه، وبحر لا يُدرك قعره، ومنهاج لا يضلُّ نَهْجُه، وشعاع لا يُظلم ضوؤه، وفرقان لا يُخمد برهانه، وتبيانٌ لا تُهدم أركانه... حبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته...[1].

وما أحسنه برهاناً حكمة القرآن، توجيهاً إليها بصورة الحلف، ولكي يعيش الناس تدبراً فيه وإمعاناً في ألفاظه ومعانيه، دون أن يوضِّح جنباتِ حكمته فلا تتحرك العقول، فتبوء إلى عُطالة دون حِراك!

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾:

رسالة عليا، على صراط مستقيم أعلى، حيث الحكمة القرآنية أعلى الحِكَم فلا أعلى منه ولا تدانيها حكمة، فالصراط المستقيم الذي لا عوج له هو طبيعته وماهيته.

إنه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في «الصورة الإنسانية»[2] والعبودية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[3] والإيمان والاعتصام بالله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[4] ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5] ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[6].

---

(١) من خطب الإمام أمير المؤمنين في النهج ١٩٣ ص ٣٠٢.
(٢) تفسير الصافي عن الإمام الصادق عليه السلام.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥١.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٧٥.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.

ولأنه مليءٌ من الصراط المستقيم فـ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(١)] هداية أصيلة بالكتاب: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ . . . وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[(٢)] وأخرى هامشية بسنته القاطعة: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[(٣)] ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[(٤)].

فهو ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في شخصه ورسالته، في الصورة الإنسانية، وصراط العبودية والإيمان، والاعتصام بالله، وفي هدي كتاب الله، وفي رسالته، وإسلامه، وتوحيده لله، سبعة كاملة بأفضل درجاتها، منقطعة النظير بين كل بشير ونذير في ملإ العالمين من الملائكة والجنة والناس أجمعين[(٥)].

﴿إِنَّكَ . . . عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ في بعدين فإن لم يستقم البعد الأوّل من الصراط لم يستقم الثاني: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[(٦)] فقد كان الرسول على صراط الإنسانية المستقيم، وصراط العبودية حتى اصطفاه الله على صراط مستقيم من الوحي والرسالة والنبوة بأكمل درجاتها[(٧)].

وقد يعني ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ - إلى جانب قرآن محمد - محمد القرآن لأنه تجسيد لحكمة القرآن وأحكامه ومعارفه، وقد كان خُلُقه القرآن[(٨)] فهو الثقلان مهما كان القرآن أكبر الثقلين، فهو عقله وقلبه القرآن الحكيم بما فيها

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٥) راجع تفسير الآية ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ج ١ الفرقان.
(٦) سورة يونس، الآية: ٣٥.
(٧) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ٤] على الأول خبر ثان وعلى الثاني متعلق بالمرسلين.
(٨) وكما سئل ابن عباس ما كان خلق النبي ﷺ قال: كان خلقه القرآن.

من تفاصيل المعارف الإلهية، ما يحتاجه ويحتاجه العالمون أجمعون إلى يوم الدين.

وقد يتأيّد بما يأتي من إجابة المرسلين: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[١] حيث استندوا لإثبات رسالتهم بظاهر التربية الخاصة الرسالية فيهم.

وأوضح من ذلك آية ثانية في يس: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[٢] فالرسول ﷺ هو القرآن المبين كما القرآن مبين، بل هو أبين لأنه يجسِّده بكل مظاهره، ويفسره بسنته.

فالقرآن دون الرسول كما الرسول دون القرآن جناح واحد في الدعوة ينقص ثانية، المحلَّق بهما في أجواء الهداية الكاملة.

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾:

ولأنه تنزيل العزيز فهو عزيز: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[٣] عزيز لا يُغلب بنسخ أو تحريف، أو تحوير وتجديف، وفي ﴿تَنْزِيلَ﴾ مصدراً منصوباً إشارتان إلى عظم موقف القرآن، فلا يوصف بالتنزيل إذ هو فوق الوصف الذي ليس لزاماً لموصوفه[٤]، والتنزيل لزام القرآن وكيانه، ليس له وراء ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ موقف حتى يوصف به، إذاً فالوصف هنا هو الموصوف، والموصوف هو الوصف دون فارق!

ثم المصدر دليل ثان على ذلك الكيان المجيد للقرآن، إنه من عزة الله ورحمته المنزلة على خلقه، فلا يحمل كياناً إلَّا ربوبياً في أعلى مظاهره.

---

(١) سورة يس، الآية: ١٦.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٩.

(٣) سورة فصلت، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(٤) فإن تنزيل منصوب إما على الاختصاص أو على المدح أو أنه مفعول أعني.

وقد يعني ﴿تَنزِيلَ﴾ نبي القرآن مع القرآن فإنه منْزَل ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾[1] ومنزَّل حيث الدرجات المتتالية منزلَّة عليه من العزيز الحكيم منذ كان فطيماً حتى بلوغه وحتى رسالته وإلى قضاء نحبه.

فمحمد القرآن وقرآن محمد هما تنزيل العزيز الرحيم، كما هما على صراط مستقيم، وكما يحملان مع بعض، هذه الرسالة القمة دون فكاك.

ولأنه تنزيل الرحيم فهو كتاب رحيم يعم برحمته وكما رسوله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[2].

كتابٌ عزيزٌ رحيم، تنزيل العزيز الرحيم على رسول عزيز رحيم، عزة في التنذير ورحمة في التبشير وفي كل ما يتطلب عزة ورحمة.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾:

علةٌ غائبة للإرسال والتنزيل.

صحيح أن القرآن لإنذار الناس أجمعين، من أنذر آباءهم وأنفسهم أم لم ينذروا: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[3] ولا الناس فقط بل العالمين: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[4] ولكن المحور الأوّل لإنذاره ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ فإنهم أصلد وأصلب، فغيرهم أقوى تأثراً وأعبد ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[5] لُدّاً في عرويتهم، ولُداً إذ لم ينذروا من قبل ولا آباءهم، أم لم ينذروا مهما أنذر آباءهم ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَـٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٩.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ١.
(٥) سورة مريم، الآية: ٩٧.

قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[١] ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾[٣].

فالذين أنذروا، هم وآباؤهم، ثم الذين أنذر آباؤهم دونهم، ثم من أنذروا هم دون آبائهم، ثم مَن لم يُنذروا هم ولا آباؤهم، هم كلهم من العالمين تشملهم آية الفرقان، ولكنما العرب الذين لم يُنذروا، هم ولا آباؤهم، فيهم عراقيل ثلاثة وِجاه إنذار القرآن، وإذا كانت عزة القرآن ورحمته لحد تؤثر في هؤلاء بعراقيلهم الثلاثة، فبأحرى تأثيرها فيمن دونهم عرقلةً، فالتحلل عن القوميات يعبِّد، وإنذار الآباء يعبِّد، وإنذارهم أنفسهم يعبِّد، تعبيدات ثلاث لتقبُّل الإنذار على سهولة ويسر.

ولأن هذه الغفلة ليست لحد يسقط معها التكليف، فواجب الإنذار يوجَّه إليهم على صعوباته وعراقيله.

فثالوث الغفلة التامة، الطامة أنفسهم، الناتجة عن هذه الثلاث، تجعل منهم معاندين متعنتين لحدٍّ:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾:

لا يؤمنون لأنهم غافلون ثم ولا يريدون الهدى فهم قاصرون ومقصرون، فقد حقت على أكثرهم كلمة العذاب، والقلة الباقية بين قاصر مطلق دون تقصير، وبين من يؤمن رغم الغفلة الحاكمة، ويا لهذه القلة الثانية من يراعة ونصوع الإيمان إذ يجتازون ثالوث الغفلة إلى نور الانتباه:

أترى ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تفريع على حقِّ القول على الأكثرية العاتية؟ وهو جبر وتسيير على عدم الإيمان!

(١) سورة السجدة، الآية: ٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤٦.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٤٤.

أم إن حق القول من مخلَّفات ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء إجابة عن سؤال السبب في حق القول، فلأنهم بغفلتهم يتعنّتون فلا يؤمنون ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] لا تعني إلَّا حق الكلمة على الذين يعلم الله أنهم لا يؤمنون تخيراً، فعلمه بأنهم لا يؤمنون حتى الموت حقق عليهم كلمة العذاب قبل الموت، وليس العلم علة العصيان، بل هو كشف سابق عن العصيان! كما الكشف المقارن أو اللّاحق، فإنها سواءٌ أن ليس العلم علة، بل هو انكشاف عما حصل أو يحصل أو هو حاصل بأسبابه، إنْ مخيراً فمخيراً وإنْ مسيراً فمسيراً.

ف ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ لأنهم لا يؤمنون، أم حيث حق القول على أكثرهم، لأن الله يعلم أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وحق القول هنا كاشف أنهم لا يؤمنون.

وكلما كثرت وتتابعت عوامل الغفلة تثاقلت الذكرى بطبيعة الحال، دون إنسداد مطلق لطريق الهدى، حيث الفطرة التي فطر الله الناس عليها تظلُّ حجة دائبة تطارد العوامل الخارجية والدخيلة، وكثير هؤلاء الذين تؤثر عليهم تلكم العوامل الجارفة، وقليل هؤلاء الذين يطاردونها ويتخلصون عن المعركة، والغفلة ما لم تكن عامدة لا تحقِّق القول على أصحابها، فمن لم يُنذروا من قبل، ولا آباؤهم، فهم في غفلة قاصرة، فإذا أنذروا هم أنفسهم بمثل هذه الرسالة السامية القرآنية بحجتها البالغة، التي تزيل كل غفوة وغفلة، ثم لم ينتبهوا، فهم إذاً في غفلة عامدة، ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ إذاً له بعدان قصوراً وتقصيراً، وليس حق القول إلّا على أكثرهم وهم المقصرون في غفلتهم بعدما أنذروا، وأما القاصرون وبأحرى المؤمنون، فهم القلة الناجية التي لم تحق عليها القول، إلّا مغفرة ورضواناً أم وإيماناً!.

(١) سورة يونس، الآية: ٩٦.

و﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ كما في سائر القرآن هو وعد العذاب ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١) (٢).

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ٨﴾:

ولماذا ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؟ لأنهم بما لم يُنذروا ولا آباؤهم غافلون، ولأنهم لمَّا أنذروا ثبتوا على الغفلة عامدين، فقد تجاوبت العوامل الخارجية: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ قصوراً، والعوامل الداخلية تقصيراً، فتعمَّقت الغفلة فيهم وتحمَّقت لحد أصبحوا غفلة على غفلة ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾(٣) كما زاغوا، ومثلهم في زَيغهم عن الحق وعماهم عن مشاهدة الحق، واستكبارهم على شاهد الحق ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا...﴾.

وعلَّ الأول تمثيل عن الغفلة الأنفسية، والثاني هي الآفاقية، فلم يتبين لهم أنه الحق بما زاغوا عن الآيتين:

فهب أنهم لم ينذروا ولا آباؤهم، فلماذا لم ينظروا إلى الآفاق حتى يعتبروا، ولماذا لم ينظروا إلى أنفسهم حتى يتبصروا؟ فلما ركزت في أنفسهم عوامل الغفلة العامدة أنساهم الله أنفسهم ﴿فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ وأعماهم عن آفاقهم فهم لا يبصرون ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾(٤) ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾(٥).

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧١.

(٢) ﴿بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١﴾ [الصافات: ٣٠-٣١] ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٨].

(٣) سورة الصف، الآية: ٥.

(٤) سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٥) سورة طه، الآية: ١٢٦.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ بجمعية صفات الجلال الانتقام يوم الدنيا ﴿فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ وليس على أعناقهم، وإنما «في» المشيرة إلى أن ﴿أَغْلَٰلًا﴾ جعلت دواخل أعناقهم، وتملكه ذواتهم فلا يملكون فكَّها، ثم ﴿فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أغلالاً متراكبة طول الأعناق إلى الأذقان، فلا مجال لهم في حِراكها على أية حال ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾: رافعون رؤوسهم كالمتأبِّي، كبعير قامح، يرفع رأسه تأنفاً فلا يشرب ماءً ولا يأكل كلاءً، وكأنهم شُبِّهوا - في تكارههم للإيمان وتضايق صدورهم لسماع القرآن - بقوم عوقبوا فجذبت أذقانهم بالأغلال إلى صدورهم، مضمومة إليها أيمانهم، ثم رفعت رؤوسهم ليكون ذلك أشد لإيلامهم وأبلغ في عذابهم!

هؤلاء الحماقى الطغاة الغافلون البغاة أصبحوا رافعي الرؤوس كأنهم لا يملكون انحناءً وإنْ لصالح أنفسهم، متأبِّين عن شربة ماء الحياة، ولا يملكون النظر إلى أنفسهم ليدركوا آياتها، ويلمسوا حاجاتها، حارمين أنفسهم عن النظر إليها وإلى آيات الله فيها، ولَيْتهَم لم يُحرموا النظر إلى آياته في الآفاق، كي يتبصروا بها ويرجعوا إلى أنفسهم منتبهين، ولكن:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾:

إنهم سُدَّت عليهم منافذ الرؤية للآفاق كما سُدَّت عليهم أنفسهم، و﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ . . . وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ تشمل الجهات كلها حيث ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ هي غشية تشملهم دون إبقاء، لم تُبق لهم منفذاً من منافذ الإدراك للآفاق سمعاً ولا بصراً ولا حساً، عقلاً ولا قلباً ولا فطرة ولا أية نافذة قلباً أو قالباً[1] ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(١) نور الثقلين ٤: ٣٧٦ ج ١٩ في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ. . .﴾ [يس: ٩] الهدى أخذ الله سمعهم وأبصارهم وقلوبهم وأعمالهم =

ذلك الإقماح وهذا السد ليس على ظاهر أبدانهم، بل على باطن قلوبهم ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ . . .﴾[1]. توصيفاً لما كان عليه هؤلاء عند سماع القرآن من تنكيس أذقانهم، ولَيِّ أعناقهم، ذهاباً عن الرشد، واستكباراً عن الانقياد للحق، وضيق صدور بما يرد عليهم من مواقع البيان وقوارع القرآن.

وعلَّ ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ تعني - فيما عنت - مستقبل الحياة وهي الأخرى، «وما خلفهم» تعني الحياة الأولى، فهم مغشيُّون عن النظر إلى الحياتين وصالحهما لأنفسهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[2].

قد يُحرم الإنسان إبصارَه إلى آيات آفاقية، ويُمنح آيات أنفسية، باطنة من الروح على فطرته وعقله، وظاهرة من جسمه بأعضائه، وقد يُحرم آيات أنفسية ويمنح الآفاقية، فله مجال على أية حال أن يتبصَّر، فإذا حُرم الإبصار إلى جمعي الآيات ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وصولاً إلى حقائق المبصرات مبدءاً ومعاداً، فيجمدون عليها دون تبصر، «فمن أبصر بها بصَّرته ومن أبصر إليها أعمته» وأما إذا اهتدى إليهما ككل فقد هدي إلى صراط مستقيم.

= عن الهدى، نزلت في أبي جهل بن هشام ونفر من أهل بيته وذلك أن النبي ﷺ قام يصلي وقد حلف أبو جهل لعنه الله لئن رآه يصلي ليدمغه فجاءه ومعه حجر والنبي ﷺ قائم يصلي فجعل كلما رفع الحجر ليرميه أثبت الله عزوجل يده إلى عنقه ولا يدور الحجر بيده فلما رجع إلى أصحابه سقط الحجر من يده ثم قام رجل آخر وهو رهطه أيضاً فقال: أنا أقتله فلما دنا منه فجعل يسمع قراءة رسول الله ﷺ فأرعب فرجع إلى أصحابه فقال: حال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه فخفت أن أتقدم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣، ١٠٤.

فيا ويلاه إن وصلت حال الإنسان إلى هذه الدركات و﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1] حيث لا يبقى له منفذ إلى النور، مُقمحٌ في ذاته، مسدود مغشي عن آفاقه ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

ولقد حصلت شعبة من هذه التعمية على أبي جهل لما أراد أن يدمغ النبي وهو يصلي[2] وعلى قريش لما اجتمعوا ببابه ينتظرون خروجه ليؤذوه[3] وكذلك على الذين مكروا به ﷺ - وهو منهم - فمكر الله والله خير الماكرين إذ قرأ عليهم آية السد فسدّ عليهم فهم لا يبصرون[4].

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑩﴾:

---

(١) سورة الحج، الآية: ١٠.

(٢) مر سابقاً في هامش (١) صفحة ١٧.

(٣) كما في الدر المنثور ٥: ٢٥٩ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمعت قريش بباب النبي ﷺ ينتظرون خروجه ليؤذوه فشق ذلك عليه فأتاه جبرائيل بسورة يس وأمره بالخروج عليهم فأخذ كفاً من تراب وخرج وهو يقرؤها ويذر التراب على رؤوسهم فما رأوه حتى جاز فجعل أحدهم يلمس رأسه فيجد التراب وجاء بعضهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: ننتظر محمداً فقال: لقد رأيته داخلاً المسجد قالوا: قوموا فقد سحركم.

(٤) نور الثقلين ٤: ٣٧٧ ج ٢١ القمي في بيان خروج النبي ﷺ من بيته إلى الغار وفيه: وأمر رسول الله ﷺ أن يفرش له ففرش له فقال لعلي بن أبي طالب ﷺ: افدني بنفسك قال: نعم يا رسول لله، قال: يا علي! نم على فراشي والتحف ببردتي فنام علي عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ والتحف ببردته وقد جاء جبرائيل وأخذ بيد رسول الله ﷺ فأخرجه على قريش وهم نيام وهو يقرأ عليهم ﴿وَجَعَلْنَا...﴾ [يس: ٩] وفي كتاب الاحتجاج روي عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليه السلام قال: إن يهودياً من يهود الشام وأحبارهم قال لأمير المؤمنين عليه السلام فإن إبراهيم عليه السلام حجب عن نمرود بحجب ثلاثة؟ قال علي عليه السلام: لقد كان كذلك ومحمد ﷺ حجب عمن أراد قتله بحجب خمسة ثلاثة بثلاثة واثنان فضل، فإن الله عز وجل وهو يصف محمداً قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩] فهذا الحجاب الأول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٩] فهذا الحجاب الثاني ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] فهذا الحجاب الثالث ثم قال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فهذا الحجاب الرابع ثم قال ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨] فهذه حجب خمسة.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ إذ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لا عليك، فإن عليك الإنذار كما على الرسل ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾(١) ولا يعني ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ إلّا بيان الواقع وتسلية لخاطر النبي الأقدس لكيلا يحزن عليهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾(٢).

ليس للمنذر - إرشاداً أو أمراً ونهياً - أن يترك إنذاره بحجة أنهم لا يؤمنون، فعلَّهم يؤمنون رغم حسابك حيث الواقع قد يتخلف عن العلم غير المحيط بالواقع، وحتى إذا كان قطعاً، أم وتبين أن الإنذار كان عليهم سواءً لم يسقط وجوبه عن المنذَرين، إتماماً للحجة وإيضاحاً للمحجة.

وواقع اللّاإيمان من هؤلاء الأنكاد هو من الملاحم الغيبية القرآنية فهم على استكبارهم وإصرارهم لإبطال حجة القرآن لم يؤمنوا ولو على ظاهر الحال تكذيباً لملحمة قرآنية، وكانوا أشخاصاً خصوصاً عُرفوا بين الجموع بالكفر الصامد والجحود العامد.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾:

إن تأثير الإنذار منحسر عنهم، منحصر في ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾: مَن إذا ذكِّروا تذكروا دون عناد، وهم المتقون الذين إذا وُقوا عن الشر اتقوه، فهم الأحياء بروح الذكر والتقوى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٣)، وقد يلمح المضيُّ في «اتبع... وخشي» لسابق هذه الحالة السابغة فيهم قبل الذكر فهم مهما كانوا قبل الذكر من الغافلين، ولا سيما إذ ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ من قبل ولا أنذروا، هم أنفسهم، ولكن الغفلة حيث كانت قاصرة دون تقصير، فكانوا يفتشون عن ذكر حتى يتذكروا، أم -

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٠.
(٣) سورة يس، الآية: ٧٠.

ولأقل تقدير - كانوا لا يعاندون الحق على غفلتهم، فهما - إذاً - ممن ﴿اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ منذ الغابر وحتى الوقت الحاضر، عائشين اتباع الذكر، فهم - دوماً - عنه يتتبعون!

وهذا شكٌّ مقدس وغفلة غير مقصرة، لا ينقصه إلّا عدم بلوغ الحجة البالغة، وهؤلاء هم الذين يؤثر فيهم الإنذار.

فـ ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يعرف الرحمن كأصل أوّل في حقل الذكر، فيخشى الرحمن بالغيب، يخشاه وهو تعالى ﴿بِالْغَيْبِ﴾ ثم ويخشاه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عمن سواه دون رئاء، ويخشاه بغيب ضميره وسريرة قلبه، فتظهر الخشية في أفعاله - إذاً - فهو في شهوده أخشى.

وكما اتباع الذكر درجات، كذلك خشية الرحمن بالغيب درجات: بغيبه تعالى، ثم بالغيب عن خلقه، ثم بغيب ضميره، كما ولكلٍّ من هذه الثلاث أيضاً درجات!

فلما أثر الإنذار يأتي - إذاً - دور التبشير ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ عما سلف ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[1] ومغفرة حين اتباع الذكر، وخشية الرحمن عن تقصيرات أو قصورات، إذ لا يخلوا أي مكلف عن لمم إلّا السابقين والمقربين، ثم ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾: واسع، أوسع مما يستحقه ويرجوه، فهو أجر كريم من إله كريم، إلى عبد كريم، وأين كريم من كريم؟.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)﴾:

هنا جموع ثلاثة موكدّة بحرف التأكيد تؤكد إحياء الموتى في جمعية الصفات[2] وجمع الجموع أولاً في الذكر وهو آخر في الواقع، كما وتوكد

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٢) ولا يعني الجمع في مثله جمع الله وملائكته امّن ذا إذ لا يجعل الله نفسه المقدسة مع عبيده ولا سيما في الأفعال الخاصة به، فقول الصدر الشيرازي في تفسير يس ص ٣٩: أي هو تعالى =

كتابة ما قدموا وآثارهم وليس إلّا في حياة التكليف، كذلك وإحصاء كل شيءٍ في إمام مبين وهو يسبقهما، وليس عكس الترتيب إلّا بحساب ترتيب الأهمية، فالمحور الرئيسي في هذه الثلاث هو إحياء الموتى، ويلحقه إنذار: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ ثم يتم الإنذار ويطم ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾.

لا محيي للأحياء يوم الإحياء إلّا هو، ولا كاتب لأعمالهم في حياة التكليف إلّا هو، ولا محصي لكل شيءٍ قبل شيئه إلّا هو، توحيداً في مثلث الأفعال مبدأً ومعاداً وبين المبدأ والمعاد فـ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وعل ﴿الْمَوْتَى﴾ يعم بُعدي الموت، قبل الحياة الدنيا وبعد الموت عنها: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]: نُحيي موتى الأجِنَّة بعد موتها الكائن «فأحياكم» ثم نحيي موتاهم بعد حياتهم وموتهم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

فالإحياء الأول قضيةَ الفضل واقعٌ مكرور على أية حال، ملموس غير منكور بحال، فبأحرى الإحياء الثاني قضيةَ العدل وهو أهون عليه ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2].

ثم ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ في الحياة الدنيا تثبيتاً لها في ظروف عِدَّة، حجة لهم وعليهم يوم يقوم الأشهاد، كتابة في أعناقهم وذوات أنفسهم بتسجيل الصور والأصوات: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ

= أو ضرب من ملائكته المقربين المهيمنين الذين فعلهم مطوي في فعل الحق لفناء ذواتهم بغلبة سلطان النور الكامس الأزلي على أنوارهم واقتفاء أشعة تأثراتهم العقلية تحت شعاع الضوء القيومي - مردود إلى قائله - ومن الغريب اعترافه بفناء ذواتهم ثم تفسير أجمع ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ [يس: ١٢] بظهورهم بجنب الحق لحد صنعوا بجنابه، وظهروا بجانبه!

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[١] وكتابة في أرضهم بأجوائها وأشيائها بأشياعهم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾[٢] ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣] وكتابه بكرام كاتبين مؤمَّرين من قبل رب العالمين ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[٤] وكتابة في سجلَّات ضمائر الشاهدين: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[٥] كتابات أربع تجمع كافة الشهادات العينية وما دونها.

وترى ما هو الفارق بين ﴿مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾؟ والأعمال كلها مقدَّمة لأنها كلها مكتوبة متطائرة دون إبقاء! علَّ الفارق بينهما أن «ما قدموا» هي الأعمال المنقطعة بعد ما عُملت مهما سُجِّلت، إذ لا يبقى لها أثر يُتَّبع، وأما «آثارهم» فهي الباقية بعد ما عُملت من سنة حسنة أو سيئة تُتَّبع وكما يروى عن الرسول ﷺ[٦] وذلك كعلم ينتفع به أو يضر، وبناء مسجد أو مفسقة، وولد خَلَف أو متخلف، أمّاذا ومَن؟ من أثر خير أو شر يُتَّبع، فإنه مكتوب قدر ما يتبع، كما أن ما قدموا يُكتب كما قدّم، بل وآثارهم في وجه هي مما قدَّمت، وإنما أفردت بالذكر بعد «ما قدموا» تنبيهاً أنها تحسب بحساب صاحب الآثار مهما انقطع العمل، لأنه من عواملها إذ سنَّها وعبَّد طريقها.

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الانفطار، الآيتان: ١١، ١٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٦) الدر المنثور ٥: ٢٦٠ - أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال قال رسول الله ﷺ: من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم ومن سن سنة سيئة كان عليها وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء ثم تلا هذه الآية ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

وقد تشبه الآية ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[١] فـ«ما قدم» هو ما قدموا، وما «أخَّر» هو آثارهم.

وقد تعم «آثارهم» الأنفسيةَ منها بجنب الآفاقية، فقد يعمل خيراً أو شراً منقطع الأثر نفسياً وخارجياً، وأخرى له أثر في نفسه نتيجةَ الإصرار والتكرار، فيصبح ملكةً بعد ما كان حالاً وعملاً، وثالثة له أثر خارجي لا نفسي كملكة، ورابعة له الأثران، فـ«آثارهم» قد تعم الثلاثة الأخيرة مهما اختلفت درجاتها أو دركاتها، فإنها مشتركة في بقاء آثار للأعمال بعد انقطاعها، ومثالاً للأثر النفسي خيراً ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[٢] وآخر لها شراً ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[٣] فتلك من كبائر الحسنات، وهذه من كبائر السيئات.

فالأعمال - إذاً - مكتوبة لا هي فحسب، بل بمفعولياتها وفاعلياتها، الباقية بعد انقطاعها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهذا هو السرّ في زيادة العقوبات زمناً على السيئات - أحياناً - ونقيصتها عنها أخرى - حيث العمل يوزن - يوم الوزن - بمخلَّفاته، لا فحسب بذاته، فالخلود أبدياً وغير أبدي، وهما محدودان لأصل الحد في العمل بمخلفاته وخلفياته، ذلك الخلود لا تجب موازاته زمناً وفي مادة العذاب بنفس العمل مادة وزمناً، بل وكما يكتب ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من العمل وآثاره ﴿أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾!

وقد تشمل ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ آثارَ أقدامهم إلى حسنات[٤] أو سيئات، فإنها

(١) سورة القيامة، الآية: ١٣.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٤) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن مردويه عن أنس قال: أراد بنو سلمة أن يبيعوا دورهم ويتحولوا قريب المسجد فبلغ ذلك النبي ﷺ فكره أن تعرى المدينة فقال: يا بني =

ليست مما قدموا كأصول الأعمال، فلا تشملها ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾ ولأنها من سنن تتبع حسنات أو سيئات فهي من آثارهم.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ مما قدموا وآثارهم أما ذا من شيءٍ كائنات العالم كله، وأفعالها وأحوالها ما ظهر منها وما بطن، كل ذلك دونما إبقاء ﴿أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ والإحصاء هو العلم التفصيلي، والإمام المقتدى، والمبين هو المظهر، فما هو الإمام المبين؟

لا نجد الإمام المبين إلّا هنا وفي الحجر ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾(١) وهما أصحاب لوط وأصحاب الآيكة بما انتقم الله منهم، فعلّه صيغة أخرى عن اللوح المحفوظ وأم الكتاب، والكتاب المبين، تعبيرات أربعة عن علمه التفصيلي بكل شيءٍ، فهم وما قدموا وآثارهم، وكل شيءٍ سواهم، وكل فعل بجزائه، كل ذلك سابق في علم الله حتى وإحياء الموتى وكتابة ما قدموا وآثارهم، ولكنه ليس تقدير التسيير، وإنما تقدير العلم الكاشف عما سيكون كما يكون، بتسيير أو تخيير، فليس إحصاء الأعمال التكليفية في كتاب مبين بالذي يقدرها تسييراً، وإنما هو كشف عنها كما يحصل تخييراً.

ولأن ذلك الإحصاء لكل شيء لا يعزب عنه شيء فقد ينحصر بالله الذي يعلم كل شيء ويقدره، منحسراً عمن سوى الله وإن كان الرسول الأقدس ﷺ وذويه، فليس عندهم الإحصاء المطلق كما عند الله، إلّا مطلق الإحصاء مما علمهم الله، فهم - إذاً - المصداق الثاني للإمام المبين(٢) واللوح المحفوظ

= سلمة أما تحبون أن تكتب آثاركم إلى المسجد؟ قالوا بلى فأقاموا وعن ابن عباس فأرادوا أن ينتقلوا قريباً من المسجد فنزلت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] فقالوا: بل نمكث مكاننا، أقول وأخرج ما في معناه جماعة آخرون.

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٩.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢٧٩ ح ٢٧ في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى أبي الجارود عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ =

وأم الكتاب والكتاب المبين ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾(١).

وعلَّ التنكير في ﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يلمح لذلك الشمول جرياً للعلم المطلق

= ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] قام أبو بكر وعمر من مجلسهما وقالا: يا رسول الله ﷺ هو التوراة؟ قال: لا قال: ا فهو الإنجيل؟ قال: لا قالا: فهو القرآن: قال: لا قال، فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال رسول الله ﷺ: هو هذا إنه الإمام الذي أحصى الله فيه تبارك وتعالى علم كل شيء.

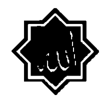
أقول: إنه تفسير بمصداق ثان ناطق في الخلق وأوله رسول الله ثم أوله الصامت كتاب الله وكل الثلاث من المصاديق التالية لعلم الله.

وفي تفسير البرهان ٤: ٧ ح ٨ الشيخ في مصابيح الأنوار بإسناده عن رجاله مرفوعاً إلى المفضل بن عمر قال: دخلت على الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لي: يا مفضل عرفت محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام كنه معرفتهم؟ قلت: يا سيدي ما كنه معرفتهم؟ قال: يا مفضل عرفت تعلم أنهم في طير الخلائق بجنب الروضة الخضراء فمن عرفهم كنه معرفتهم كان معنا في السنام الأعلى قال قلت: عرفني ذلك يا سيدي؟ قال: يا مفضل تعلم أنهم علموا ما خلق الله عز وجل وذراه وبراه وأنهم حكمة التقوى وخزناء السماوات والأرضين والجبال والرمال والبحار وعرفوكم في السماء نجم وملك ووزن الجبال وكيل ماء البحار وأنهارها وعيونها وما تسقط من ورقة إلّا علموها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين وهو في علمهم وقد علموا ذلك فقلت: يا سيدي قد علمت ذلك وأقررت به وآمنت قال: نعم يا مفضل نعم يا مكرم نعم يا طيب نعم يا محبوب طبت وطابت لك الجنة ولكل مؤمن بها وح ٩ عنه رواه عن أبي ذر في كتاب مصباح الأنوار قال: كنت سائراً في أغراض أمير المؤمنين عليه السلام إذ مررنا بوادي النمل ونمله كالسيل سار فذهلت مما رأيت فقلت: الله أكبر جل محصيه فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ولا تقل ذلك يا أبا ذر ولكن قل جل باريه فوالذي صوّرك إني أحصي عددهم وأعلم الذكر من الأنثى بإذن اللّه و١٠ عن عمار بن ياسر قال كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في بعض غزواته فمررنا بوادٍ مملوء نملاً فقلت: يا أمير المؤمنين عليه السلام ترى يكون أحد من خلق الله يعلم كم عدد هذا النمل؟ قال: نعم يا عمار أنا أعرف رجلاً يعلم كم عدده وكم فيه ذكر وكم فيه أنثى فقلت: من ذلك يا مولاي الرجل؟ فقال: يا عمار، قرأت سورة يس ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؟ [يس: ١٢] فقلت: بلى يا مولاي قال: أنا ذلك الإمام المبين.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

على مطلق العلم، فكما يفسر هكذا الصراط المستقيم بأمير المؤمنين عليه السلام كذلك الأمر في إمام مبين، فإنهما من تفسير التطبيق على مصاديق دون المصداق المطابَق المعنيِّ في أصل الكلام.

ولأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعه عترته المعصومون عليهم السلام من شهداء الأعمال، والله يحصي فيهم أعمال العباد كلهم، فهم ممن يُكتب فيهم ﴿مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ وكما يكتب فيهم سائر العلم إلّا ما اختص الله بعلمه.



﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ (١٣) إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ (١٤) قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ (١٥) قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ (١٧) قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ (١٨) قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ (١٩) وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٢٠) ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (٢٧) وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ (٢٩) يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٠) أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ (٣٢)﴾

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ بطيّات إنذارك ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مثلاً يشبه هذه الدعوة والمدعوين في كونهم قوماً لداً وحجاجهم اللدود ومصيرهم العسير يوم الدنيا ويوم الدين.

وعدم الإفصاح عن اسم القرية وسمة أهلها مما يفصح أنهما لا يزيدان في دلالة القصة وإيحائها إلى ما يرام منها، فلا يهمنا أنها «انطاكية» كما تقول الروايات أم غيرها، وكما لم يفصح عن أسماء الرسل، حيث الرسالات طبيعتها واحدة، كما المرسل إليهم، مهما اختلفت مواد الدعوة في بعض صورها وأزمنتها وأمكنتها، ولذلك لا نرى من أسماء الألوف من الرسل إلَّا زهاء ستة وعشرين رسولاً في القرآن، كان ذكرهم لزاماً في هذه الرسالة الأخيرة.

وقد تلمح «إذ أرسلنا» لرسالة دون وسيط من رسول الإنسان[1] مهما كان رسول الرسول بأمر الله رسولاً من الله، فلا تنافيه الرواية القائلة أنهم رسل المسيح عليه السلام [2] اللهم إلَّا بولس الخائن إذ لم يكن من الحواريين ولم يؤمن بالمسيح إلَّا غدراً بعد صعوده عليه السلام فلم يكن المسيح ليرسل رسولاً إلا بإذن الله، وإذ لم يصدق «إذا أرسلنا» فمن المستحيل أن يرسله الله على علمه أنه خائن[3].

---

(١) نور الثقلين ٤: ٢٧٩ ج ٣٠ - تفسير القمي بسند متصل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن تفسير هذه الآية فقال: بعث الله عزَّ وجلَّ رجلين إلى أهل مدينة أنطاكية فجاءهم بما لا يعرفون فغلظوا عليهما فأخذوهما وحبسوهما في بيت الأصنام فبعث الله الثالث فدخل المدينة...

(٢) المصدر عن المجمع قال وهب بن منبه بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكية... فلما كذب الرسولان وضربا بعث عيسى عليه السلام شمعون الصفا رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما...

(٣) الدر المنثور ٥: ٢٦١ - أخرج ابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي قال: اسم الرسولين اللذين قال: إذ أرسلنا إليهم اثنين شمعون ويوحنا واسم الثالث بولس!

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ كما كُذِّبت أمم قبلهم وبعدهم ومعهم بعذرهم البائس المتكرر: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾[1] ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ الرسولين برسالتهما ﴿بِثَالِثٍ﴾ فإنَّ في تلاحق الحجج مزيداً من الاعتزاز للحق ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ جميعاً بكلمة واحدة: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ صيغة سائغة صارمة بتأكيد ﴿إِنَّآ﴾ وتقدُّم الظرف الموحي للاختصاص: ﴿إِلَيْكُم﴾ مع التعزيز بثالث.

فقبل الثالث «كذبوهما» بإجمال دونما عناية واعتداد، فلما عززنا بثالث فصرمت الحجة، أخذوا في سَرْد الرد عليهم بعرض عريض إذ عرفوا تلاحق الرسالة في تعزيز دونما وقفة، فحاولوا في نكرانها واحتالوا في تكذيبها بحجة مفصلة هي في زعمهم قاطعة قارعة، ولكي يرتاحوا عن تواتر الرسالة.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ كحجة أولى لتكذيبهم، حيوانيةِ التصور، إذ تحصر إنسانية الإنسان ببشريته، دون أن تحسب روحه وروحانيته بحساب، وفي هذا المقياس الحيواني هؤلاء هم أولى بالرسالة إذ يملكون من حيوانية الإنسان أكثرَ منهم، وهم كأمثالهم معترفون بمماثلتهم في بشريتهم، ولكنهم يمتازون عنهم بما يوحى إليهم قَدَر الاستعداد في روحياتهم وقابلياتهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ...﴾[2] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ...﴾[3].

فالمماثلة في البشرية ليس لزامها المماثلة في سائر الميزات الروحية

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١١.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١١.

بقابلياتها، ولكنهم يحصرون الإنسان في بشريته، ويحسرونه عما سواه من ميزاته، فقياسهم يمثل قياس إبليس اللعين: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(١) وهم بذلك في أسفل سافلين!

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ كنتيجة عن تلكم المماثلة الحاصرة الخاسرة الحاسرة أن لو أنزل من الرحمن شيءٌ لأنزل علينا كما أنزل عليكم، وإذ لم ينزل علينا فـ ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ على بشر.

ولأن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ رحمة عامة، فللمماثلين في البشرية إما أن تنزَّل هذه الرحمة على سواء، أم لا تنزل على سواء، والجواب أن الوحي إنما هو من مبدإ الرحيمية، رحمةٌ خاصة للخصوص من عباده الصالحين، فالنازل على الإنسان - كبشر - رحمةٌ رحمانية، ولكنما النازل عليه كإنسان في مختلف المنازل الروحية، إنما هو رحمة رحيمية، من كتابة الإيمان وإلى نبوءة ورسالة وإمامة الرسل وخاتمة للوحي، فـ ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فإن قضية الربوبية الحكيمة عدم التسوية بين المختلفين في الاستعدادات والقابليات والفاعليات، والحاجة الضرورية للناس إلى الرسالات من أمثالهم في البشرية لتكون الحجة بالغة لا تبقي على أثر من نكران وعاذرة!.

فمهما لم ينزل الرحمن وحياً يعم البشر - ولن ينزل - فقد أنزل الرحيم وحياً: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾(٢).

و﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ كنتيجة حاسمة في حسبانهم، هي حصرهم لدعواهم رسالة الوحي في الكذب!

﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾:

أترى ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ تُثبت لهم رسالة إلى هؤلاء الناكرين؟ ولكل مدعٍ لا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١١.

يملك برهاناً على دعواه أن يقول «ربي يعلم» وللناكر أن يعكسها نفياً لها «ربي يعلم أنك لست بمرسل» وعلى أقل تقدير: أنّى لنا سبيل إلى ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾! فإن هي إلّا حجة داحضة لا تليق بالرسل، وليست إلّا مهزأة للناكرين الذين ينكرون الحجج البالغة للرسل فضلاً عن هذه؟!

الجواب كل الجواب تجده في ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ فلم يقولوا «الله يعلم» أو «رب العالمين يعلم» أو «الرحمن يعلم» وإنما ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ توجيهاً للناكرين إلى حجة ملاصقة بهم، ملازمة لهم، هي التربية الخاصة الإلهية الملموسة فيهم، من رحمة رحيمية خاصة تخص المرسلين.

فيُعلم ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ بما يُرى فينا، ويُعلم من التربية الرسالية الإلهية، كحجة ملاصقة بنا، بعدما يُعلم أن ﴿رَبُّنَا﴾ لا يجعل الناس على سواء، والحاجة إلى اصطفاء بين كل قبيل لدعوته ضرورة مدقعة!

فلا تحصر حجج الرسالة الإلهية بآياتهم المنفصلة عنهم كإحياء الموتى واليد البيضاء أمّاذا؟ فالرسل آيات الٓهية في ذوات أنفسهم قبل آياتهم، تتمثل فيهم التربية الرسالية، كما أفصح عن أهمها رجلٌ من أقصى المدينة ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1] فهم يملكون ما يملكه الرسل في دعواتهم بموادها، بصورتها وسيرتها، ثم وقد يتزودون بآيات منفصلات إتماماً للحجة وإيضاحاً للمحجة: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ بلاغ يُبين نفسه أنه رسالي إلهي، ويُبين ما يخفى على المرسل إليهم من سبل إلى الله، وكمال الإبانة في بلاغهم يأتي بآيات بعد آيات أنفسهم، فالآية الكائنة معهم أينما كانوا هي آيتهم ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ والآية التي عليهم لإبانة البلاغ هي المنفصلة عن ذوات نفوسهم، وقد قضوا ما عليهم بطبيعة الحال، ولا سيما أمام هؤلاء الناكرين الألداء!

(١) سورة يس، الآية: ٢١.

ومن ثم فـ ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ...﴾ توجيه إلى قضية الربوبية الرحيمية، أنها ليست على سواء بالنسبة للمربوبين، فلكلٍّ حسب فاعلياته وقابلياته، وكلٌّ حسب حاجيات العالمين إلى درجات من الهدى، و﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ دون سواه يُعلم ما هي الحكمة في إختصاص بعض الناس بالرسالة دون بعض، فـ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١) كما ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾(٢).

ف ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ...﴾ هدْم لصرح الاستحالة في رسالة البشر وإنزال الوحي عليه، ثم تَبَنٍّ لصرح الرسالة بآياتها الذاتية المشاهَدة في المرسلين، ومن ثم آيات منفصلة تؤيدها والله من وراء القصد.

هذان شرطان أصيلان يتبنيَّان الرسالة الإلّهية: أن يحملوا معالم التربية الإلّهية الرسالية، وأن يبلغوها البلاغ المبين: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾(٣).

هناك اندحضت حجة الناكرين فتحوَّلوا إلى هُراءٍ في عَراءٍ عن شاكلة الحجة وإنْ بصورتها، قوله ناكبة ماردة لكل عاجز عن الحجة، حاجز عن المحجة، حيث تتهددهم بالرجم:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾:

التطيُّر هو التشاؤم، فلما نكب أهل القرية في جواب الرسل عن تكذيبهم توصلوا إلى شطحات القيلات: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ والتهديد بأشد العذاب: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ وسائر العذاب: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهكذا يُسفر الباطل عن غشْمه، ويطلق على الهداة تهديده وعربدته في التعبير والتفكير.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.
(٢) سورة الحج، الآية: ٧٥.
(٣) سورة النور، الآية: ٥٤.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ :

ليس طائركم منا بل هو معكم، حيث تواجهون الناصحين بكل شؤم ولؤم، كالقبيح الدميم الناظر إلى المرآة متطيراً بها قباحته ودمامته، وطائره معه لا سواه.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ بما يصلحكم فأنتم تتطيرون بنا، كلَّا لا طائر معنا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ في الزور والغرور.

ليس هناك شؤم في زمان أو مكان أم أيٍّ كان لكي يأتي الإنسان من غيره، دونما شؤم في نفسه، رغم ما يتشأمه الشائمون حيث يتطيرون بأشياء أو أشخاص، وقد يسرفون في ذلك تطيراً بالصالحين المصلحين، خرافة جازفة جارفة لا تستقيم على أصل عقلي أو علمي، إلّا أساطير الأولين.

وهكذا يَكون دور القلوب المقلوبة المعقولة بعقالات الجاهليات، والحق الحقيق بالاتباع ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[(١)] وأن ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ وكل إنسان يعمل على شاكلته، فلا يصيبه شرٌّ إلَّا من نفسه أو من هو كنفسه، فطائر كلٌّ معه وهو عند الله، يصيبه به جزاءً وفاقاً: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾[(٣)].

ذلك وعلى حدِّ المروي عن الرسول ﷺ: لا عدوى ولا طيرة ولا

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.
(٣) سورة النمل، الآيات: ٤٥-٤٧.

شؤم[١] و«الطيرة على ما تجعلها إن هوَّنتها تهوَّنت وإن شددتها تشددت وإن لـم تجعلها شيئاً لـم يكن شيئاً»[٢] إذ فـ ﴿طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ و«كفارة الطيرة التوكل»[٣].

كل ذلك إذ لا أصالة للطيرة، إلَّا أن تشدد تخيُّلها فتشدد عليك، أم تتكل على الله فلا تجعلها شيئاً.

ثم وذلك التعزيز بثالث لم يفدهم إلَّا إتمام الحجاج، ومن ثم منهم تمام اللجاج، فقد تمَّ دور الرسالة ببلاغها المبين، ثم يأتي دور من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب، دون اختصاص بإيمانهم الشخصي بل ومناصرة الرسل المكذبين، ولم يكن في البلدة كلها إلّا رجل من أقصاها:

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠﴾:

ورجلٌ من أقصى المدينة هو رجل الضاحية، متحرراً عن أغلال المدينة بأوساطها، متحللاً عن أوزارها وأوضارها، خالصاً في إيمانه، ساعياً في إتيانه، وكما ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[٤].

وهكذا تكون الرجولة البطولة للصالحين الصامدين من المؤمنين أنهم يعيشون نصرة الرسالات والمرسلين، بكل ما لديهم من طاقات وإمكانيات، دونما نظرة لجموع محتشدة ينضمون إليهم، فالقيام لله مثنى وفرادى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾[٥] ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن

(١) نور الثقلين ٤: ٣٨٢ ج ٣٥ في روضة الكافي قال رسول الله ﷺ: . . .
(٢) نور الثقلين ٤: ٣٨٢ ج ٣٣ في روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام: . . .
(٣) المصدر عنه عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ:
(٤) سورة القصص، الآية: ٢٠.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٤٦.

يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ﴾[1].

وفي مجيء رجل من أقصى المدينة دلالة أن بلاغ الرسل بلغ من أقصاها إلى أقصاها، فقد ملئت ببلاغهم المبين لحد يجذب لمناصرتهم رجلاً من أقصاها، مليئاً من دعوة الرسالة أقصاها، متخطياً في مجيئه هذا أقساها قلباً وأدناها.

ولا مهمة في أن نعرف اسمه وشغله، فليس الأشخاص والأشغال والشخصيات بالتي تخلق الرجولات وإنما هو الإيمان الصارم الصامد أينما حل، في وسط المدينة أم قَصيِّها أو أقصاها، فلا يهمنا أنه حبيب البخار أو الحراث أو القصار أم رجل الغار[2]، حيث القصص القرآنية هي نخبة تُقص عن تاريخ الماضين، فيها عبرة لأولي الألباب.

﴿رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ في مجيئه وفي مناصرته المرسلين وفي كل ما تتطلَّبه من سعي.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١﴾:

فالاهتداء الرباني فيهم ظاهرة الملامح وكما استدلوا به في حجاجهم

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٨.

(٢) في الدر المنثور ٥: ٢٦١ - عن قتادة قال بلغني أنه رجل كان يعبد الله في غار، وعن عمر بن الحكم قال بلغنا أنه كان قصاراً، وعن ابن جريح كان حراثاً، وفي نور الثقلين ٤: ٣٨٤ ج ٤١ في أمالي الصدوق بإسناده إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى رفعه قال قال رسول الله ﷺ: الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل ياسين وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلي بن أبي طالب عليه السلام وهو أفضلهم.

وفي الدر المنثور ٥: ٢٦٢ - أخرج أبو داود وأبو نعيم وابن عساكر عن أبي ليلى عنه ﷺ مثله سواء، وأخرج البخاري في تاريخه عن ابن عباس مثله إلا في «أفضلهم» وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: السبق ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون والسابق إلى عيسى صاحب يس والسابق إلى محمد ﷺ علي بن أبي طالب.

على هؤلاء المكذبين، وهذه سنة دائبة للمرسلين، كما وأن عدم سؤال الأجر سنة لهم ثانية وبذلك لهم إمكانية البلاغ المبين، فالسائل أجراً في بلاغة يحدِّده بحدود أجره، ويراعي فيه طلبات المرسل إليهم، والذي لا يسأل أجراً وهو ضال، شيطان يرائي، والمهتدي الذي قد ينحو نحو ضلال قاصراً أو مقصراً لا يهدي إلى الحق الصراح: ﴿أَفَمَن يَهْدِيَ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[١]؟ وأما من لا يسأل أجراً وهم مهتدون، فهم الهادون الذين يجب اتباعهم، فإن لهم البلاغ المبين دون أي خفاء في أصله وفرعه، في صورته وسيرته، كالنار على المنار والشمس في رابعة النهار، تجب متابعتهم دون قيد ولا شرط لمكان العصمة والهداية المطلقة كالرسل والأئمة، وأما سائر العلماء الربانيين، فاتباعهم لغير العلماء محدود بحدود الهدى والمصلحة، حيث يسقط واجب اتباعهم وولايتهم عند الأخطاء قاصرين أو مقصرين، وبأحرى ليس الفقيه ولياً على فقيه آخر إلّا عملياً في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢] وكما للمؤمنين ككل بعض البعض ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[٣].

وإن تعجب فعجب من هؤلاء الذين يدفعون أجراً ويُضلون، ثم من يَضلون دون أجر، ومن ثم يهتدون بأجر، فما الهدى الصالحة إلّا هدى مطلقة دون أجر، مادياً أو معنوياً ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٤] بل وحتى إن هتكوهم وضربوهم فأحرجوهم وأخرجوهم، ليسوا هم بتاركي دعوة الحق، مما يدل على صدقهم القاطع، فلا مال هنالك ولا منال، إلّا حرماناً عن

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.
(٢) راجع سورة الأحزاب.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧١.
(٤) سورة الإنسان، الآية: ٩.

زهرة الحياة، ومهاجرة دائبة في سبيل الدعوة، وكما نراها في كل داعية رسالية!

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وحتى إذا لم يحملوا آيات الرسالة ومعجزاتها، كما وهو السنة المتبعة في التقاليد الحقة الحرة لكل جاهل عن عالم، كيف وهم أولاء الرسل يحملون آيات الرسالات في ذوات نفوسهم وذوات ألسنتهم وأيديهم وكما برهنوا بها ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

«ليس الأنبياء عملاء ولا عمالاً إلا لرب العالمين»[1] ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2] ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[3].

فمن لا يسأل على رسالته - على صعوباتها - أجراً وهم مهتدون، وليست لهم رباط إلّا بالله، إذاً فأجرهم على الله، وكما رسالتهم من الله، ولا مغالاة لهم في سؤال الأجر وفي الدلالة، فالمقتضي لاتباعهم - وهو الاهتداء بهم موجود، والمانع وهو الضلال أو الأجر مفقود.

فإنهم ليسوا ليطلبوا أو يأخذوا من دنياكم شيئاً بديل الدعوة حتى تخسروا منها باتباعهم، وإنما يدلونكم إلى الهدى، فلكم في اتباعهم خير الآخرة والأولى، وفي تركه، هم - لأقل تقدير - لا يخسرون وأنتم الخاسرون، وهذا يشبه احتجاج علي عليه السلام «إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً وإلا فقد تخلصنا وهلكت»!

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

وهنا انتقال من حجة الرسالة إلى تجاوبها مع الفطرة: ﴿وَمَا لِيَ﴾؟ فما

(١) راجع سورة الشعراء الآية: ١٠٩.
(٢) سورة هود، الآية: ٥١.
(٣) سورة هود، الآية: ٢٩.

هو بالي ووبالي أن أعبد من دون الله - الذي فطرني - مَن هو مثلي أو دوني أو من هو فوقي و﴿لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وفطرهم، فما أشنعه ظلماً بالحق أن أترك عبادة فاطري إلى عبادة المفطورين مثلي، أو أشركهم في عبادته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ دون الذين به تشركون فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾(١).

فما لي، ما لي أنجرف هكذا إلى شفا جرف هار، ولا تجاوبه الفطرة ولا العقل ولا دعوات الرسل؟

وهنا ﴿وَمَا لِىَ﴾ واجهتان أولاهما سؤال الرجل عن نفسه، والأخرى سؤال كل ذي فطرةٍ عن فطرته، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يتبنَّى الثانية كحجة على الكل، فلأن رجوعهم إلى الذي فطرهم لا سواه، فليعبدوه لا سواه، و﴿فَطَرَنِى﴾ تعني فَطْرَ الخلق، وخَلقهم على فطرة التوحيد، فخالقيته لا سواه، ثم فطرة التوحيد، ومن ثم الرجوع إلى الفاطر لا سواه أدلة ثلاثة على وجوب عباد الله لا سواه.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣)﴾:

وهذه حجة رابعة للتوحيد تعني الواجهة السلبية ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ هنا أو في الأخرى ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أن يشفعوا لي عند الله زعم التوهم الهُراء: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾(٢) ثم ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ مِن ضُر الرحمن مستقلين في إغنائهم عني، فلا هم مستقلون في دفع الضر عني، ولا هم شركاء شفعاء، فما تفيدني إذاً عبادتهم، وترفضها قبل ذلك الحجج الثلاث وتمجُّها مَجًّا!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٨.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾:

ضلال يُبين نفسه أنه ضلال، دونما حاجة إلى اختلاق حجة وتكلُّف برهان، حيث الفطرة تجاوب حق التوحيد وباطل الشرك كآية أنفسية قبل الآيات الآفاقية.

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾:

وهل المخاطَبون هنا هم الرسل، يُظهر لهم إيمانه بمعرض الناكرين، ليشهدوا له عند الله؟ وكانوا شاهدين إيمانه منذ جاء من أقصى المدينة! والله هو شاهد الإيمان دون شهادة! أم هم الناكرون فليسمعوا إيمانه بحججه ليتبعوه أو يزيدهم حجة إذ ينكرون؟ ويناسبه «بربي» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» لا ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ إذ كانوا يعبدون أرباباً من دون الله! اللهم إلّا أن يعني الرب الفاطر الذي هم به مؤمنون.

قد يعنيهما جميعاً جمعاً بين الأمرين، و﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ دون «أربابكم» يختصه بالله الواحد، ولأن رب المرسلين هو ربه ورب المكذبين، وقد برهن لربوبيته الوحيدة في حجاجه، فأحسن الصيغ هنا «ربكم» مما سرَّ المرسلين وأغاظ الناكرين لحدٍّ قتلوه فور قوله الجاهر القاهر، إذ كانت شهادته بالتوحيد - وهو رجل من أقصى المدينة - تجاسراً على أصحاب المدينة.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾:

فأمره بدخول الجنة وتحسُّره على جهل قومه، وغفران ربه له، وجعله من المكرمين، و﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ لمحات خمس أنهم قتلوه فور قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾!

والجنة هنا هي البرزخية حيث يدخلها المؤمن فور ارتحاله إلى رحمة

ربه، فإن الجنة الأخرى ليست إلّا للقيامة الكبرى، وإلّا لشيءٍ أصيل من هذا البدن قليل، والبدن الآن بكامله تحت التراب أمّاذا؟ ولمّا تأتِ القيامة الكبرى، فهذه من الآيات الدالات على الحياة البرزخية بعد الموت دون فصل، فإن «قيل» هنا و«قال» تدلان على استمرارية حياة الميت بعد الموت، فلا يعني الموت إلّا فصل الروح ببدنه البرزخي عن هذا البدن، ولا يعني موت الروح وفوته وكما تفصله الآيات البرزخية الأخرى.

ولما ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ قال مبتهجاً لنفسه، متحسراً على قومه ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ أمرين خفياً عنهما:

١ - ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أن أذهب عني سيأتي رفعاً، ودفع عني التي كانت تهاجمني، ولا فحسب الغفران بل ٢ - ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ وهم بين الملائكة: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ۝٢٧﴾[1] وبين سائر المؤمنين من مخلَصين ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ... وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾[2] ومن مخلِصين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾[3] وهم مشتركون - على درجاتهم - في أنهم لا يعذّبون ولا يؤنّبون، ولذلك نرى الرجل يُستقبل فور موته بـ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾.

وكما الله أكرم ذلك الرجل الناصر للمرسلين، كذلك أهان قاتليه المكذبين أن أخمد ثائرتهم بصيحة واحدة دون أن ينزل عليهم من جند من السماء ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ جندَ السماء على مردة الأرض، واستصغاراً لموقفهم واستضعافاً.

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾:

صيحة واحدة أخذت جموعهم المحتشدة المتكاثفة المتكاتفة، التي

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٢) سورة الصافات، الآية: ٤٢.
(٣) سورة المعارج، الآية: ٣٥.

كانت كنيران مسعَّرة على الرسالات ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ خاملون دون حِراك في أي عراكٍ، ويْكأنهم لم تسبق لهم حياة! صرعى سبات مهانين مصغَّرين، وقد سُدِل الستار سراعاً على مشهدهم البائس المهين.

وترى كيف كانت معهم عاقبة المرسلين، فهل قتلوا مع صاحب يس؟ و﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ لا تشملهم! أم هم نجوا من هذه المعركة الدموية الصاخبة، وقتل مؤمن واحد لا يخلِّف صيحة تخمدهم جميعاً! الأمر الواضح في هذا البين أن الرجل الأقصى قتل وأن أصحاب القرية خمدوا بصيحة واحدة، ولو أن الرسل قتلوا لأشير إلى قتلهم كما الإشارات إلى قتل المناصر.

والصيحة التي أخمدتهم كذلك تُخمد الرواية القائلة إن السلطان آمن وأهل مملكته[1] فلو أن هناك مؤمنين ولاسيما السلطان وجماهير من أتباعه فلماذا الصيحة والقتلة الجماهيرية؟

---

(١) نور الثقلين ٤ : ٣٧٩ ج ٣٠ القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن مالك بن عطية عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن تفسير هذه الآية فقال: بعث الله عزّ وجلّ رجلين إلى أهل مدينة أنطاكية فجاءهم بما لا يعرفون فغلظوا عليهما فأخذوهما وحبسوهما في بيت الأصنام فبعث الله الثالث فدخل المدينة فقال: أرشدوني إلى باب الملك قال: فلما وقف على الباب قال: أنا رجل كنت أتعبد في فلاة من الأرض وقد أحببت أن أعبد إله الملك فأبلغوا كلامه الملك فقال: أدخلوه إلى بيت الآلهة فأدخلوه فمكث سنة مع صاحبيه فقال لهما: بهذا ينقل قوم من دين إلى دين بالخرق أفلا رفقتما؟ ثم قال لهما: لا تقران بمعرفتي ثم ادخل على الملك فقال له الملك بلغني أنك كنت تعبد إلهي فلم أزل وأنت أخي فسلني حاجتك فقال: ما لي من حاجة أيها الملك ولكن رأيت رجلين في بيت الآلهة فما حالهما؟ قال الملك: هذان رجلان أتياني ببطلان ديني ويدعواني إلى إله سماوي فقال: أيها الملك مناظرة جميلة فإن يكن الحق لهما اتبعناهما وإن يكن الحق لنا دخلا معنا في ديننا وكان لهما ما لنا وعليهما ما علينا. قال: فبعث الملك إليهما فدخلا إليه قال لهما صاحبهما: ما الذي جئتما به؟ قالا: جئنا ندعوه إلى عبادة الله الذي خلق السماوات والأرض ويخلق في الأرحام ما يشاء ويصور كيف يشاء وأنبت الأشجار والثمار وأنزل القطر من السماء قال: فقال لهما: إلهكما هذا الذي تدعوان إليه وإلى عبادته إن جئنا بأعمى يقدر أن يرده صحيحاً؟ قالا: إذا سألناه=

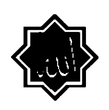
﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٠) أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ (٣٢)﴾:

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ وهم عباد الله تكويناً وتشريعاً، كيف أصبحوا عباد الشيطان، فـ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ طول التاريخ الرسالي، وهم المترَفون المفرِطون في تكذيب الرسالات، وأتباعهم الضعفاء. ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ رؤية في أعماق التاريخ، وأصدقه ما يقصه القرآن «كم أهلكنا من القرون» الطائلة ﴿أَنَّهُمۡ﴾ بعد هلاكهم ﴿إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ فهل

= أن يفعل فعل إن شاء قال: أيها الملك عليّ بأعمى لم يبصر شيئاً قط قال: فأتي به، فقال لهما: ادعوا إلهكما أن يرد بصر هذا فقاما وصليا ركعتين فإذا عيناه مفتوحتان وهو ينظر إلى السماء فقال: أيها الملك علي بأعمى آخر فأتي به قال: فسجد سجدة ثم رفع رأسه فإذا الأعمى بصير فقال: أيها الملك حجة بحجة علي بمقعد فأتي به فقال لهما مثل ذلك فصليا ودعيا الله فإذا المقعد قد أطلقت رجلاه وقام يمشي فقال: أيها الملك علي بمقعد آخر فأتي به فصنع به كما صنع أوّل مرة فانطلق المقعد فقال: أيها الملك قد أتيا بحجتين وأتينا بمثلهما ولكن بقي شيء واحد فإن هما فعلاه دخلت معهما في دينهما ثم قال: أيها الملك بلغني أنه كان للملك ابن واحد ومات فإن أحياه إلههما دخلت معهما في دينهما فقال له الملك: وأنا أيضاً معك ثم قال لهما: قد بقيت هذه الخصلة الواحدة قد مات ابن الملك فادعوا إلهكما أن يحييه قال فخرا ساجدين لله عزّوجلّ وأطالا السجود ثم رفعا رؤوسهما وقالا للملك: ابعث إلى قبر ابنك تجده قد قام من قبره إن شاء الله قال: فخرج الناس ينظرون فوجدوه قد خرج من قبره ينفض رأسه من التراب قال: فأتي به إلى الملك فعرف أنه ابنه فقال له: ما حالك يا بني؟ قال: كنت ميتاً فرأيت رجلين بين يدي ربي الساعة ساجدين يسألانه أن يحييني قال: يا بني تعرفهما إذا رأيتهما؟ قال: نعم قال: فأخرج الناس جملة إلى الصحراء فكان يمر عليه رجل رجل فيقول له أبوه انظر فيقول لا ثم مروا عليه بأحدهما بعد جمع كثير فقال: هذا أحدهما وأشار بيده إليه ثم مروا أيضاً بقوم كثيرين حتى رأى صاحبه الآخر فقال: وهذا الآخر قال: فقال النبي صاحب الرجلين: أما أنا فقد آمنت بإلهكما وعلمت أن ما جئتما به هو الحق قال: فقال الملك: وأنا أيضاً وآمن أهل مملكته كلهم. أقول: وفي المجمع عن وهب بن منبه ذكر القصة باختلاف يسير، وهذه القصة تخالف الآيات من جهات عدة فهي إذاً مختلقة مردودة لمخالفة القرآن.

ينتظرونهم لكي يخبروهم بصدق الحياة الحساب بعد الموت أم كذبه؟ أم ينتظرونهم أن يرجعوا فيصلحوا أعمالهم، ولات حين مناص، إذ فات يوم خلاص!

إن الهلكى وسواهم ﴿وَإِن كُلٌّ﴾ دونما استثناء ﴿لَّمَّا﴾ إلا ﴿جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ إحضاراً للحساب فالثواب أو العقاب، كسائر المؤمنين، أم ثواباً دون حساب ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩﴾[1].



(١) سورة المدثر، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

الفهرس

الموضوع الصفحة

سورة الأحزاب

سورة سبأ

سورة غافر

سورة يس